لـمياء الـمبيّض

ليلى

... أو معنى أن تكونَ في غيرِ بيتِك



مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دَارالجَديْد
Dar al Jadeed

لـمياء الـمبيّض

ليلى

... أو معنى أن تكونَ في غيرِ بيتك

مؤسسة دَار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دَار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

الطبعة الأولى، ٢٠٢٢

صورة الغلاف: ليلى الحاج بعدسة المؤلّفة
صور الكتاب: من مجموعة إبراهيم الحاج
صور ص. ٤٩ من مجموعة صبّاح الحاج
تحرير وتشكيل: قلم دار الجديد

دارة محسن سليم ـ جبل لبنان
ترقيم دولي: 978-9953-11-221-3

www.dar-al-jadeed.com

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

فِهْـــــرِس

مؤسسة دَار الجَـديْد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد

Dar al Jadeed

إهـــــداء

إلى صديقَتِك الشِّرِّيرة، ومنها إليك؛
هذا الكِتابُ مهدى أوَّلًا إلى ليلى، ثُمَّ لذِكراك.

حيـنَ اسـتأنفتُ بَـدْء مَشْـروعي وعنونتُـه ليلـى ظَـننتُني أكتُـبُ رِوايَـةً عـن أمّـي. لكنَّـكَ، مسـاءَ ذلـك اليـومِ الصيفـيّ الواقـع فيـه ٢٣ آب ٢٠١٦، وبحَـدْسِ قفّـاءِ أثـرٍ مِقْـدام، ظهّـرتَ لـي بواطِـنَ بحثـي النوسـتالجيّ وأرحامِـيَ الماسّـةَ بسـاحِلِ الـمَتنِ الجنوبـي. قلـتَ لـي والليـلُ فـي أوّلـه بنبراتِـك الهادئـة وصوتـك الأجـشّ: «ما يَحُثُّـكِ هـو الحَنيـنُ، حنيـنٌ أصلـيّ موجـعٌ إلـى أزمنـةٍ ورَوائـحَ وأطعمـةٍ وخُضَـر، إلـى الباذنجـان والفِجْـل يللـي بينْشَـكّ بِـذْرة بِـذْرة».

كـم كُنـتَ مُصيبًـا. كـم أنـا مزرُوعـةٌ مـن حيـث أدري أو لا أدري فـي هـذه الذاكـرة وفـي هـذه الأرض. شَـبَكتني ليلـى، بِخيـوطِ حُلْـمِ خالِهـا عَبـد اللـه الحـاج؛ تناسـلتْ خيـوطُ حكايتِهـا ونسـجت لـي ولأمثالـي أجمل الـرؤى. حَلُمنـا، نحن أهـلَ السـاحل، أهـلَ نـداء البحـر بوطـنٍ شُـيّد علـى فكـرة الجبـل الحصيـن. حُلْمنـا بلبنان الكيـان والنظام السـاهر على أبنائـه كاد أن يتحقّـق. كاد... كاد... وئـد. عسـى أن يتحقّـق.

لمياء المبيّـض
٣ شباط ٢٠٢٢

مؤسسة دَار الجَديْد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

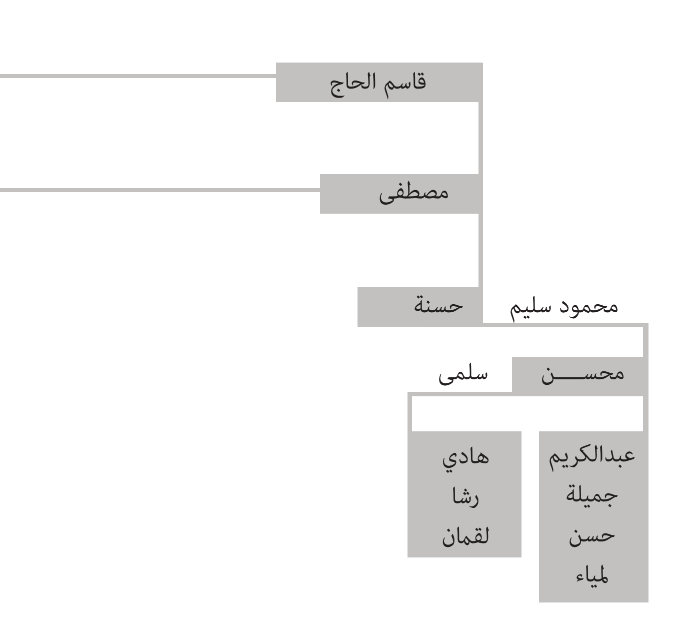
شُكرٌ لا يَنقَضي

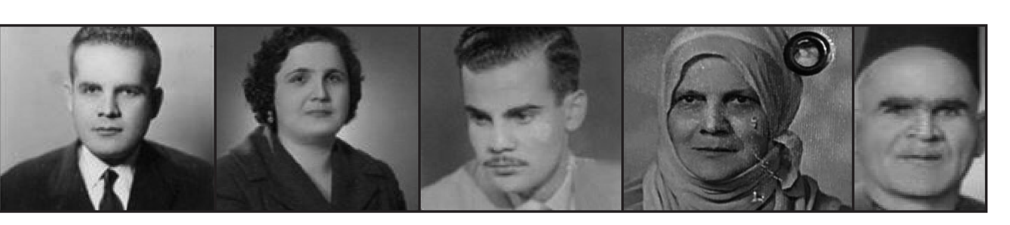
أَدِيْـنُ للصَّديـقِ الزَّميـل فـي مُؤَسَّسَـة طُرُقـاتٍ للحيـاة الأسْـتاذ رونـي ألفـا بالشُّـكْرِ العَمِيـق لحَضّـي وحثّـي نقاشًـا وقـراءةً ومراجعـةً صبـورةً كـي أنجـزَ هـذا الكِتـاب العزيـز.

الشُّـكْرُ مَوْصُـولٌ للأسـتاذ أنطـوان سَـلامة الـذي لـم يبخـلْ علـيّ بالملاحظـات القاسِـيَة السَّـديدة، ولصَديقتـي الأسْـتاذة أمـل حـوّا التـي أعادتنـي إلـى نُقطِـة الصِّفـر بعـد القِـراءة الأولـى وشـجَّعَتني علـى الغَـوْص أكثَـرَ فـي تفاصيـلَ أضافَـت إلـى الكتـاب بُعـدًا شـخصيًّا أعمـق. وأخيـرًا، كلّ الامتِنـان لفريـق دار الجديـد الـذي سَـهِر واعتنـى ـ كمـا يفعـلُ دائمًـا ـ كـي يَصـلَ كتابـي إلـى القُـرّاء ومنهـم أهلـي فـي سـاحِل المَتـن الجنوبـي بالحُلّـة الآنـق.

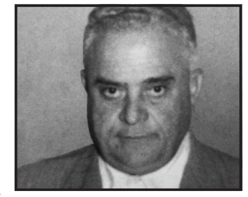
مؤسسة دَار الجَديْد
Dar al Jadeed

شجـــرة العائلــة





مصطفــى الحاج — بلقيـس محمـد الحاج — مالـك الحاج — سـلمى الحاج — منيـر الحاج



عبدالله محمد الحاج
١٨٩٩-١٩٧٥

مؤسسة دَارالجَـديْد
Dar al Jadeed

علي قاسم الحاج

محمد الحاج

ماريا

عبدالله

بلقيس

عباس
ياسمين
آمنة
سنيّة
فاطمة
سعديّة

ليلى

محمد المبيّض

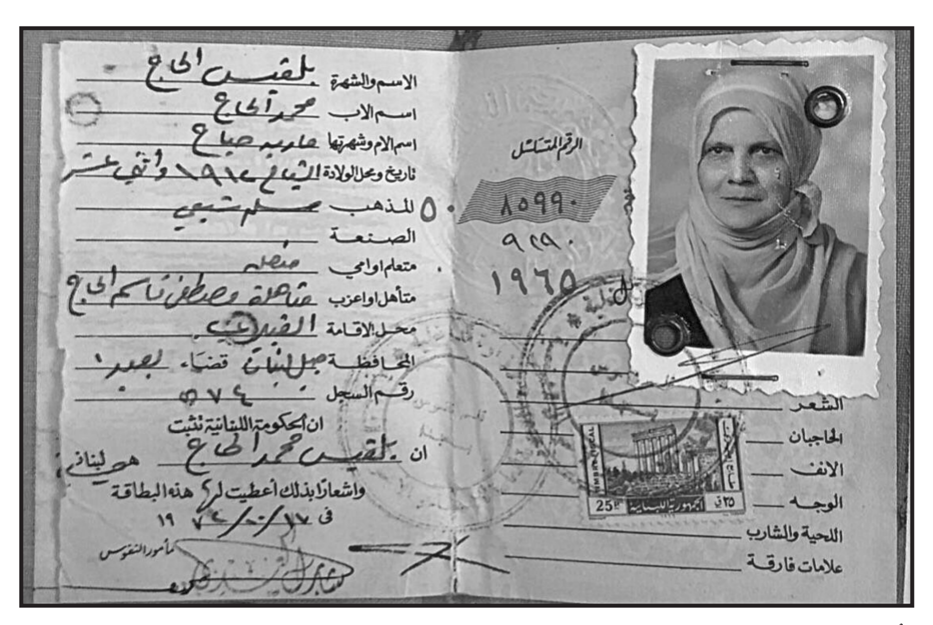
فضل
منير
إبراهيم
سلمى
مالك
يمنى
أحمد

لمياء
علي
علياء



أحمد الحاج　فضل الحاج　يمنى الحاج　ليلى الحاج　إبراهيم الحاج

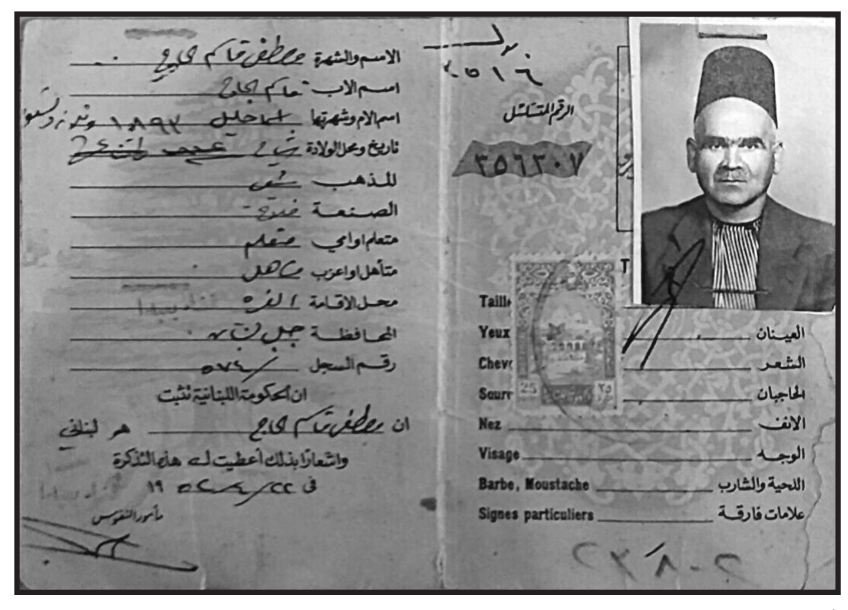
مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed


الاسم والشهرة بلقيس الحاج
اسم الاب محمد الحاج
اسم الام وشهرتها
تاريخ ومحل الولادة الشياح ١٩١٦
المذهب مسلم شيعي
الصنعة
متعلم او امي
متأهل او اعزب
محل الاقامة
المحافظة جبل لبنان قضاء بعبدا
رقم السجل
ان الحكومة اللبنانية تثبت
ان بلقيس محمد الحاج هو لبناني
واشعاراً بذلك أعطيت له هذه البطاقة
في ١٩
مأمور النفوس

الرقم المتسلسل
٨٥٩٩٠
١٩٦٥
الشعر
الحاجبان
الانف
الوجه
اللحية والشارب
علامات فارقة

هُوِيّة بلقيس والدة ليلى

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed



الاسم والشهرة مصطفى حاكم الحاج
اسم الاب حاكم الحاج
اسم الام وشهرتها
تاريخ ومحل الولادة ١٨٩٧
المذهب
الصنعة
متعلم او امي متعلم
متأهل او اعزب
محل الاقامة
المحافظة جبل لبنان
رقم السجل
ان الحكومة اللبنانية تثبت
ان مصطفى حاكم الحاج هو لبناني
واشعاراً بذلك أعطيت له هذه التذكرة
في ١٩
مأمور النفوس

الرقم المتسلسل
٣٥٦٣٠٧

Taille
Yeux العينان
Cheveux الشعر
Sourcils الحاجبان
Nez الانف
Visage الوجه
Barbe, Moustache اللحية والشارب
Signes particuliers علامات فارقة

هُوِيّة مصطفى والد ليلى

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دَار الجَـديْد
Dar al Jadeed



مـن اليميـن إلـى اليسـار أولاد بلقيـس ومصطفـى الحـاج: فضـل، سـلمى، أحمـد، منيـر، وفـي الصـف الأمامـي ليلـى وإبراهيـم، (١٩٤٥)

مؤسسة دَار الجـديْد
Dar al Jadeed



مـن اليميـن إلـى اليسـار: ليلـى الحـاج، عايـدة الريّـس، إبراهيـم وزوجتـه ليلـى الريّـس، يُمنـى وخُضـر الحـاج فـي مطـار بيـروت عـام ١٩٦٨

مؤسسة دَار الجَديْد
Dar al Jadeed

أُنثَـى في بنايَـة يَعقوبيـان

ليسـتْ ليلـى المَـرأةَ الوحيـدةَ الهاربـةَ مـن الذئـب، ذئـبِ التَّرحـال إلـى حيـاة لا تُشـبِهُها.

ليلـى صـورةٌ مصدّقـةٌ عَـن آلاف نسـاءٍ استنسـخَهُنَّ الحَنيـنُ إلـى عَبـقِ زَمـانٍ عَسَـليٍّ كانَ فيـه الدِّيـنُ معامَلَـةً، والحـبُّ مُتاحًـا عبـر أثيـر الإذاعـات، والتنـوّعُ نِعمَـةً تعـاشُ فـي البيـوتِ المُتصافِحـة.

كانَ ذلـك «وَطَـنَذاك» فـي ساحِل المتـن الجنوبـي[1]

---

(١) ساحلُ المتن الجنوبي: عنقودٌ من «القرى» الزراعيّة (سابقًا) تقعُ في قضاء المَتن ـ مُحافظة جَبل لبنان. امتدت المنطقة بسرعة مُطَّرِدة خلال الحرب الأهليّة من خلدة جنوبًا، إلى الجناح وشاطئ الأوزاعي غربًا، وعَين الرمانة والحَدَث شرقًا حتّى ليُظنّ أنّ الجُموحَ والتمدّد من صفة «الضاحية».

تُعتبر بلديّاتها اليوم وتحديدًا الغبيري التي تضم نادي الغولف ومجموعة من المنتجعات البحرية ثاني أغنى بلديات لبنان.

لَوّنَ أحمرُ الدمّ ورماديّ الأسمنت والدمار شوارعها وأزقّتها: الشيّاح ـ عين الرمّانة، يوم اندلاع الحرب الأهليّة، مجزرة صبرا وشاتيلا يوم احتّل الجيش الإسرائيليّ بيروت (١٩٨٢)، حرب المخيّمات، وأخيرًا الاعتداء الإسرائيلي عام ٢٠٠٦.

مـن لبنـان، قَبـل إطـلاقِ التسـمياتِ والنـار علـى مـا تبقّـى مـن ليـلِ ليلـى، وليالـي آلافٍ يشـبِهْنَها مـن حَمَلَـةِ شـهاداتِ الأنوثَـة الصَّعبَـة.

كانَ ذلـك «وَطَـنَذاك» فـي سـاحِلِ المَتـن الجنُوبـي مـن لبنـان، قَبـل أن تحمـلَ ليلـى أسـرارها وأولادهـا مـن مَخبـإٍ إلـى مَخبـإٍ، ومـن حَنيـنٍ إلـى حَنيـن، وتسـكُتَ زمنًـا طويـلًا عَـن كلامٍ غَيـرِ مُبـاح.

تَدخُـلُ إلـى حَضـرة ليلـى خالـيَ الوَفـاض، تَخْـرُجُ تِلميـذًا يتَعلّـم شَـغَف الحَيـاة.

عيـونُ ليلى تـشـتَـعــلُ بفَـرحٍ دَفينٍ حين تـســــألُها عَـن سـاحِلِها، سـاحِل الأمَـراء. تَـكادُ تسـمَعُ نَبضـاتِ قَلبهـا تَصـرُخ، قَبَضـاتٍ تطْـرُق الأبـواب. تخبِـرك عَـن «الأرسـلانيين» الذيـن سـكَنوه حتـى ١٧٧٠، وعَـن الأميـر الشَـهابيّ[٢] «الفَقيـر» يُشـاغِبُ فـي بَيـت مُربِّيَتـه فـي بَلـدة بُـرج البَراجِنـة حيـث كانَـت تقيـم

(٢) الأميـر بَشـير الثانـي الشَـهابي الكبيـر: أحَـد أمـراء جبـل لبنـان مـن آل شـهاب حَكَـم المنطَقـة بيـن ١٦٩٧ و١٨٤٢. نشـأ يتيـم الأب فقيـرًا رغـم جـذوره النبيلـة، بعيـدًا عَـن أمِّـه التـي تزوَجـت بَعـد وفـاة والـده قاسـم شـهاب وسـكَنت سـاحل المتـن الجنوبـي. يُعتبـر أحَـد أشـهَر الأمـراء فـي تاريـخ لبنـان وبـلاد الشـام عمومًـا، وأحـد أبـرز ولاة الشـرق العربـي فـي العصـور الحديثـة، وآخـر أمـراء لبنـان الفعلييـن.

والدَتُـه المُتزَوجـة، وعَـن الأمير فَخـر الدِّيـن المَعنـيّ الكبيـر[٣].

ذِكريـاتُ ليلـى تتنقَّـل مُختالـةً بَيـن مَـدِّ الشَـغَفِ وجَـزْرِ الحَنيـن إلـى زَمَـنٍ مُعَلَّـقٍ فـي مَطلـع القَـرن العشـرين. تَلعَـبُ بَيـن «أربـاع» الصُبّـار. تسـرُق ثَمـرات «الأكيدِنـي» والـ«حِنبـلاس». تَفتـحُ بخفَّـةٍ «سـاقوطة» بوابـاتِ الحدائـقِ الزاهيَـة فـي بَلـدات الشـيّاح والغبيـري وبُـرج البراجِنـة وحـارَة حرَيـك. بيـوتٌ قليلـةٌ تُزيّـن مِسـاحات خضـراء بَيـن بسـاتين الحُمضيـات وأشـجار النَخيـل. بيـوتٌ هانئـةٌ تَـزرَعُ فَرحًـا وحُبًّـا سَـهلًا فَسـيحًا يَرْبِـطُ صَنوبـر بيـروت بعِقـد نَهـر الغَديـر.

فـي هـذه الأرض الخَصيبـة زَرَعَـت ليلـى مَـع أبيهـا أشـجارَ التْـوت وقَطَفَـت الحَريـر.

ينطَفـئُ الفَـرحُ فـي عينَـي ليلـى حيـن تتَذكّـر كَيـف

---

(٣) الأميـر فَخـر الديـن المَعنـي الثانـي الكبيـر (١٥٧٢ ـ ١٦٣٥): أحـد أمـراء لبنـان مـن آل مَعـن الـدروز حـكّام إمـارة الشـوف بيـن ١١٢٠ و١٦٢٣ فـي الفتـرةِ التـي توحّـدت فيهـا إمـارات السـاحل الشـامي. كان أشـهر أمـراء بـلاد الشـام عمومًـا ولبنـان خصوصًـا. حكَـم المناطـق المُمتـدة بَيـن يافـا وطرابلـس باعتـراف الدَولـة العُثمانيـة ورِضاهـا. ويُعتبـر الأميـر الفِعلـي الأوَّل للبنـان ومؤسِـس لبنـان الحَديـث.

انقَلب الدَهر فخَسِر ساحِل الأُمراء بهاءَه وانتَصَر الإسمَنت. صار ضاحِيَةً رَماديَّةً عَنيفَةً مُعنَّفة، شاهِدَ عِيان على قَهْرِ مَن لجأ إليه، وشاهِدًا على بؤْسِ حال «الوافدين إليه»: منهُم مَن أتاه نازِحًا مُهَجَّرًا، ومنهم مَن قصَدَه طلبًا للرِزق. قهرٌ وبؤسٌ لفّا العاصِمة بيروت بحَبل حُزنٍ سرّي.

تتَذكّر ليلى كَيف تحوَّلَ ساحِلُها الهَنيء بَين ١٩٧٥ و١٩٨٩[٤] إلى خطوط توَتُرٍ وتَماسٍّ تشتَعِلُ بَين حين وحين بدُمدُمِ بنادِق القنّاصين وهواةِ الألعابِ الناريَّة المؤذيَة، لتستَفيقَ بَعدها على بطولاتٍ مُعلَّقةٍ عند حيطانٍ باهتة. سِجِلٌّ يوميٌّ للنِسيان.

أحداثٌ كُبرى حفَرت وَجعًا دائمًا في وجدان ليلى وأهلِ هذا الساحِل، أكثَرُها ألَمًا مَجزَرةُ صَبرا وشاتيلا في ١٦ أيلول ١٩٨٢. ثلاثَةُ أيامٍ وثلاثُ ليالٍ تواصلَ فيها فُنونًا جُنونُ القَتلِ، مارستْهُ مجموعاتٌ من القوّات اللبنانيَّة وجَيش

(٤) دامتْ حروب لبنان «الأهليَّة» الساخنة من ١٩٧٥ إلى ١٩٩٠، وتسبّبت بمقتل نحو ١٢٠ ألف شخص فَضلًا عَن الجرحى والمغيّبين والمُهجّرين والمهاجرين.

لبنـان الجنوبـي والجَيـش الإسـرائيلي. ألَــمٌ اسـتَمرّ مـع امتـدادِ الصِـراع العَبثـيّ المَفتـوح بَيـن الرَّئيـس السـوري حافِـظ الأسَـد ورَئيـس مُنَظَّمَـة فَتْـح ياسِـر عَرفـات فـي مـا عُـرِفَ بـ«حَـرب الـمُخيَّمات» طيلـة ثـلاث سـنواتٍ (أيـار ١٩٨٥ـ حزيـران ١٩٨٨) كان وَقُودَهـا المَسـاكينُ.

سـاحِلُ الأمَـراء الأخضَـر حديقَـةُ ليلـى طفلَـةً وصبيّـة انقَلَـب الدَهـرُ علَيه فأضحـى منذ مُنتصَـف ثَمانينيّات القَـرنِ العِشـرين مُربَّعًـا أمنيًّـا كَبيـرًا تكـرّرت عليـه الاعتـداءات بعدمـا تحَـوَّل «بَيْـت المُقاومـة»؛ أكثرُهـا تَدميـرًا حَـرب تَمـوز ٢٠٠٦، قَضـت علـى مـا تبقّى من نَسـيجٍ اجتِماعـيٍ مُختَلَـط ومـن مِسـاحات الأَمـلِ بغَـدٍ أخضَـر. تدَمَّـر بَيـتُ ليلـى دافنًـا تَحـتَ رُكامِـه كتُبًـا مَمنوعَـةً ورَسـائلَ حـبٍّ مسـموحَةً، ورائحـةَ طيـبٍ تَنـزُف مـن مَناديـلِ «الجورجيـت الأبيَـض» هـي كُلَّ مـا وَرثَتـه ليلـى عَـن أمِّهـا بلقيـس الجميلـة.

تَدخُـل علـى حَفـاوة ليلـى فـي الطابـقِ الرابِـع مـن عِمـارةٍ سَـمراء، عِمـارةٍ لا تلفـتُ النَظـرَ صَراحـةً. تَدخُلُهـا بـريْءَ الذمّـةِ لتكتَشِـفَ بَعـد حيـن أنَّـك فـي قَلـب المَدينـة المِعمـاري. سـائحٌ فـي تـراثٍ غَزيـر.

تفاصيـلُ صَغيـرةٌ جَميلـةٌ مُتقنَـةٌ تُـدرِكُكَ شـيئًا فشـيئًا، تتغَلغَـلُ فيـكَ، تُهديـكَ فرَحًـا لا تَفهَـم مَبعثَـه، يَظهَـر لَـك «مَـع الاسـتِعمال» لتَكْتَشِـفَ بَعـد حيـن أنَّـك فـي مَـكانٍ غَيـر عـاديٍّ، رَسـمَتْه عَبقريَّـةُ المِعماريَّيـن السويسـريَّين أدور وجوليـار، ولهمـا بصمـات كثيـرة فـي بـلادٍ كُنِّيـت يومًـا بـ«سويسـرا الشَـرق» [(٥)].

تسـألُ ليلـى عَـن سِـرّ هويَّـة العَمـارة «السويسـريَّة» فـي بلـدٍ مُتَهَجِّـسٍ بالحِيـاد. تخبِـرُك عَـن جـورج أدور السـاحِر الجَـريْء الـذي أَتقَـن لُعبَـة التَخفِّـي وَراء مـا يُعـرَف بتقنيَّـة «الواجِهـات السَـتائر»، ميَّـزت مَبانيـه ببسـاطةِ مَظهَرِهـا الخارجـي وأعطَتهـا أناقَـةً داخليَّـة وراحَـةً وجماليَّـةً نـادرة.

---

(٥) جـورج أدور [Georges Addor]: مهنـدس مِعمـاري سويسـري (١٩٢٠ ـ ١٩٨٢). امتـاز أسـلوبه المعمـاري باسـتعمال تقنيَّـة الواجهـات ـ السـتائر، والجـرأة فـي المُقاربـة الفنيَّـة مُسـتلهمًا أجـواء ثلاثينيّـات القـرن العشـرين Trentes Glorieuses. هَنـدَسَ فـي أقـل مـن ١٦ عامًـا نحـو ٦٠ مَبنًـى فـي العالـم، بعضهـا شـيّد فـي لبنـان، قبـل أن ينسَـحب مـن الحيـاة المهنيَّـة تـاركًا إرثًـا مـن الهندسـة المعماريَّـة المبتكـرة ونمـوذجَ إدارةٍ إنتاجيَّـة غيـر مَسـبوقة جمَعـت التصميـم والبنـاء فأصبَحـت شـركته فـي طليعـة عالـم العَقـارات فـي جنيـف. تحوَّلـت الشَـركة بَعـد وفاتـه إلـى Julliard & Bolliger وهـي اليَـوم تُعـرَف باسـم De Planta & Portier.

تجد ليلى في جورج أدور شَريكًا لها فتستَرسِل في لُعبة التَحفُّظ والتَخفّي، وتُخبرك قِصَّةَ ذلك المُبدع الذي طالما تجنَّب الدِعاية والمُناسبات الاجتماعيَّة، و«هَندَسَ» في لبنان مَبنى القَصر الرئاسي والمَصرف المَركزي ومَبنى الستاركو ومبانيَ خاصةً أخرى، ثم انسحب فجأة من الحَياة المِهنيَّة تاركًا إرثًا من الهندَسة المِعماريَّة المُبتكرة في مُعظم بِلدان العالم.

والساحِر أدور ترَك بَصماتِه على قَلب المَدينة في كَراكاس[٦]، شارع الثَقافة والهَوى والفَرح وبنايَة موسيس يَعقوبيان[٧] ـ منزل البعثات الديبلوماسيّة

---

(٦) شارع كراكاس: مُحاذٍ شارع الحمراء في منطَقة رأس بيروت. كان مركز تنظيمات سياسيَّة وحزبيَّة، بينها مقارٌّ للحزب السوري القومي الاجتماعي، وعليها أعلامه السوداء الموسومة بالزوبَعة، خصوصًا في شارع خالد علوان بَطَل عمليَّة الويمپي (٢٤ أيلول ١٩٨٢) ضدَّ الجيش الإسرائيليّ وهي عمليّة ذات رمزيَّة كبيرة تُمَثّلُ بداية أعمال المُقاومة ضدَّ القوّات الإسرائيليَّة في بيروت. هذا التمازُج الحزبي بين ١٩٧٥ و١٩٨٢ كانَ يتحوَّل أحيانًا مواجهة دامية في حرب شوارع بَين المسلحين قَبل أن تعود الحياة إلى مَجراها الطبيعي.

(٧) عَمارة يعقوبيان: أصحابُها يَعقوب موسيس يَعقوبيان وأولاده يوكسل ومارسيل وابنتاه إيسل ونورسيل. بَنَوها في شارع كراكاس سنة ١٩٦٦. كانَت أوَّل مُجمّع سَكني ذي مبنَيَين يتألفان من ١٣٨ شقَّة

والفنّانييـن والمثقّفيـن ومربـض ڤينـوس أحـد أشـهر ملاهـي بيـروت الليليَّـة فـي «أيـام العـز».

تُطلِـق ليلـى ابتِسـامةً مَهزومـةً سـلفًا حيـن تذكِّرُنـي كَيـف تحوَّلـت «الخَلايـا الدبلوماسـيَّة» إلـى «خَلايـا غَراميَّـة» و«خَلايـا أمنيَّـة» بَعـد تَدَفُّـقِ مُهَجَّـري الحَـرب وصعـود أمرائِهـا، وكيـف تُـرِك مَلهـى ڤينـوس لمَصيـرِهِ وبـاع مكَناتـه بالمفـرَّق لمقـاهٍ كثيـرة وحانـاتٍ أصبَحـت مَـع الوقـت مَحميـاتٍ سياسـيَّة ومراكـز شـبابيَّة وثقافيَّـة، منهـا حانـة أبـو إيلـي آخـر مَعاقـل الشـيوعيَّة، تزيّنُهـا صـوَر لينيـن وتروتسـكي وتشـي غيفـارا وجـورج حـاوي ووجـوهٍ أخـرى محليَّـة وعالميَّـة.

تُخبرنـي ليلـى أنَّ محميـاتٍ صغيـرةً ونـوادِيَ شـعريَّة ازدَهـرت فـي جـوار حانـة أبـو إيلـي يتنافـس فيهـا الشُـعراء والأدبـاء، منهـا مقهـى جَـدَل بيزَنطـي تزيّنُـه

ومحـل ومخـزن. تنـوّع سـكّانُها مـن فنّانيـن ودبلوماسـيّين. كمـا احتضَنـت ملهـى فينـوس قَبـل أن يسـكنها مُهجَّـرون خـلال الحـرب الأهليَّـة. تحصّنَـت فيهـا عـام ٢٠١٢ خلايـا مسـلحة، وفـي ٢٤ أيـار اقتحَـم الجيـش اللبنانـي شـقة «مجموعـة ١٣» المُتَّهمـة باغتيـال رفيـق الحريـري والمُرتبطـة بـ«خليَّة أحمـد أبـو عَـدَس» المقـرَّب مـن الـرأس المُدبِّـر فـي المجموعـة خالـد طـه.

صـوَر مُثقفيـن وأدَبـاء كمحمَـد شُـكري وأمَـل دُنقـل وأدونيـس والطَيـب صالـح (المفضّـل لـدى ليلـى)، يسـتَقبِل زوارَه بعِبـارة: «اِقـرَع بقـوَّة فـإنَّ الحَيـاة صَمّـاء». تُعجِـبُ ليلـى منطَقـةُ كَـراكاس، فهـي فُسـحةُ تمـازُجٍ طائفـي اجتماعـيّ حَضـاري، ومَوطـئ الإنجيليـن المُرسـلين ومَوجـات التَبشـير البروتسـتانتيَّة: فالجامِعـة الأميركيَّـة فـي بيـروت[٨]، دَغدَغـت أحـلامَ ليلـى البَعيـدة وبَقيَـت طـيّ الكتمان.

هـل تعرِفيـن أنَّ شـارع كَـراكاس هـو المَقلـب الغَربي لشـارع الحَمراء[٩]؟

(٨) منطَقـة رأس بيـروت: موقعهـا المُميَّـز جغرافيًّـا حـثّ مؤسسـي الكليَّـة البروتسـتانتيَّة السـوريَّة (١٨٦٦) التـي أضحـت لاحقًـا الجامعـة الأميركيّـة علـى تأسـيس حرمهـم الجامعـي علـى أرضهـا. حفّـز تأسـيس الجامعـة علـى انتشـار الفيـلّات والمبانـي السـكنيَّة التقليديّـة المُحاطـة بالحدائـق. مُنتصـف القـرن العشـرين ومـع التزايـد السـكانيّ وتبـدّل أنمـاط العيـش شُـيّدت مبـان مرتفعـة للسـكن وافتتحـت المقاهـي والمحـال التجاريّـة. تميّـزت المنطَقـة بسـبب تأثيـر الجامعـة بتنوّعهـا الجميـل.

(٩) مـن أبـرز شـوارع رأس بيـروت. ترتَبـط قِصَّتـه بـ«حُماتـه» فـي القـرن الثالـث عشَـر (الفتـرة المَملوكيَّـة). أدخـل الـمَماليك نظـام رقابـة يحمـي السـاحل مـن هجمـات صليبيَّـة فبنـوا أبـراج مُراقبـة كلَّفـوا العَشـائر لحراسـتها، منهـا عَشـيرة بَنـي الأحمَـر البِقاعيَّـة سـكنت غَربـيَّ رأس بيـروت ومـع اندثارهـا بَقـيَ اسـمها فـي هـذا الشـارع.
المصـدر: مقـال شـارل الحائـك، «أسـماء شـوارع بيـروت، تاريـخ مجهـول»، جريـدة الأخبـار، الجمعـة ١ نيسـان ٢٠١١.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

شـيَّد فيـه المماليـك أبراجًـا قديمـةً وأتـوا بعشـيرة بنـي الأحمـر البِقاعيَّـة لحِمايتهـا. ثـم رُحِّلَـت العَشـائرُ ودُمِّـرَت الأبـراج وبَقـي اسـم «الحَمـراء». قِصَّتُـه الحَديثـة «حَربيَّـة» كذلـك: ترتَبـط بتَنظيماتٍ سياسـيَّة وحِزبيَّـة يسـاريَّة وبتسـمية West Beirut أو «بيـروت الغَربيَّـة». شـارعٌ أضـاعَ هُويَّتـه فتحـوَّل جُغرافيـا قيـدَ الـدَرس، وبـات سـكّانهُ مَخفيّيـنَ قَسـرًا ومَكتومـي قَيـدٍ ورأيٍ وهُويَّـة. مَـكانٌ هَجيـنٌ تغلـي فيـه أفـكارٌ وتَجـاربُ وتَيـاراتٌ ومُخابـراتُ الكَـون فـي دُوْر سـينما ومَقـاهٍ وحانـاتٍ رَديئـة، وعلـى صَفحـاتِ جرائـدَ تَغُـصُّ بكُتّـاب ومُثقفيـن ومُناضليـن عَـرب وغيرِهُـم مـن الأُمَـم، غاليريهـات ومَسـارح ودُوْر سـينما وصُحـف ومجَـلات وكتُـب وأشـرِطة «كاسـيت»، مشـاريع أمميَّـة، مشـاريع قوميَّـة، مشـاريع ثوريَّـة، مشـاريع مُسـتقبلٍ بألـوانِ الرايـات المُتَعـدِدة، تتَجالـس وتتَسـامر ثـم... تندَثِـر.

تُعجِـبُ ليلـى منطَقـةُ كَـراكاس، لأنَّهـا تكـرَهُ النَمـاذِج الفاقِعـة للصَفـاء الطائفـي والسياسـي، وتِلـكَ الأحيـاء تُخفـي فيهـا محـاولات الاختِـلاط الوَهمـي انطـواءً

سـمِجًا ونزعَـةً لتَكريـس «اللحظـة الغيتَويَّـة» كمـا وصَفهـا يومًـا صديـقٌ شـرّير.

تُكمِـل ليلـى سَـرد روايتِهـا عَـن المدينـة: «تعرفيـن طبعًـا مَـن هـو أحمَـد الشُـقيري؟»[١٠]، وتُـردِف قبـل أن تنتَظِـر جوابًـا قرأتْـه بفِطنَتِهـا: «لا أصـدّق. مَعقول! أليـس فـي مُخّكُـم ذاكِـرة؟ أحمَـد الشُـقيري، يـا ابنَتـي الجاهِلـة، كانَ أوَّلَ رئيـسٍ لمُنَظَّمَـة التَحريـر الفلسـطينيَّة. ومـا لا يذكُـره العامَّـة عنـه: إنشـاؤُه سـنة ١٩٦٥ أحَـدَ أبـرَز مراكِـز الأبحـاث لجَمْعِ الوثائقِ القَديمـة والمُعاصِـرة المُتَّصِلـة بالصِـراع العَربـي الصُهيونـي وأرشَـفتها. أذكُـر قَولـه الغَنـيّ بالمَعانـي: «أنشـأتُ فيكُـم كفلسـطينيٍّ أمرَيـن: عَقـلَ المُنَظَّمَـة وهـو مَركـز الأبحـاث، وعَضـلات المُقاومـة وهـو جَيـش التَحريـر».

(١٠) أحمـد أسـعد الشُـقيري (١٩٠٨ ـ ١٩٨٠): مؤسـس مُنَظَّمَـة التحريـر الفلسـطينيَّة وأول رئيـس لهـا. تنحّـى عـن رئاسـة المنظمـة وشـغل مَنصب الأميـن العـام المُسـاعد للجامعـة العربيَّـة، ووزيـر الدولـة السـعودي لشـؤون الأمـم المتَحـدة، وسـفير السـعوديَّة فـي الأمـم المتَحـدة. عاصـر العهدَيـن العثمانـي والبريطانـي، أسـس الجيـش الفلسـطيني النظامـي (جيـش التحريـر الفلسـطيني) ولـد فـي عهـده مركـز الأبحـاث الفلسـطيني. المصدر: وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينيَّة

تَضحَـك ليلـى بمَـرارة: «أزعَـجَ الأرشـيفُ الصَهاينـةَ فنهَبـوهُ ودمَّـروهُ فـي حزيـران ١٩٨٢ عندمـا احتلـوا بَيـروت الغربيَّـة ثـمَّ فجَّـروه بسـيارة مُفخَخَـة فـي شـباط ١٩٨٣ علـى مـا أذكُـر»(١١).

لا أعـرِف لمـاذا اختـار أحمَـد الشُـقَيري كَـراكاس مَركـزًا لنَشـاط المُنَظَّمَـة الفِكـري والثَّقافـي. ربمـا لقُربِـه مـن البَحـر وكورنيـش المَنـارة، أو لصَـوت المَـوج ورائحَـة المِلـح وطَعـم فِنجـان القَهـوة فـي الــ Grotte aux Pigeons. ربمـا أحـبَّ كلّ ذلـك أو... ربمـا اشـتاق إلـى عـكّا.

---

(١١) مركـز الأبحـاث: بُعيْـدَ تأْسـيس أحمـد الشُـقيري «المُنَظَّمَـة» (أيـار ١٩٦٤) أسّـس لهـا مركـزًا للأبحـاث (٢٨ شـباط ١٩٦٥) لــ«جَمْـع وثائـق قديمـة ومُعاصـرة مُتَّصِلـة بالصِـراع العربـي ـ الصهيونـي، ومتابعـة جَمـع مـا يسـتجدّ منهـا، وتنظيـم سُـبل الإفـادة مـن هـذه الوثائـق». فـي حزيـران ١٩٨٢ اسـتَهدفتْهُ القـوّات العسـكريَّة الإسـرائيليَّة مـع مؤسسـات أخـرى تابعـة لمُنَظَّمَـة التحريـر وداهمـت إحـدى الوحـدات شُـقَّة المركـز ونهبَـت أرشـيفه ومحتويـات المكتبـة نهبًـا منهجيًّـا ولاحقـت العامليـن فيـه. وفـي مقـال نشـرته الباحثـة هنـاء سـليمان علـى موقـع جدليَّـة (٩ تشـرين الأول ٢٠١٨) جـاء أنَّ «سـرقَة الأرشـيف تـدُل علـى أنَّ تلـك السـجلَّات تهديـدٌ إضافـيٌّ وأن الإسـتيلاءَ عليهـا اسـتيلاءٌ علـى الذاكـرة الفلسـطينيَّة»
https://www.jadaliyya.com/Details/38042.
انتهـى عمـل المركـز عنـد تَفجيـر المَبنـى بسـيارة مفَخخـة (٥ شـباط ١٩٨٣) تسـبَبت بمَقتـل ١٨ شـخصًا، بينهـم ٨ مـن موظّفيـه، وبجَـرح نحـو ١٠٧ آخرين.عـام ١٩٨٥ تـم نقْـل المركـز إلـى قبـرص.

ولا أعـرِف أيضًـا لمـاذا اختـارَ أن يُجـاورَ «المَعهـد الألمانـي للأبحـاث الشَـرقيَّة»، العَريـقَ الـذي أسسَـته الجمعيَّـة الشـرقيَّة الألمانيَّـة سـنة ١٩٦١ أولًا فـي شُـقَّة مـن رأس بَيـروت قَبـل أن ينتَقـل إلـى فيـلا مـود فـرج اللـه فـي زقـاق البـلاط. العِلـم عُمومًـا يجـاور العِلـم. وكانـت لـه أيامئـذٍ مَنزِلـةٌ كبيـرةٌ برَغـم قِلَّـة المُتعلّميـن. أمـا الأرشـيف يـا ابنَتـي، ذاك الوَطـن المَنسـيّ إلّا مـن الفُقهـاء، فـكانَ وسـيبقى مَيـدان مَعـارِكَ مـن نـوعٍ آخـر، معـارِك السَـرديات وتطويـع الحُجَـج والبيّنـات والاسـتيلاء علـى الذاكِـرة أو... اغتيالهـا. ولنـا فـي ذلـك حديـثٌ آخـر، وربمـا أكثـر.



ليلى الحاج سبعينيّات القرن العشرين

مؤسسة دَار الجَديد
Dar al Jadeed

كيــفَ أزيدُهُــنَّ عِشقًـــا

نازِحـةً إلـى كَـراكاس قسْـرًا عِـن ليـلِ سـاحلِها البهـيّ وأضــواء قنابِــل تَمّــوز الإســرائيليَّة، كانَــت ليلــى تُحِــبُّ جميــع أشــهُر السّــنَة فــي موطِنهــا. إســقاطُ «الضّاحِيَـة»[1] اسـمًا علـى سـاحِلِها يُزعجها، ويضيـفُ إليهــا شــيئًا مــن حُــزنٍ فســيح.

تَنظــرُ إلــيّ بعَينيهــا الصغيرتيــن الثائرتيــن وتقــول: «ســاحِلُنا، يــا ابنتــي، لَــم يَكــن يومًــا بيتًــا للبــؤس. الأنــسُ سَــكَنَ هــذه الأرجــاء. لَــم يَكــن الســاحِلُ يَومًــا ضاحيَــةً للمســتَضعَفين. ولِــمَ يكونُهــا؟ ليــسَ للاســتِضعافِ طائِفَــةٌ أو مذهَــب. المســتضعَف: كلُّ مواطِــنٍ لا تَشــمَله الدولَــةُ برِعايتِهــا وأبوّتِهــا.

---

(١) «ضاحيـة المُسـتضعَفين»: السـيّد موسـى الصَـدر هـو أوَّل مَـن أطلَـق اسـم «ضاحيـةَ المحروميـن» علـى المنطقـة. أمـا اليسـار اللبنانـي فأسـماها «ضاحيـة البؤس».

الاسـتِضعاف ليـسَ دينًـا ولا طائِفَـة. هـو دَيْـنٌ لنـا فـي ذِمّـة الدولَـة إن كنّـا فِعـلًا طـلّاب حـقّ. إسـقاطُ الاسـتضعاف علـى المَشـاعِر الدينيَّـة اسـتِهانَةٌ بالديـنِ، ونَهـبٌ لفِكـرةَ الدّولَـة، وقَتـلٌ لفكـرةَ المواطَنَـة. هـذا السـاحِل تَنويـريٌ بامتيـاز».

تُرتِّـب ليلـى خصلـةَ شَـعرها الأبيـض القَصيـر وراء أذُنِهـا اليُمنـى، وتختَصـر ابتسـامَتَها والحَنيـن الدَفين. فَخـورة هـي بهالتِهـا الماسـيَّة اللَمَّاعـة تزيّـن حُريتهـا وتزيدُهـا سِـحرًا. تأخـذ نفَسًـا عميقًـا، تنظُـر فـي داخلـي وتُـردِف: «نحـنُ مـن السـكّان الأصلييـن[٢] إذا جـازَ التَّعبيـر. عائـلاتٌ مـن مسـلمين شـيعة

---

(٢) السـكّان «الأصليـون»: تحلـو هـذه التَسـميَة لمجموعـة عائـلات شـكّلت نسـيج منطقـة سـاحل المتـن الجنوبـي فـي أوائـل القـرن العشـرين مـن المسـلمين الشـيعة والسـنَّة ومـن المسـيحيين الموارنـة والـروم الأرثوذكـس، يفتخـرون بمـكان إقامتهـم ولهجتهـم المميَّـزة. تولَّـدت لديهـم نقمـة عميقـة لـم تمحُهـا السـنوات والتغيّـرات السياسـيَّة حيـال «الوافديـن الجـدد»، بسـبب تغييـرات سـريعة فـي منطقتهـم مـن حيـث نشـاطها الاقتصـادي وصورتهـا المُختلطـة المُنفتحـة. معظـم «الوافديـن الجـدد» نزحـوا مهجَّريـن مـن الجنـوب اللبنانـي بسـبب الاعتـداءات الاسـرائيليَّة المُتَكـررة علـى القُـرى، وعمليـات الخطـف والاعتقـال والتعذيـب والقتـل. ووفَـد آخـرون، أكثرهـم فلَّاحـون وأبنـاء قُـرى، مـن مناطـق البقـاع طلبًـا للـرزق فـي المدينـة، فتحـوّل سـاحل المتـن الجنوبـي تدريجيًّـا حـزام بـؤس يلـفّ العاصمـة.

وسُــنَّة ومســيحيين شــكَّلتْ نَســيجَ منطقــة ســاحِل المَتــن الجنوبــي فــي أوائــل القــرن العشــرين». تُعـدِّد ليلـى، بفَـرحٍ، عائـلات غُصـن وزَكُّـور وماضـي ونْعيــم ومعــوَّض، وآل الحــاج وحاطــوم وكَنــج وخَليـل وفَرحـات وسْـليم وعَلامـة والحَركـة ورَعـد. تذكُـر أهواءهـم السياسـيَّة وحماسَـتهم للانتِخابـات وانقِســامهم بَيــن مؤيِّــدٍ الشــمعونيَّة والكتائــب والكُتلــة الوطنيَّــة.

تضحـكُ بخُبـثٍ لذيـذ وهـي تقـول: «... وقـد نُفـرِطُ أحيانًــا فــي التمييــز بَيــن أصلــيٍّ ووافِــد، وفــي التمسُّــك بـ«لَهجتِنــا الســاحليَّة» المميَّــزة. لَكــنَّ كلَّ مَـن تَهجَّـر أو هُجِّـرَ مـن سَـهلٍ بِقاعـي فَقيـرٍ مُهمَـلٍ، أو مــن جنــوبٍ مُعتــدًى عَليــه، وَجَــدَ فــي ســاحِلنا مـلاذًا. بسـاطَة عَيشـنا حالـتْ دون أن نُـدرك عُمـق التغيُّـرات السـريعةِ التـي أصابَـت مِنطقتَنـا ونشـاطَها الاقتصــادي والسياســي، وطبعًــا صورتَهــا المُختلَطــة المُنفتِحـة. لَـم نَسـتفِق مـن ذهولِنـا إلَّا وبيئتُنـا باتـتْ منطقـةَ تكاثُـرٍ سُـكانيٍّ ذاتَ تَزَمُّـت دينـي وعَـدد مـن حُســينيّات ومَســاجد ومَحــالّ أزيــاء «شَــرعيَّة».

هكـذا: بَيـن لَيلـةٍ وضُحاهـا أصبَحنـا غُربـاء فـي مَنازِلنـا. وهـذا أسـوأ تَهجيـر. اغتيـالُ حَيـاةٍ أحبَبناهـا دونَمـا وَفـاة. تخيَّلـي أن تنوجـدي فجـأة تحـتَ قَصـفِ صَديـقٍ يُخَوِّنـكِ ويحَوّلـكِ غَريبـةً عَـن تاريخِـك، أن تَشـعُري بأنَّـكِ مُلغَـاةٌ فـي مُلْـكِك وبيئِتِـك وبَيتِـك وبَيـن أهلِـك. أليـس هـذا صَلبًـا وجلجُلـةً وشـقاء؟

تمُـجُّ ليلـى نفَسًـا مـن لُفافتهـا، وتسـتلُّها برشـاقَةِ أصابـعِ محـرِّكِ الدُمـى. ينتَشـلُني صوتُهـا مـن صـوَرِ السـاحِلِ المُلطَّـخِ بالأخضـر. صـوتُ ليلـى يُنسـيني غُصَّـةً تخنُقُنـي، يعيدُنـي إلـى كَـراكاس، ينبِّهُنـي إلـى خطـورَة الآتـي: «لنَعُـدْ إلـى بيـروت، مدينَتـك التـي تحوَّلـت أوطانًـا عـدة «بيروتـات» يـا عَزيزتـي أشـبَهَ بِجُمهوريـاتِ مَـوزٍ وَعَـوَز. لِـكلّ جمهوريَّـة فيهـا عَواصِـمُ مـن يافِطـاتٍ وأعـلامٍ ومَقـارّ رسـميَّة علـى هَيئـة صـوَرٍ عملاقَـةٍ فـي الأنفـاقِ وعلـى الجسـور. اتفـاق سـايكس بيكـو قسَّـم العاصِمـة علـى شَـكل «فرانشـايز» مُستنسَـخٍ بِعِنايَـةِ المؤسّسَـة الأم. لـكلِّ حـيٍّ بيئَتُـه الجِيوسياسـيَّة «جمهوريّتُـه» إذا صـحَّ

التَعبيـر. مـن لـونٍ واحـدٍ: بُـرج أبـي حَيـدَر وحَـيّ اللِّجـا والخَنـدَق الغَميـق وزْقـاق البـلاط وطَلعَـة النّويـري والبَسـطَة، ومـن لـون آخَـر: بَربـور وعائشَـة بـكّار ونُتَـفٌ مـن المصَيطْبِـه والخَنـدَق الغَميـق. أمـا شـارِع الحَمـراء ورأس بيـروت فعاصِمَتهمـا السياسـيَّة «كَـراكاس».

تأخـذُ ليلـى مجَّـةَ تَبـغٍ أخـرى وتُكمِـل: «أنـا بِنـتُ ثَقافَـة الحَيـاة. فـي مُراهقَتـي اسـتَعَضْتُ عَـن فروضـي المدرسـيَّة بحـبِّ الاطّـلاعِ والاسـتِطلاع. فـي بلوغـي وهَرَمـي ألزمتْنـي حَفيدَاتـي الثـلاث، يُمنـى وسـارَه وجـود، بالعَـودَةِ إلـى قواعِـد اللُّغتَيـن الفرنسـيَّة والعربيَّـة، فصـرتُ أسـتَرِقُ النَظَـر إلـى كُتبِهـنّ ليـلًا وأدوِّنُ أجوِبَـةَ تمارينِهـنَّ ثـمَّ أُشـرِفُ علـى فروضِهِـنَّ بَعـد عودَتِهِـنَّ مـن المَدرسـة. أحـاوِلُ أن أواجِـهَ ثقافَـةَ المَـوت التـي تَجتـاحُ أمَّتَنـا بِثقافَـةِ الحَيـاة. عِندَمـا تُطْلِلْـنَ مـن بـابِ البَيـت آتيـاتٍ مـن مدرَسَـتِهنَّ، أرى فيهـنَّ رَسـولاتٍ للحَيـاة فـي أوجِ بُزوغِهـا وأُفكِّـر: كيـفَ أزيدُهـنَّ عِشـقًا للحَيـاة؟ كيـفَ السَـبيل كـي لا تجهِـضَ أحلامَهـنَّ الجَميلـةَ

الجمهوريّـاتُ المُتراصَّـةُ فـي بيئِتِهـنَّ؟ كيـفَ أقتَلِـعُ علامـاتِ الإسـتِفهامِ التـي سـتدوّرُ وتقـوّضُ نِهايـاتِ نصوصِهِـنّ؟ كيـفَ أخفـي علامـات التعجُّـب مـن بَـونٍ شاسِـعٍ بَيـن مـا تتعلَّمنَـه فـي مدرسـتِهنَّ العَلمانيَّـةِ جـدًّا ومـا ستسـمَعنَه فـي كَـراكاس وفـي الجُمهوريّـات «الصَديقَـة» المُحيطَـة؟ حفيداتـي طاعنـاتٌ فـي البَـراءة. تَفْرُشْـنَ جميـع أنـواعِ الزينَـةِ فـي قلوبِهِـنَّ للمَولِـدِ النبَـوي الشَـريف ولميـلادِ المَسـيح مجتَمِعَين.عَلمانيّـات حَيـال مواجَهَـة جُمهوريّـاتٍ طائفيَّـةٍ حتـى النُّخـاعِ الشـوكيّ.

كيـفَ أزيدُهـنَّ عِشـقًا للحَيـاة؟ ستسـألْنَني يَومًـا، وهـوَ قَريـبٌ، عـن الفَـرق بَيـن المُسـلِمِ والمَسـيحي وسـيكونُ جَوابـي سَـهلًا ومُقنِعًـا. ثـمَّ سـتَعُدنَ مـن حُطـامِ الجُمهوريّـاتِ المُحيطَـةِ بأسـئلَةٍ أخـرى كالفَـرقِ بَيـن السُـنَّةِ والشـيعَة، وسـيكونُ جوابـي سَـهلًا كذلـك. لكنَّهُـنَّ سـتعُدنَ بأسـئلةٍ عَـن أسـئلَة يزوِّدُهُـنَّ بِهـا مواطِنـو الجُمهوريـات المُتراصَّـة، جُمهوريـاتِ اليافِطـاتِ والأنفـاقِ والزَواريـب. عندهـا سـأكونُ عاجِـزَةً عَـن الأجوبَـةِ السَـهلة.

كيـفَ أزيدُهـنَّ عِشـقًا للحَيـاة؟ لَـم يَعـد الجَـوابُ

متوافـرًا فــي قَواميــسِ الحيــاةِ الســعيدَة. الجــوابُ مؤدْلَــجٌ بامتيــاز، وســيكونُ علــيَّ أن أحــرَصَ علــى تَزويــدِ يُمنــى وســارَة وجْــود بالمؤونَــةِ اللازمَــةِ لمواجَهَــة كـمٍّ هائـلٍ مـن خُرافـاتٍ ستسـمَعنَها كلَّ يَــوم.

وجَدتُها!

سـأخبرُهُنَّ قِصّتـي العاديّـة جِـدًّا عَـن المَـكان حَيـث ترَعرَعـتُ فـي سـاحِلِ المتـنِ الجنوبـي ولَـم أرَ شَـخصًا واحِــدًا يــروّجُ لِثقافَــةِ القَتـلِ والمَـوت قَبـلَ تِلـك الحَـربِ اللَعينـة.

سـأخبرُهُنّ قِصـص بَلقيـس الصبّـاح ومصطفـى الحـاج وجِريـس الطيّـار وجدّتـي الحاجـة ماريـا وأبيهـا العلّامـة العاملـي[٣] الشـيخ يوسـف الصبّـاح.

---

(٣) العامليّـون: اسـتوطنوا جبَـل عامـل (أو جبَـل الجليـل أو جبَـل الخَيل أو بـلاد بشـارة أو بـلاد المتاولـة أو البشـارَتين). والاسـم يُطلَـق علـى أراضٍ فـي جنـوب لبنـان وبعـض أراضٍ حدوديـة شـمالي فلسـطين المحتلّـة. في معظم المصـادر أن التسـمية ترقـى إلـى قبيلـة «بنـي عاملـة» السَّـبائيّة، هاجَـرت مـن اليَمـن بعـد انهيـار سـدّ مـأرب ونزلـت هـذه الجبـال. اكتسـب جبـل عامـل أهميَّـة عِنـد الشـيعة الإماميَّـة لاعتبارهـا بـلادًا مباركـة مُتَّصِلـة ببـلاد بَيـت المَقـدس. أشـهرُ العامليـين: بهـاء الديـن العاملـي ومحسـن الأميـن صاحـب **أعيـان الشـيعة** وزينـب فـوّاز العامليّـة صاحبـة **الرسـائل الزينبيّـة**.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

سـأخبرُهُنَّ قِصـصَ خالـي عبداللـه الحـاج وشـقيقَيَّ فَضْـل وابراهيـم، وابـن عَمّـي مُحسِـن سـليم وابنـه لُقمـان، وكيـفَ رُبّينـا فـي «ربَيعـات الصَّبّـار» علـى ثَقافَـةِ الحَيـاة. سـأخبِرهنَّ عَـن عِشـقي إسـلامَ العِلْـمِ الـذي حَمَـلَ بعنايَـةٍ عَطِـرَةٍ بَيـن أصغَرَيـهِ الجَواهِـرَ العِلميَّـة والفلسَـفيَّة للحضـارَةِ اليونانيَّـة، فنَحَتَهـا وصَقَـلَ مـا فيهـا ثُـمَّ صدَّرَهـا إلـى أوروبـا إسـلامًا أيقَـظَ العُصـورَ الوسْـطى مـن تَثاؤبِهـا، وحَرَّرَهـا مـن أسـاطيرها، وأسـهَمَ فـي حِراثَـةِ بَسـاتينِ فِكرهـا وإبداعاتِهـا. وسـأحدّثُهُنَّ عَـن الشـيعَة والتشَـيُّع، وأعلّمُهـنَّ أنَّ المَـوت لَـم يكُـن الهَـدَف الأسـمى للثَـورَةِ الحُسَـينيَّة. فمـا اقترَفـهُ مُدَّعـو الإسـلامِ باسـمِ الإسـلامِ هـو قتْـلُ صـورَةِ اللـه. بعـضُ أصحـابِ اللحَـى التـي يسـرح بَيـنَ ثَناياهـا دودُ الفِتنَـةِ فَتَنـوا وأسـاؤوا إلـى ملاييـنِ الفَتيـاتِ والنِسـاءِ أمثـالِ يُمَنـى وسـارَة وجُـود، وإلـى شـبابٍ بعُمـرِ حَفيـديَّ زيـاد وجـاد. غَسـلوا عُقولَهـم وقلوبَهـم بمـاءٍ مُدَنّسـةٍ مَسَـخَتْهم أصنامًـا قاسـيَة.

كيـفَ أُعيـدُ إلـى أقـرَّةِ عَينـيَّ إسـلامَ الرَحمَـةِ بَـدَلَ إسـلامِ اللّحـى المتّسِـخَةِ بالمَـوتِ والدمـاء؟

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

كيـفَ أُعيـدُ إلـى زيـاد وجـاد ثِقَتَهمـا برُجولـةٍ لا تَكابُـرَ فيهـا علـى الرِقَّـةِ والحَنـان؟

كيـفَ أُعيـدُ إليهِما ثِقَتَهما بذُكوريَّـةٍ مُتصالِحـةٍ مَـعَ الحُـبِّ والرَحمَـةِ، منحـازةٍ للاحتـرام؟

وجَدتُها... وجَدتُها!

سأُخبِرُهم قِصَّتي... قِصَّتي العاديَّة جِدًّا».

تَتَوَقَّفُ ليلـى عَـن الـكَلام. تَضَـعُ برِفـقٍ كِتابَها جانبًـا. تسـتَلُّ لُفافَتَهـا بعَصَبيَّـةٍ تحـاوِلُ السـيطَرَة عليهـا. تَغيـبُ لحظـاتٍ فـي حَنينِهـا ثُـمَّ تعـودُ: «أنـا بِنْـتُ النوسـتالجيا الحَقيقيَّـة لسـاحِل المَتـن الجنوبـي. نوسـتالجيا ملوَّنـة بالحَـواسّ الخَمـس. أعالِـجُ حَنينـي بالروائـح والأطعمـة. فـي انتمائـي إلى مَسـقِط رأسـي نكهـةٌ مـن توابِـلَ وأطعِمَـة، صـوَرٌ مـن بُقـول وفواكِـه تعـود إلـيّ كلَّمـا عُـدتُ إلـى سـاحِلي، ألـوانُ صَنوبَـرٍ وحِمضيّـات. طَعـمُ الفِجـلِ والرَّشـاد والباذِنجـان وخُضَـر بسـيطة وحِنبـلاس.

عِطْـرُ الفُـلّ والحَبَـقِ يتراقَـصُ علـى موسـيقى نَهـرِ الغَديـر، وحـرارةُ الرَمـلِ السـاخِن تتَسـلَّلُ إلـى

ضحـكاتٍ شـقيَّةٍ تتَزحلَـقُ علـى تِـلالِ رَمْـلٍ تصـارِعُ أمــواجَ شــاطئٍ قريــبٍ وتبلــغ مَشــارِف الشــيّاح.

أحبُّهـا، هـذه الأرض! شَـغَفي بهـا مَزيـجٌ مـن سَـمْعٍ وبَصَـرٍ وذَوقٍ وشَـمّ. أرضٌ حرثْناهـا لنَزرَعهـا ونَحصُـدَ ثِمارَهـا. وكنّـا كذلـك نفتّـشُ عَـن حَصـادٍ مـن نَـوعٍ آخَـر: هنـاكَ فـي «الضاحيَـة» كَمـا لا بـأسَ أن تسـمّيَها أنـتِ انتَظَمـتُ فـي العَمَـلِ السياسـي. قُـربَ زَمالَـة المخيّمـات[٤]، بلَغَـتْ بـي سِـنَّ الرُشـد مُراهَقَـةٌ نبيـعُ فيهـا ونشـتَرِي كلَّ شـيء بالجُملَـة: النَظريـاتِ والمَفاهيـمَ والأحاسـيس. كلُّ شـيء يَظـلُّ فـي المُطلَق حتـى نبلُـغَ سِـنَّ الرُشْـد فتَنتَظِـمَ فينـا حاسَّـة الانتِقـاء ونتحـوَّل مـن الجُملَـة إلـى «المُفَـرَّق». نتـزوَّج فِكـرَةً واحِـدةً، مَـرّةً واحِـدةً أو أكثَـر، ونَتّبِـعُ نَمطًـا واحِـدًا، ونَكتَسِــبُ القُــدرَةَ علــى تَطويـعِ مَنطِـقِ «المُفـرَّق» بِحَســب أهوائِنــا وأمزِجَتِنــا. نَتــزوَّج مــن المُطلَــق. يَصيـرُ لَدَينـا ثلاثـةُ أولادٍ أو أكثَـر بـ«المُفـرَّق». عَكـس مَنطِــق التِجــارَة إذ نبــدأ بحانــوتٍ صَغيــرٍ يَبيــعُ بـ«المُفـرَّق» وننتَهـي بـ«مـول» كَبيـر يَبيـعُ بالجُملَـة.

---

(٤) مخيّمــا بُــرج البراجنــة وصبــرا وشــاتيلا أقيمــا علــى أراضٍ تابعــةٍ لبلديّــات ســاحل المتــن الجنوبــيّ.

بينما في الحَياة نبدأ بالمُطلَق ثُمَّ نذهَب إلى «المُفرَّق».

تتوقَف ليلى عَن الكلام المُباح. طويلةٌ رِحلتها في ذاكرتها المَوجوعة، هي الطوباويَّة الوسطى بَين شقيقتين، تتسلَّح بخَمسة أشقّاء، واثِقةً بكَمالِها رُغم النُقصان. تترَنَّح مُختالَةً بَين «ألله أكبَر» و«أبانا الذي في السَماوات». أوكسِجين ساحِلِ المَتنِ الجنوبي الآتي من خَمسينيّات هذا القَرن يملأ رئتَيها، وعِطرُ الياسَمين من بُستان ذاكِرَتِها.

لَم تدخُل ليلى يَومًا إلى مَكانٍ في أرجاءِ طفولَتِها إلا وكانَت تَشعرُ أنَّه مُلكٌ لها. في ساحِلِ المَتنِ الجنوبي كانَت جميعُ البيوتِ بيوتَها، تدخُلها بدون استِئذان. لا مَكان في عقلها للساقوطَةِ والأقفال. كانَت تقرأُ الحُبَّ في جميع البيوتِ وفي جميع كُتبِ الرحمَن.

ساحِلُ ليلى يسكُنُ عيونَها المُلوَّنَةَ بالحَنين. يتَبَرعمُ كلّما وقفت تُسرِّح شَعرَها أمامَ المِرآة. تنصُبُ كمينًا في خَيالها لوطَنٍ مُختارٍ تفجِّرُهُ شَغَفًا، وتنفَجِرُ مَعَهُ قَنابِلُ مُسيِّلةٌ خيالَ الأحلام.



من اليمين الى اليسار: أحمد، مصطفى، بلقيس، فضل وإبراهيم ـ خمسينيّات القرن الماضي

مؤسسة دَار الجَديد
Dar al Jadeed

بينَ شِمْر وإيكاريوس

كانَ بيتُنـا الوالِـديُّ فـي الغُبَيـري يتوسَّـطُ عَقـارًا فَسـيحًا خَصَّـص منـه والِـدي حيّـزًا لتربيَـةِ الأبقـارِ وصناعَـةِ الألبـان والأجبـان. كانَ زبائِنُـه يقصِدونَـه مـن جميـع أنحـاءِ بيـروت وضَواحيهـا ليشـتَروا اللَبـنَ واللَبنـة ومُشـتقّاتهما، لأنَّهـم كانـوا يثِقـون بـأنَّ مـا يَخـرجُ مـن بَيـن يَـديّ الحـاج مُصطفـى «كانَ بخَيـرِه» كامِـلًا دون زيـادَةٍ أو نُقصـان.

مـاذا بقـيَ مـن خَيـرِ لبنـان بَعدمـا بقرَتُـه الحَلـوب أعطَـت كلَّ لَبَنِهـا إلـى أهـلِ السياسَـة؟ نحـنُ أكَلْنـا وأطعَمْنـا مـن خيـرِ أبـي، واليـومَ نجـدُ مَـن يـأكلُ ويشـرَبُ وحـدَه مـن صناديـقَ سـريَّة هـي بمثابَـة بَقـراتٍ حَلـوب تُثـري أفـرادًا وتجعلُهـم أكبَـرَ مـن خَزينَـة الدولَـة.

أيُّ ولاءٍ للدَّولـة نأمُـل بِـهِ إذا كانَ الـولاء للأفـراد أقـوى مـن الـولاء لَهـا؟ وكيـف الـولاءُ لَهـم لا

يَكـون أقـوى مـن الـولاء لَهـا مـا دامـوا دَولـةً فـي الدَولَـة، أو دَولـةً أقـوى مـن الدولَـة؟ وأيُّ رَهجَـةٍ أو رَهبَـةٍ تَبقَيـان لبيـوتِ الدولَـة طالَمـا أنَّ بيـوتَ بعـض الأفـراد أكبَـرُ مـن بيوتِهـا، وأسـوارَها أكثـرُ ارتفاعًـا؟

علـى سـيرَة البيـوت، كانَ لا بـدّ لبَيتِنـا مـن أن يتَّسِـعَ لعائلـةٍ كبيـرَة، وقـد أسـهَمَتْ هندَسـتُه التقليديَّـة فـي اسـتيعاب أفـرادِ العائلـة: دارٌ فَسـيحَةٌ محاطَـةٌ مـن الجانِبَيـن بغُـرَفٍ علـى النَحـو الـذي نـراه فـي البيـوت اللبنانيَّـة التقليديَّـة.

بَلقيـس كانَـت ابنَـة عَـمّ والـدي «اللَّـزَم» ربَّـتْ ثَمانيـة أولاد. لَـم تُحصِّـل شَـهاداتٍ عاليـة، لكـنّ ذكاءهـا المُتَّقـد فِتنَـةً وجَمـالًا كانَ حاضِـرًا فـي كلّ فاصِلـةٍ مـن حياتنـا. كانَـت تَقـرأ بنَهَـمٍ وتَكتُـب بيُسـرٍ غيـرِ عاديـن حتـى تخـاوَت حيطـانُ بيتِهـا مَـع رُفـوف الكُتُـب. أورثَتْنـا جميعًـا، نحـنُ أولادَهـا، هـذه اللّوثَـة المُبارَكـة التـي ورِثَتهـا هـي مـن دون شَـك عَـن جَدَّتـي ماريـا، ابنَـةِ عَـمّ العالِـمِ الكبيـرِ حَسَـن كامِـل الصَبّـاح[1].

---

(١) حسـن كامـل الصَّبّـاح: (١٦ آب ١٨٩٤ ـ ٣١ أذار ١٩٣٥) عالِـم لبنانـي

كَـم كانَـت دَهشَـةُ حفيدَتـي يُمنـى وفَرحَتُهـا كبيرتيـن حيـن اكتشَـفتْ أنَّ فـي عروقِهـا بَعضًـا مـن جينـات هـذا العالِـم الـذي اعتُبِـرَ مـن كِبـار المُكتَشـفين والمُختَرعيـن فـي العالَـم. الوَحيـدُ الـذي تجـرَّأ علـى مُناقَشـة آراءِ العالِـم الكبيـر آينشـتاين. أعجَبهـا لَقَـبُ «إديسـون الشـرق» الـذي لازَمَـه بسَـبب غَـزارة الاختِراعـات التـي سـجَّلها، وأهمُّهـا جِهـازٌ لتَحويـل الطاقَـة الشَمسـيَّة إلـى طاقَـةٍ كهرَبائيَّـة مُسـتَمرَّة، عَرَضَـه علـى المَلِـك فَيصـل الأوَّل مَلِـك العِـراق ليَتبنـاه، ثـم علـى المَلِـك عبـد العَزيـز بِـن سَـعود لاسـتِخدامه فـي صَحـراء الرُّبـع الخالـي. مـاتَ الصبّـاح فـي ظـروفٍ غامضـة. بعضُهـم يعتَقـد أنَّـه اغتيـل علـى

ولِـد فـي النبطيّـة (جنـوب لبنـان). درَس فـي الكليَّـة الإنجيليَّـة السـوريَّة (الجامِعـة الأميركيـة حاليًـا) وفـي مؤسَّسـة ماساتشوسـتش الفنيَّـة فـي بوسـطن. الـذرّة والنسـبيّة مـن مجـالات اهتمامـه إذ كتـب وناقـش فـي الموضوعيـن. تُنسـب إليـه عشـرات الاختراعـات سُـجَّلت فـي ١٣ دَولـة، ونظريـات حسـابيّة فـي مجـال الهندَسـة الكهربائيَّـة. مـن أهـم اختراعاتـه: جهـاز إرسـال تلفزيونـي للانعـكاس الإلكترونـيّ، مُرسِـلُ صـور ومَناظـر، جهـاز لتفريـغ الشَّـحن الكهربائـي فـي الفضـاء، جهـاز لتحويـل الطاقـة الشمسـيَّة طاقـة كهربائيَّـة مسـتمرَّة.

بتصرّف عن مصادر الشبكة المفتوحة

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

يَـدِ الصهاينــة. ولــولا بَعــضُ الأوفيــاء مــن بلدَتِــهِ النَبَطيّــة، لمــا بَقــي مــن ذِكــراه الكثيــر. لــم يكــن مُصطفــى ليَمتَــدِحَ بَلقيــس علَنًــا، هــو المأخــوذُ بجَمالهــا وذكائهــا. حِشــمةٌ، خَفَــرٌ، وشــيْءٌ مــن حيــاء، لا ذُكوريَّــة تلوّثهــا ولا تَعصُّــب مَنَعــاهُ مــن الإفصــاح عَــن السّــر المُبــاح. يستَعيضُ عــن الإطــراءِ بشــهادةٍ حَنونــةٍ يجهَــر بهــا إذ يقــول لبلقيــس إنَّهــا وَرِثَــت ذكاءً «صَبَّاحيًّــا». يســتعيرُ هــذا الــذَكاء ليُعَيّــر بِــه شــقيقها عبداللــه حيــن يَخسَــر فــي الانتِخابــات النيابيَّــة، فيقــولُ لــه مازحًــا: «يــا خــال، خــلِّ الــذكا الصَبَّاحــي يِنفَعَــك هلَّــق».

خَمســةٌ وثلاثــونَ يومًــا فَصَلَــت مَــوتَ أبــي (عــاشَ سِــتًا وَتِســعينَ سَــنَة) عَــن مَــوت أمّــي (عاشَــت ثَمانيــن). كانَ ذلــك عــام ١٩٨٩ فــي عِــزّ حَربَيــن بَطَلَهُمــا رَجُــلٌ واحــد: حَــرْبُ الإلغــاء[٢]

(٢) حـرب الإلغـاء: فـي كانـون الثانـي ١٩٩٠، شَـهد لبنـان صراعًـا عسـكريًّا بيـن الجنـرال ميشـال عـون (رئيـس الحكومـة العسـكريَّة آنـذاك)، والقـوّات اللبنانيَّــة فــي مناطــق بيــروت الشــرقيَّة تســبّب بقتــل أكثــر مــن ١٠٠٠ شـخص خـلال الأشـهر التاليـة. وفـي آذار مـن العـام نفسِـه أَعلَـن الجنـرال عــون وَقــف القتــال وصــرَّح باســتعداده للموافقــة علــى اتّفــاق الطائــف. عـن المصـادر المفتوحـة

وحَـربُ التحريـر[٣]. الأولـى بَيـن الجنـرال ميشـال عَـون مـن جِهـة والقـوّات اللبنانيَّـة مـن جِهـةٍ أخـرى، قُتـل فيهـا أكثـر مـن ألـفِ شَـخص خـلال أشـهر. والحَـربُ الأُخـرى بَينَـهُ وبَيـن القـوّات المُسلَّحة السـوريَّة فـي لبنـان، إلـى جانِـب وحَـدات الجيـش اللبنانـي المواليـة لرَئيـس الجمهوريَّـة اليـاس الهـراوي ورئيـس الحكومـة سَـليم الحُـصّ. حُسِـمَت المَعركـة فـي ١٣ تشـرين الأوّل ١٩٩٠ عندمـا اقتَحـم الجيـشُ السُّـوري القَصـر الجمهـوري وانتَهـت معهـا الحَـرب الأهليَّـة اللبنانيَّـة. هاتـان الحَربـان أكَّدَتـا لـي أنَّنـا، نَحـنُ اللبنانيّيـن، فَنّانـون فـي النَحـرِ والانتِحـار. حَربـانِ بَيـن حَـروبٍ صَغيـرة كثيـرة تَقتُـلُ فيهـا وتُقتَـلُ فـي الفِعـلِ الواحِـدِ، وفـي

---

(٣) حـرب التحريـر: صِـراعٌ عَسـكريٌّ دار نهايـات الحـرب الأهليَّـة اللبنانيَّـة بيـن ١٩٨٩ و١٩٩٠وفيـه تَواجَـهَ الجيـشُ اللبنانـي الموالـي لرئيـس الحكومـة العسـكريَّة ميشـال عـون والقـوّات المسـلَّحة السـوريَّة فـي لبنـان مدعومـة مـن الجيـش اللبنانـي وموالـية لرئيـس الجمهوريَّـة اليـاس الهـراوي ورئيـس الحكومـة سـليم الحـصّ. حُسِـم النـزاع فـي ١٣ تشـرين الأول ١٩٩٠ عندمـا اقتَحـم الجيـش السـوري القصـر الجمهـوري ومعاقـل عـون الرئيسـيَّة، راح ضحيّتَـه مئـات المدنييـن والعسـكريين اللبنانييـن، بـه اختتمـت الحـرب الأهليَّـة اللبنانيَّـة السـاخنة.
بتصرّف عن مصادر الشبكة المفتوحة

اللَّحظَـةِ الواحِـدَة، فـلا تَعـودُ تُـدرِك مَـن القاتِـل ومَـن القَتيـل.

كانَ بيتُنـا الوالِـديّ فـي الغبَيـري، كمـا بيئتُنـا آنــذاك، حديقَــةً مُشــذَّبةً لا يتَمايَـز فيهـا مُسـلِمٌ عَـن مَسـيحي. ولهـذا لـم تكُـن عبـارة «حِـوار إسـلامي مَسـيحي» أو «تَعايُـشٌ إسـلامي مَسـيحي» مُدرَجَـة فـي قامـوس التَخاطـب الـذي تَرَبَّينا عليـه. بالمناسـبة، كَلِمـةُ «تَعايُـش» هـذِهِ سَـمِجَة هَجينَـة لا أحبُّهـا، لأنَّ مـا كانَ وقتئـذٍ كانَ عيشًـا واحـدًا وليـس تَعايُشًـا. لهـذه الكَلِمَـة رائحـةُ تـكاذُبٍ لا تَخفـى علـى كلّ مَـن عـاشَ هَنيًّـا بَيـن صَـوتِ أذانٍ وقَـرْعِ أجـراس.

ليـسَ سَـهلًا أن نوثّـقَ الحَـربَ اللبنانيَّـة فـي خانَـةِ صِـراعٍ سياسـيٍّ، فيمـا الطائفيَّـةُ تَسـتَبيحُ المُحرَّمـات وتَجعَـلُ مـن الصِـراعِ السياسـي سِـتارةً لِنظـامِ محاصَصـةٍ طائفيَّـة. طَوائِـفُ تُطالِـبُ بحقوقِهـا فـي تَعايُـش كاذِب، ولا حُقـوق. مُدهـشٌ حتـى القَـرَفِ اكتشـافك أنَّ قادَتهـا كانـوا عَلـى وئـامٍ، بَعضهـم مـع بَعـض، يتبادَلـونَ الخَدمـات علـى جانبَـي خُطـوط التَّمـاس. المُقاتلـون يَسـقطونَ «لِيَحيـا لبنـان» لكِـن

مَـن «يَحيـا» فِعـلًا أو بالأحـرى «تَحيـا» هـيَ الثَـرواتُ والأحقـادُ والعصَبيّـات القاتِلـة.

حَربُنـا هـيَ الوَحيـدَة التـي مـا زالَـت مُسـتَعِرَةً مـن دونَ مَدافِـع. المَتاريـسُ الجَديـدَةُ أكثَـر سَـماكَةً مـن أكيـاسِ الرَمـلِ، ودُشَـمُها أغلَـظُ مـن تِـلالِ الحَديـدِ والأسـمنت التـي سـوّرَت العاصِمـةَ خِـلال الحَـربِ الأهليَّـة.

أُنظُـري إلـى حالتِنـا اليَـوم، تَجِـدي المَسـيحيين يتَحدّثـون عَـن حُقوقِهـم ومناطِقِهـم تَحـتَ مُسـمّياتِ المُناصَفَـةِ وصِحَّـةِ التَمثيـلِ، وتقلِقُهـم وجوديًّـا حِصَّتُهـم داخِـل إداراتِ الدولَـة، وتجِـدي أهـلَ السُـنَّة يتَحدّثـونَ عَـن مواقِعهـم فـي البَلَـدِ وحُرماتِهـا، والأرثوذُكـس والكاثوليـك أيضًـا يتَحدَثـون عَـن مواقِعهـم فـي البَلَـد مُقابـل المُسـلمين، ثُـمَّ تَجِـدي المَوارنـة والبروتِسـتانت والـدُروز والشـيعَة وكلّ طائِفَـةٍ منهـم تَحسَـب نَفسَـها دولَـة، وجَميعُهـم فِعليًّـا طُـلّابُ حِصَـصٍ فـي دولَـةٍ هزيلـةٍ مسـكينةٍ مُسـتَضعَفَة...لا طُـلّابَ دولَـة.

قولـي لـي، بربِّـكِ، كَيـفَ للُبنـان أن يَفْـرِزَ مواطِنيـن

فيمـا المُواطَنَـةُ مُتَشَـظيَّةٌ مَمنوعـة؟ كيـفَ يَفْـرِزُ لُبنـان غَيـر تلـك المَخلوقـات الطائفيَّـة وهـوَ يَنمـو علـى فيتامينـاتِ الطَوائِـف ومؤسسـاتِها، والمواجَهَـةُ الدائـرَةَ فيـه لَيسـت مواجَهَـةً دينيَّـة بَـل ماليَّـة سـلطَويَّة بمُفـرَداتٍ دينيَّـة طائفيَّـة.

لا شـيء فـي المُفـرداتِ تَغيَّـر مُنـذُ أوائـلِ السَـبعينياتِ إلـى اليـوم. هـل ثُرنـا يومًـا؟ هـل فَعَلنـا مـا علينـا فِعلُـه لتَقويَـةِ مَناعَتِنـا الوَطنيَّـة؟ ولـو أنَّ بَصيـصَ أمـلٍ لاحَ يومًـا فـي تشـرين.

نَحـنُ بِحاجَـة إلـى كَلِمَـةٍ سَـواء. كلمـةٌ تَجمَـع كمـا يقـول اللـه تعالـى: «قُـلْ يـا أهـلَ الكِتـاب تَعالَـوا إلـى كلِمـةٍ سَـواء بَينَنـا وبينكـم ألَّا نَعْبُـدَ إلا اللـه ولا نُشْـرِكَ بـه شـيئًا» (آل عِمـران:١٦٤).

دَعينـي أقـولُ أيضًـا ولَـو أنَّ الجَهْـرَ بهـذا الأمـرِ اليـوم ضَـربٌ مـن السـورياليَّة: لَـم نُفَـرِّق فـي الأربَعينيّـات والخَمسـينيّات بَيـن سُـنيّ وشـيعي وبَيـن مَسـيحيّ ومُسـلِم.على الأقَـلّ، فـي ذلِـك السـاحِل الهَنـيء حَيـثُ تَرَعرَعـت.

كانَ أبـو جـوزف جِريـس الطيّـار يَدخـلُ إلـى بَيتِنـا

يَسْـبِقُهُ صَوتُـهُ الواثِـق. وقَبـلَ أن يُلقـيَ التَحيَّـة علـى والِـدي يضُـمّ أمـي المُتلحّفَـة بِمنديلِهـا الأبيـض، يُقبّلها مـن كَتِفِها ويقـولُ لوالـدي: «بَلقيـسُ هـذه، يـا مُصطَفَـى، أختـي مـن غَيـرِ أمّـي». مـا زِلـتُ أسـمَعُ صَـوتَ أبـي الرَجُـل المُحافِـظ دون تَطَـرُّف يـرُدّ علـى صَديقِـه: «أختُـكَ مـن دونِ شَـكّ...ولا حاجَـةَ لأن تَطلُـبَ إذنًـا».

كَـم «مُصطفـى» مـن هـذا الطِـراز بَقـيَ اليـوم فـي مـا يُسَـمّى «الضاحِيَـة الجنوبيَّـة» لبَيـروت؟ كَـم بَلقيـس؟ كَـم جِريـس الطيّـار؟ أو اليـاس معـوّض؟ أو غبريـال الخـوري؟ وكَـم امـرأةٍ شـيعيَّةٍ بوِشـاحِ «الجورجيـت» الأبيَـض تَتجـرأ اليَـومَ علـى استِقبالِ قُبلَـةٍ أخويَّـة مـن رَجـلٍ مَسـيحيّ أمـامَ زَوجِهـا المُحافِـظ؟

أنـا يـا ابنَتـي مـن مواليـدِ ١٩٤٣. كُنـتُ فـي الخامسـةَ عشـرةَ عِندمـا اندَلَعَـت ثَـورَة ١٩٥٨[٤]. يومَهـا فقَـط بـدأتُ أدرِكُ المَعنـى القاتِـل للنَعـراتِ المَذهبيَّـة،

(٤) «ثـورة ١٩٥٨»: هـي لحظـة مفصليّـة مـن تاريـخ لبنـان شـهدتْ حـروبَ شـوارع بيـن أنصـار الرئيـس كميـل شـمعون والمدافعيـن عـن الناصريّـة والوحـدة المصريّـة ـ السـوريّة وإنـزالًا عسـكريًّا أميركيًّـا.

والتَطلُّـع اللبنانـي إلـى الخـارج كأنَّ فـي جَعْبَـةِ الأجنَبـي حلـولًا جاهِـزة لأزَمـاتِ الداخـل. سـياحَةُ أزمـات ومؤتَمـرات، حِـوار طُرشـان، مـن لـوزان إلـى جنيـف إلـى سـان كلـو، ومـن الطائـف إلـى الدَوحـة و... جميعهـا أمـورٌ بـدأت تَتَكـوَّن منـذ عـام ١٩٥٨.

أتذكريـن حيـنَ أتَتْـكِ يُمنـى مَـع صَديقهـا نديـم مَسـاء ذلـك اليَـوم التشـريني مـن ٢٠١٩ يسـألانَك عَـن ثَـورة ١٩٥٨؟ إذ سَـمِعا الثـوّار يتَحدَّثـون عَنهـا ويحلِّلـون الأزمَـة اللبنانيَّـة وأصولَهـا، ويتَسـاءلون إن كانَـت ثَـورة ١٩٥٨ «بروفَـة» حَـرب ١٩٧٥ وكلّ مـا أتـى بَعدَهـا.

بِربِّـك: كيـف سـيَبني الشَـباب وَطنًـا توقَّفَـت ذاكِرَتُـهُ عِنـد الاسـتقلال، واختَلَـفَ مُربّـوه علـى كِتـاب تاريـخ، فاختـاروا بَتـرَه ظَنًّـا منهُـم أنَّ الوَقـت كفيـلٌ باغتيـال الذاكِـرة؟ يومَهـا لـم تَكتـفِ يُمنـى بـويكيبيديا. لـم يَشـفِ الانترنـت غَليلَهـا. أدرَكَـت بحَدْسِـها أنَّ للأزمَـة جـذورًا أعمَـق. اسـتَعانَت بذاكِرَتـي لتَخيـطَ ذاكِرَتَهـا. ذاكِرَتـي صِنَّـارةُ حَبْكَتِهـا، أمـا الخُيـوط فخُيوطُهـا هـي.

وكَيـف لا تَكـون هكـذا، وقصتـي رابِـطٌ مَخفـيٌّ بَيـن طموحِهـا إلـى وَطَـنٍ يُشـبِهُها، ووَجَـعٍ عميـقٍ يَنضَـحُ مـن ثُقـوب ذاكـرةٍ مُغتالـة.

يومَهـا أخبرتُهـا عَـن تأميـم قَنـاة السـويس (١٩٥٦)، عـن بِدايـة ضُعْـفِ الوجـودِ البريطانـي فـي المنطقَـة العربيَّـة، عـن قـرار الولايـات المتَّحـدة الأميركيَّـة دخـول الشَـرق الأوسَـط وَسْـطَ حَـربٍ بـاردة مَـع الإتحـاد السـوفياتي، وعـن توتُّـرات ونِزاعـات سـادَت فـي مِصـر والعِـراق والأردُنّ وسـوريا. آنـذاك رفَـضَ الرئيـس كميـل شَـمعون قَطْـع العلاقـات الدبلوماسـيَّة مـع الـدُوَل التـي هاجَمـت مِصـر بَعـد أزمَـة السـويس، مـا يُعـرَف بـ«العُـدوان الثلاثـي» شـنَّتهُ بريطانيـا وفرنسـا وإسـرائيل، هـو ثانـي الحـروب العربيَّـة الإسـرائيليَّة بَعـد حَـرب ١٩٤٨، وأحـد أهـمّ الأحـداث العالميَّـة التـي أسـهَمت فـي تَحديـد مُسـتقبل التـوازن الدولـي بَعـد الحَـرب العالميَّـة الثانيـة.

رَفْـضُ الرئيـس شَـمعون قَطْـعَ العلاقـات الدبلوماسـيَّة

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مَـع الـدُوَل الثـلاث التـي هاجَمـت مِصـر، أغضَـب الرئيـس المِصـري جمـال عبـد الناصـر[٥] والعروبييـن فـي البـلاد فثـاروا. وجـاء مدوِّيًـا كذلـك رَفْـضُ رئيـس الحكومـة سـامي الصُلـح الـذي لـم يشـأ الاسـتِقالة تَحـت ضَغـط الشـارع والزِّعامـات السُّـنّيّة فدَفَـعَ الثَمَـن غاليًـا: أُحـرِق مَنزِلُـه وقُتِـل ابـنُ أخيـه وحيـد. أصَـرّ الرئيـس شَـمعون علـى مَوقِفـه وتبنّـى فـي آذار ١٩٥٧ إدخـال البِـلاد فـي «حِلـف بغـداد» الأميركـي الإنكليـزي الفَرنسـي برغـم مُعارضـة رئيـس الـوزراء اللبنانـي رشـيد كرامـي وقِـوى لبنانيَّـة كالبَطريـرك المارونـي مـار بولـس بطـرُس المعوشـي[٦] وكمـال

---

(٥) جمـال عبـد الناصـر (١٥ كانـون الثانـي ١٩١٨ ـ ٢٨ أيلـول ١٩٧٠): ثانـي رؤسـاء مصـر بعـد الثَـورة. تولّـى السـلطة مـن ١٩٥٦ حتّـى وفاتـه. هـو أحَـد قـادة ثـورة ٢٣ تمّـوز ١٩٥٢ التـي أطاحـت بالمَلِـك فـاروق (آخـر حاكـم مـن أسـرة محمـد علـي). بعـد تسـلُّم عبـد الناصـر الحُكـم وضـع الرئيـسَ محمـد نجيـب فـي الإقامـة الجبريَّـة إثـر تنامـي الخلافـات بيـن نجيـب ومجلـس قيـادة الثـورة. بعـد الثـورة اسـتقال عبـد الناصـر مـن الجيـش وتولّـى رئاسـة الـوزراء ثُـمَّ اختيـر رئيسًـا للجمهوريَّـة فـي ٢٥ حزيـران ١٩٥٦ وفـقَ اسـتفتاء ٢٣ حزيـران ١٩٥٦.

(٦) بولس بطرس المعوشي (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥): البطريـرك المارونـي الرابـع والسـبعون (١٩٥٥ ـ ١٩٧٥). أوَّل بطريـرك مارونـي حمَـل لقـب «كاردينـال». البطريـرك بشـارة بطـرس الراعـي، خـلال عِظـة توليـه السُّـدّة البطريركيَّة عام ٢٠١١ سـمّاه «بطريـرك الانفتـاح بحكمـة علـى العالميـن العربـي والغربي». كان مَوقِـف البطريـرك المعوشـي، كموقِـف سـلَفه البطريـرك عريضـة،

جنبلاط وآخرين اعتبروا «حِلف بغداد» تَهديدَ القوميَّةِ العربيَّةِ، ورفَضوا الالتِحاق بالمَشروع الأميركي. وعِند إعلان الوحدة بَين مِصر وسوريا (٢٢ شباط ١٩٥٨): «الجمهوريَّة العربية المُتَّحدة»[٧] انقسَمَ اللبنانيون بَين مُطالِبٍ بالانضِمامِ إلى الوِحدة العَربيَّة ومُتَحَمِّسٍ للتحالُف مع الغَرب.

بَعد بعضِ الوقت اتُّهِمَ الرئيس شَمعون بتزوير الانتخابات النيابيَّة إذ غيَّر في الدوائر الإنتخابيَّة كي يأتي ببَرلمان يُعدِّل الدُستور ويُمدِّد لَه ولايَته، مُكَرّرًا بذلك تَجربة سَلَفِه الشَيخ بشارة الخوري في أيار ١٩٤٧.

شَرارة ثَورة ١٩٥٨ اندَلَعَت في ٦ أيار، واتَّسَعت

مؤيدًا استقلال لبنان مع تعاونه وانفتاحه على الشرق. وأيضًا كما سلَفُهُ البطريرك عريضة، عارض الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان.

(٧) الجمهوريَّة العربيَّة المتّحدة: اتحاد سياسي بين سوريا ومصر (١ شباط ١٩٥٨)، أُعلِن رسميًا في ٢٢ شباط. بموجَبه مَثَّلَت سوريا الجناح الشّمالي للجمهوريَّة العربيَّة المتّحِدة، ومصر جناحها الغربي. عاصمة الدولَة: القاهرة، رئيسها جمال عبد الناصر؛ ألغِيت الجنسيَّتان السوريَّة والمصريَّة، ووُضِعَت جنسيَّة جديدة باسم الجمهوريَّة العربيَّة المتَّحدة. أنهيت الوحدة بانقلاب عسكري في دمشق يوم (٢٨ أيلول ١٩٦١).

فـي اليَـوم التالـي إثْـرَ اغتيـالِ الصَحافـي نَسـيب المَتنـي، صاحِـب جَريـدة «التِلِغـراف» الواسِـعة الانتِشـار، وعُضـو الحِـزب التَقدمـي الإشـتراكي المُعـارضِ الرئيـس شَـمعون والـذي اعتبـر التمديـد لـه «جريمـة». إضـرابٌ عـامٌّ لـفَّ البـلاد. عمَّـت التَظاهُـرات الأراضـي اللبنانيَّـة، قُطِعَـت الطُرقـات، أُعلِنَـت الثَـورة علـى النِظـام، وظَهَـرَ المُسـلَّحون والمتاريـس فـي بيـروت. نَعَـم: المُسـلَّحون والمتاريـس، صـورَة عَرَفْتِهـا أنـتِ فـي طفولَتِك. أسـرع الرئيـس شَـمعون بتَقديـم شـكوى إلـى مَجلـس الأمـن مُتهِمًـا الجُمهوريَّـة العَربيَّـة المُتَّحـدة بإرسـال السِـلاح عَـن طَريـق سـوريا.

كُنـتُ عندهـا صبيَّـةً فـي الخامِسَـةَ عَشَـرة مـن عُمـرِ الزُهـور. أذكُـرُ كَيـف كانَ الجَميـع فـي بَيتِنـا يُتابِعُـون أخبـار سَـيطَرَةِ الثّـوار والمُحتَجّيـن علـى البَسـطَة والمصَيطبـة والطَريـق الجديـدة، ومُحـاولات القـوّات التابِعـة لكمـال جنبـلاط السَـيطرة علـى طَريـق بيـروت دمشـق واحتِـلال مَطـار بيـروت الدولـي. لكِـنّ الجَيـش اللبنانـي قَطَـعَ عَليهـا الطَريـق، يُسـانِده مُسـلّحون مـن الحِـزب السـوري

القومـي الاجتماعـي، وآخـرون تابِعـون للميـر مَجيـد أرسـلان خَصـم جنبـلاط السياسـي. الجيـش اللبنانـي بقيـادَة فـؤاد شـهاب رفـض يومَهـا «سَـحْق الثَـورة»، وفَضَّـل العَمَـلَ علـى احتوائهـا وكادَ أن يَنجَـح. لكـن سُـقوط الحكومَـة العِراقيَّـة الموالِيـة للغَـرب فـي ١٤ أيـار دَفَـعَ وزيـر الخارجيَّـة اللبنانـي آنـذاك شـــارل مالـك[٨] إلـى الطلـب رَسـميًا مـن الولايـات المتّحـدة التَدخُـل العَسـكري لـردّ هجـوم المعارضـة عـن العاصِمـة بيـروت.

اِسـتجاب الرئيـس الأميركـي أيزنهـاور لطَلـبِ الرئيـس شَـمعون فـي مـا سُـمّي بعَمَليَّـة «الخفَّـاش الأزرَق» (١٥ تمـوز ١٩٥٨)، وكان هـذا أوَّل تَطبيـقٍ

---

(٨) شـارل حبيـب مالـك (١٩٠٦ ـ ١٩٨٧): سياسـي ودبلوماسـي ومفكّـر لبنانـي. العربـي الوحيـد الـمُشارك فـي صياغـة وإعـداد الإعـلان العالمـي لحقـوق الإنسـان (كانـون الأول ١٩٤٨) بصِفَتـه رئيـس المجلـس الاقتصـادي والاجتماعـي التابـع للأمـم المتَّحـدة. كان وزيـر الخارجيَّـة (تشـرين الثانـي ١٩٥٦ ـ أيلـول ١٩٥٨)، ووزيـر التربيـة والفنـون الجميلـة (تشـرين الثانـي ١٩٥٦ ـ آب ١٩٥٧) فـي حكومـة سـامي الصلـح علـى عهـد الرئيـس كميـل شَـمعون. تـرأس الجمعيَّـة العامـة للأمـم المتَّحـدة بيـن ١٩٥٨ و١٩٥٩. فـي بدايـات الحَـرب الأهليَّـة اللبنانيَّـة سـاهم فـي تأسـيس الجبهـة اللبنانيَّـة، وكانَ مـن أبـرز منظّريهـا.

عمليّ لمبدإ «أيزنهاور»[٩]: حقّ أميركا بالتدَخل في الدول المُهدَّدة بالشيوعيَّة. دَخَلَ الأسطول السادس بيروت وسَيطَرَ نَحوَ ١٤٠٠٠ جُندي من الجَيش الأميركي والمارينز على مَطارها الدوَلي والميناء ومداخل المَدينة. ونَجَحَ وجودهم في قَمْع المُعارضة قَبل أن ينسَحبوا في تشرين الأول ١٩٥٨.

إخوَتي وأنا كنّا شهودًا على ثَورة ١٩٥٨. أربَعَة أشهُرٍ ونَيف كانَت كافية لتَحويل ما أرادَتهُ القِوى العَلمانيَّة الديموقراطيَّة أن يكون ثَورةً ضِدَّ الالتِحاق بالغَرب والالتِفاف على الديموقراطيَّة من خِلال التَمديد وتَعديل الدستور، إلى «ميني» حَربٍ طائفيَّة مُقَزِّزة، كانَ القَتلُ والاغتيالُ أيّامذاك مُرعبًا أسّه الهويَّات الطائفيَّة.

---

(٩) مشروع إيزنهاور: في خطبة ألقاها الرئيس الأميركي دوايت أيزنهاور (٥ كانون الثاني ١٩٥٧) ضِمن «رسالة خاصة إلى الكونغرس حول الوَضع في الشرق الأوسط». أن الدول التي ستطلب المساعدة الاقتصاديّة والعون المسلّح في حال تعرّضها للتهديد سوف يُلبّى طلبها. وذكر أيزنهاور التهديد السوفياتي بإصداره التزام القوّات الاميركية: «تأمين وحماية الوحدة الترابيَّة والاستقلال السياسي لأمم تَطلب تلك المساعدات ضدّ عدوان مسلح صريح من أيّ أمّة تسيطر عليها الشيوعيَّة الدوليَّة».

هــل حاسَــبْنا؟ هــل اســتَخلَصنا الــدُروس والعِبَــر؟ هَـل عَمِلنـا علـى مُعالَجَـةِ الشَـرخَ الـذي حَصَـل؟ كلّا. اِختَرنـا «الأمنيزيـا» أو بالأحـرى «النسـيان الإنتقائـي»، ومَحَونـا مـن ذاكِرتِنـا الوَطنيَّـة مـا اشـتَرَك مؤرخـون علـى تَسـميَتِه بـ«الحَـرب الصُغـرى». أجْـزِمُ أن أزمَـة ١٩٥٨ كانَـت البدايَـة وهـيَ كمـا أكّـدَ مِـرارًا المُفكّـر والكاتِــب كريــم مــروّة: «تَعبيــرٌ عــن المعضِلــة اللبنانيَّــة التاريخيَّــة، وهــي المحاصَصــة الطائفيَّــة والاتِــكال علــى القِــوى الإقليميَّــة والدوَليَّــة لحَــلّ مشـاكِل لبنـان، واستِجلاب مشـاكل هـذه الـدُوَل إلـى لبنـان». بلـى: تلـك «الأزمَـة» هـي تمامًـا كمـا اعتَبَرَها الكاتِــب وأســتاذ السياسَــة الدكتــور ســامر فرنجيَّــة: «نقطَـة ارتـكاز للمؤرّخيـن»، وهــي «مِفْصَليّـة لفهـم تحـوُّلات لبنـان وبدايـات الحـروب والثـورات، وهــي عـام اكتشـاف ضعـف لبنـان».

لَـم يَسـمَع الرئيـس كميـل شَـمعون نصيحَـة البَطريرك المارونــي مــار بولــس بُطــرس المعوشــي. خَسِــرَ رِهانَـه تَحـتَ ضَغـطِ التَدخُّـلات الخارجيَّـة العَربيَّـة والأجنبيَّـة، وبخاصّـة مـن مَبعـوث الرئيـس أيزنهـاور:

الدبلوماسي روبرت د. ميرفي. تَقَرَّرَ بدلًا منه انتخاب قائد الجيش المُعتدل فؤاد شهاب رئيسًا للجمهوريَّة توافقًا مع الرئيس جمال عبد الناصر. بَعدها تشكَّلتْ حكومةٌ رباعيَّة، فيها العميد ريمون إده وزير للداخليَّة.

ما زلت أذكُر خالي الحَبيب عبدالله يُرَدِد أمام زوّاره ومُناصريه: «لا مُستقبل للبنان في ظِل النِظام الطائفي المولِّد للأزمات»، مُكررًا قوله أيامَ النيابةِ إنَّ «المُعالجة الصَحيحة لحلّ المَسائِل اللبنانيَّة تَتطلّب جِهازًا غَير الجِهاز القائِم، ودُستورًا غَير الدُستور الحاضِر، وأشخاصًا من خَلْقٍ وخُلُقٍ جَديدين»[١٠].

ماذا تعلّمنا من أحداث ١٩٥٨؟ ماذا تغَيّر؟ جميعهم شقّوا طَريقَهم إلى السُلطة بَعدما ثبّتوا على أكتافِهم أجنِحَةً مَضمونَة من ريش نَعام الطائفيَّة، وجميعهم طاروا في فَضاءِ ألقابِ الفخامَةِ والمعالي والسّعادَة.

---

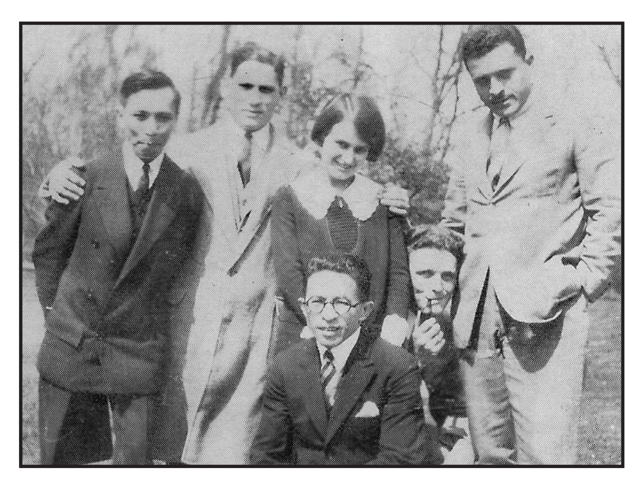
(١٠) وهيب معلوف، **نائب الشعب الكادح: سيرة عبدالله الحاج (١٨٩٩ـ ١٩٧٥)**، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة أولى، كانون الأول ٢٠٠٧، ص. ١٦١.

جميعهـم... إلّا عبدالله الحـاج إذ تلاشـى كـي لا أقـول شُـطِبَ حُضـورُه ودَورُه الريـادي وأفـكارُه الجَريئـة مـن كتـب التاريـخ.

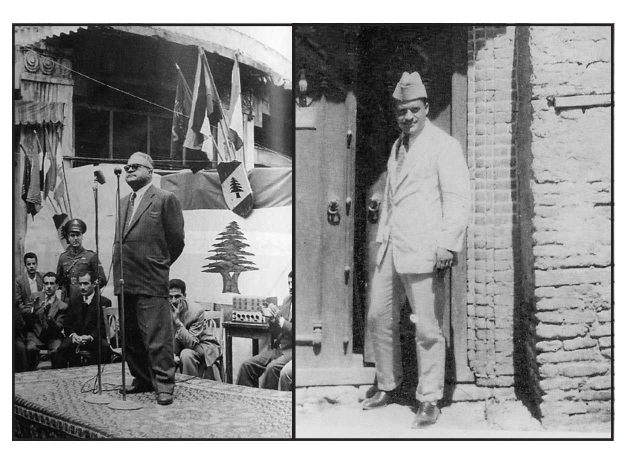
لا فـوارقَ فـي الاغتيـال: راهَـن عبداللـه الحـاج علـى أنَّ أجنحـةَ الطائفيَّـةِ سـيَكونُ مَصيرُهـا كمَصيـرِ أجنِحَـةِ إيكاريـوس البَطَـل الميثولوجـيّ الإغريقـيّ، أي أنَّ شَـمعَها سَـيذوب فتَسـقُطُ الأجسـام التـي تُصفّـقُ بِهـا.

أخطـأ عبداللـه الحِسـاب! يَبـدو أنَّ شَـمْعَ الطوائـفِ لا يَـذوبُ، ومـا زالَ المُحلّقـون بأجنِحَتِهـا يَجوبـونَ فَضـاءاتِ السُـلطة.

هـذا النِظـامُ الهَجيـنُ ألغَـى عبداللـه الحـاج، فبـاتَ بِمثابَـة إيكاريـوس النّظـام الطائِفـيّ فـي لبنـان.



عبدالله الحاج | جامعة كولومبيا
١٩٢٣



عبدالله الحاج | العراق
١٩٣٢

عبدالله الحاج
في الخمسينيّات

مؤسسة دَارالجَديْد
Dar al Jadeed

بينَ محمَّد وجون

تأخُـذ ليلـى مَجّـةً أنيقـةً مـن سـيجارتها الفرنسـيَّة، تَنظُـر إلـيّ بعيـونٍ باسِـمة، وتُـردِف بصـوتِ الحَكواتي اللَعـوب:

«تسـأليـنَني دائمًـا عَـن خالـي عبداللـه. حسـنًا! سـأخبُرك قِصَّتـه وسـتَعجبين. عبداللـه الحـاج كانَ الابـن الأحَـبّ إلـى قلـب أمِّـه الحاجَّـة ماريـا الصبّـاح مـن بَيـن أبنائهـا الثَمانيـة وبناتهـا السـت. وهـي كانَـت لـه مَلاكَـه الحـارِس، ومحَـطّ إعجـابٍ وحُـبٍ لامسـا حَـدّ العِبـادة.

ماريـا الآتيَـة مـن أرض الجنـوب تزوَّجـت محمَّـد الحـاج، التاجِـرَ الوَسـيم الثَـريَّ ابـنَ السـاحِل. حَمَلَـت سـنواتِها الثـلاثَ عَشـرةَ مـن النبطيّـة إلـى بسـاتين الغبَيـري حيـث بنـى لهـا الحـاج محمَّـد دارًا أوسَـعَ مـن أحلامِهـا.

ماريـا ابنَـةُ المَرجِـع الدينـيّ المَعـروف الشَـيخ يوسـف الصبّـاح، المُتوقِّـدةُ ذكاءً صبَّاحيًّـا وشَـغَفًا بالعِلـم لَـم يتكـرَّس، هـي ابنَـةُ عَـمّ العالـمِ الكبيـر المَغـدور بِـه حَسـن كامِـل الصبّـاح «أُقحوانَـة جَبـل عامِــل». كنّــا نســمّيه «جَبــل الجَليــل» أو «جَبــل الخَيـل» أو «بِـلاد الــمَتاولة». جمـالُ جدَّتـي لأمّـي كانَ مَضْـرِب المَثَـل فـي كلّ منطقـة سـاحِل المَتـن الجنوبـي، تزيّنـه هالـةٌ مُباركـةٌ طالمـا ميَّـزت أهـل جَبـل عامِـل. العامليّـون، يـا ابنَتـي، تُـراثٌ شـيعيٌّ مَعـروف. إنهـم أَقـدَمُ الشـيعَة. لَـم يسـبِقهم إلـى التشـيُّع إلا جَماعـةٌ مَحصـورةٌ مـن أهـلِ المَدينـة المُكرَّمـة. كانَ فـي مكَّـة والطائـف واليَمَـن والعـراق شـيعَةٌ قليلـون، وكانَ أكثَـرُ الشـيعَة فـي ذلـك الوقـت أهـلَ جَبَـل عامِـل. مـا مـن قَريـة فـي تلـك البِـلاد المُباركـة، المُتَّصلـة ببـلاد بَيـت المقـدِس، إلا خَـرجَ منهـا جَماعـةٌ مـن عُلمـاء الإماميَّـة وفقهائهـا، حتَّـى قيـل إن َعـدَدَ عُلمائهـم يقـارب خُمـس عَـدد عُلمـاء الشـيعَة، وكـذا مؤلفاتهـم مُقارنـة مـع مؤلَّفـات الباقيـن.

محمَّـد الحـاج، المأخـوذ بماريًّـا حـدَّ العبـادة، حقَّـق

جميعَ أحلامِها بالعِزّ والجاه وشَيَّدَ لها بَيتًا من طابقين («حارَة» بمُسمَّى ذلك الزَمان). حين قرَّرت ابَنة الشَيخ الجَليل أن تُعَلِّم بنيها وبناتِها في غَير المدارس الدينيَّة فاجأت جَرأَتُها جدّي لكنَه لم يُحاجج حِكمتَها ولا قاومَ قوَّة شَخصيَّتها. كانَ لها ما أرادت، وحصَّل أولادُها عِلمًا وتَربيةً حديثين، متفلّتين من مَنهج التلقين وَسطوة المدرسة الدينيَّة التي ارتادها آنذاك معظم أبناء جيلهم في البيئة الشيعيَّة المُحافظة. وكانَ لهذا المَنهج الأثرَ الأكبَر في مَسيرة عبدالله.

طالما تساءلْتُ: «ماذا لَو لَم تكُن ماريًّا روحًا حرَّة عاشِقة للعِلم والمَعرفة؟ ماذا لَو كانَت امرأةً عاديَّةً كغَيرها من نِساء ذلك الزمان، مستسلِمةً لمَصيرها، راضية بقرارات زَوجها تاجِر الحَرير الآتي من الفِلاحة؟ ماذا لَو أصرَّ محمَّد الحاج على إرسال أولاده إلى المدرسة الدينيَّة؟ هل يمكِن تتبُّع مَسار «ماذا لَو» في جميع مُفترقات طُرُقِ الحَياة؟

تساؤُلٌ، يا ابنَتي الحَبيبة يتحدَّى لُعبَة الأقدار.

دَخَلَ ولَدا ماريا، عليٌّ ومُنير، الكُلّيَّة الحَربيَّة

فـي اسـطَنبول[1] فـي عشـرينيّات القَـرن الماضـي. خَــرج منهــا مُنيــر مقتــولًا برَصــاص الطَيــش وتخــرَّج منهــا علــيّ ضابطًــا فــي دَورة الرئيــس فـؤاد شـهاب[2] الـذي أصبَـح فـي مـا بَعـد قائـدًا للجَيــش ورئيسًــا للجُمهوريَّــة اللبنانيَّــة، وربطَتْــهُ بــه صداقــةٌ متينَــة اتَّصَلَــت بأخيــه عبداللــه فتوطَّــدت العَلاقــة بَيــن الرجُليــن وكانَ مــن المقرَّبيــن القلائــل إليــه.

علــى خِــلاف مــا فعَلــه عبداللــه، لَــم يشــأ علــيّ خَــوض غِمــار الحيــاة السِّياســيَّة أو العســكريَّة علــى الرَّغْــم مــن كونِــه مؤهَّــلًا لذلــك، لكنــه آثَــر التوجُّــه مَــع شــقيقه فايــز إلــى البَرازيــل فأسَّســا عائلتَيــن

---

(١) الكُلّيَّــة الحربيَّــة فــي اســطنبول: كانَــت أكاديميــا تحظــى بإقبــال طـلّاب «الولايـات العربيَّـة» لأنَّهـا توفّـر تعليمًـا بِمعاييـر منهجيَّـة عاليـة، ولمُرتاديهـا فـرص عمـل خصوصًـا لِمـن لـم يتحـدّروا مـن عائـلات مَيسـورة.

(٢) فـؤاد عبداللــه شــهاب (١٩ آذار ١٩٠٢ ـ ٢٥ نيســان١٩٧٣): رئيــس جمهوريَّــة لبنــان (١٩٥٨ ـ ١٩٦٤) قائـد سـابق للجيـش ورئيـس حكومـة عسـكريَّة أسـبق. انتُخـب بعـد أحـداث ١٩٥٨ خلفًـا للرئيـس كميل شَـمعون. جـاء مرشَّـحًا توافقيًّـا تحـت شـعار «لا غالـب ولا مغلـوب». قـام بإصلاحـات إداريَّـة وسـعى إلـى تحسـين علاقـة لبنـان بالـدول العربيَّـة. تعـرّض للانتقـاد بسـبب صرامـة الحكـم العسـكري وتدخّـل «المكتـب الثانـي» (المخابـرات) فـي إدارة الحكـم. تعـرّض نظامـه سـنة ١٩٦٢ لمحاولـة انقلابيَّـة فاشـلة قـام بهـا الحـزب السـوري القومـي الاجتماعـي.

وأعمــالًا مزدَهــرَة مفضِّليــنَ بِــلادَ البُــنِّ علــى بِــلادِ الأرز. ربَّمــا لأنَّ المَســحوقَ الحنطــيَّ أكثَــر أمنًــا وأمانًــا مــن مَســاحيقِ السياسَــةِ اللبنانيَّــة وساسَــتِها. مســاحيقُ ثَبُــتَ زيفُهــا خــلالَ سَــنواتِ الحَــرب الأهليَّــة ومــا بَعــد. بقــيَ جَعفــر فــي البِــلاد وأصبَــح مــلّاكًا كبيــرًا. أمــا أصغَــر الأبنــاء، فَضْــل، فاختــارَ أن يُنهــي حياتَــه مُنتَحِــرًا برصاصَــة حُــبٍّ فــي الــرأسِ بَعــد أن رَفــضَ أهلُــه تزويجَــه مــن حبيبَتِــه البهيَّــة بهيَّــة ســليم.

خَسَــارةُ مُنيــر وفَضْــل كانــت أكبــرَ مــن طاقــةِ الحاجَّــة ماريَّــا علــى الاحتِمــال. عِنــد عَودَتــه مــن الولايــات المتَّحــدة الأميركيــة حَيــث أنهــى دراسَــته، وَجــدَ عبداللــه والدتَــه فــي حالــةٍ عَصبيَّــة ونَفسـيَّة صعبــة، فأتــى بســيّدةٍ مكســيكيَّة اســمُها أنجيلينــا، أطلَــقَ عليهــا الأهــلُ فــي مــا بَعــد اســم «إنْخلِــة» لتَهتــمَّ بالوالِــدة الحَبيبــة.

عندمــا تُوفّيَــت الحاجَّــة ماريَّــا (أَواخِــر ١٩٣٦) لَــم يشــأ عبداللــه، الغــارِق فــي الأســى مــن فِــراق شَــقّ الــروح، أن تغــادِرَ «إنْخِلــة» البَيــت الكبيــر لأنَّ فــي حضورهــا طَيــفَ مَــن سَــكَنَت روحَــه. عَطَــفَ

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

عليهـا وعلـى أولادِهـا ورَعَـى شـؤونَها حتـى وفاتِهـا.

أسـرُد هـذه الحادِثـة للدلالـة علـى وفـاءِ الرَجُـل. هــذه القيمَــة لَـم تفارقْـه طيلَــة حياتِـه ولَــم يلطّخهـا لا جـاهٌ ولا عـزٌّ ولا علـمٌ ولا مـال. وفـاءٌ لــكُلّ مَـن مَــدّ يَـد المسـاعدة لَـه يومًـا. وفـاءٌ لجامِعَتِـه كولومبيـا[٣] التـي غيَّـرت مَسـار حياتِـه فظَـلَّ يُرسِـل إليهـا بانتِظـامٍ تَبَرّعـات ماديَّـة.

قصَّـةُ عبداللـه السياسـي والإنسـان، ابنِ سـاحِل المَتن الجنوبـيّ المُسـافِر علـى أحـلام العَلمنَـة والحداثـة، المتأثّـر بالبَسـاطة وثقاَفـة العَمَـل والالتـزام والتَّحَـرر، حامِـل لـواء الديمقراطيَّـة الاشـتراكيَّة، قصَّـةٌ تليـقُ بفيلـمٍ هوليـووديّ بـكلّ مـا للكلِمـة مـن مَعنـى، فاسـمَعيها واحكُمـي بنَفسِـك.

ولِـدَ خالـي عـام ١٨٩٩ فـي بَلـدة الغبَيـري، فـي بَيــت أبيـه الأشـبَه بـدارة النبـلاء. تحـوَّل اليَـوم مبنًـى تجاريًّـا مَعروفًـا بـبنك صـادرات إيـران. بـدأ دراسَــته فــي سِــنّ متأخّــرة بالمدرسـة الابتدائيَّــة

(٣) جامعـة كولومبيـا: مـن أعرق وأشـهر الجامعـات الأميركيّـة النيويوركيّة. خرّجـت ساسـةً وعلمـاء نالـت كوكبـةٌ منهم جوائـز نوبـل المرموقة.

التابعَة لليسوعيين. لَم يمكُث فيها سوى سنتين إذ «تمرَّد» على صَرامة نِظام التعليم اليسوعي فغادرها. لكن أمَّه ماريَّا لَم تستَسلم بل أدخلتْهُ سنة ١٩١٤ إلى المدرسة الاستِعداديَّة التابِعة للكليَّة الإنجيليَّة السوريَّة (التي أضحت اليوم: الجامِعة الأميركية ـ بيروت). عامئذٍ اندلعت الحَرب العالميَّة الأولى، والجامِعة بَعيدة، والطُرقات غَير آمنة، والجوع وفقدان المواد الأوليَّة يهدّدان العائلات. لكن لا شيء يقِف في وَجه ماريَّا.

اِرتاحَ عبدالله بسرعة لجَوّ الانفِتاح في الكليَّة الإنجيليَّة، وتماهى مع نموذَجها التعليميّ القائم على حرّيَّة التعبير وروح نقديَّة وليبراليَّة صارَت لاحقًا نسَقًا فكريًّا في فلسفَة الإصلاح والحَداثَة التي حاجَج بها. وكانَ لانغِماسه في النشاط الطلّابي ولعلاقاتِه الندّية مع أساتِذتها، أبلَغ الأثَر في تطوير شخصيَّته القياديَّة وقدراته السجاليَّة والخطابيَّة.

تتوقَّفُ ليلى فجأة. تشلَح عَباءة الحَكواتي. توجّهُ إليَّ نظراتِها الذكيَّة. تغوصُ في أعماقي وتسأل:

«أتذكُرين حين تحَدَّيتِ والدَكِ وقرَّرتِ دخول الجامِعة الأميركيَّة في بيروت[٤] معَ، أو من دون، موافقة أو مساعدة أحَد؟ أتذكُرين كيف رَفعْتِ أمامَ أعيُننا رسالة القَبول في الجامِعة كمَن يَرفَع عَلَم الانتِصار فَوق رؤوسٍ مَهزومة؟ قرأتِ علينا يومَها فرَمانَ قرارِك بصَوتٍ ثائرٍ نابضٍ بَعزمِ اليائس. في ذلك اليَوم من رَبيع ١٩٨٤ رأيتُ في تصميمكِ عِناد الحاجَّة ماريًّا، وفي سِمات المُشاكسَة وإرادَة اقتِحامِ المَحظورِ عندكِ توسَّمْتُ خَصالَ خالي عبدالله وسليقَته.

حربُنا في الثَمانينيّات، يا ابنَتي، لَم تكن حَربًا عالميَّةً كالّتي عاشَها عبدالله. لكنَّ قرارَك عامَذاك لَم يكن سهلًا ولا عاديًّا بالنِسبة لنا. كانَت أزمنةُ الرَّخاء قد ولَّت، واستَتبّ زَمن القلّة. حياتُنا انقلبَت رأسًا على عَقِب، وحروبنا الصغيرة ضَربت ضاحيتَنا وأعمالَنا وأرزاقَنا ؛ أنهَكت قِوانا

(٤) الكليَّة البروتستانتيَّة السوريَّة: أضحت عام ١٩٢٠ جامعة بيروت الأميركيّة. أسسها المبشر الأميركي القسّ دانيال بلس (١٨٢٣ ـ ١٩١٦) وكان أوَّلَ رئيس لها. تقديرًا له سمّي الشارع الملاصق لسورها شارع بلس، وأَطلق اسم بلس هول على أحَد مبانيها.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

وأردَت الِعــزَّ والجــاهَ فأصبَحنــا فقــراء وإن بضَربَــةٍ غيــر قاضيَــة.

كنــت أعــرِف فــي قَــرارَة نَفســي أنَّــكِ، يــا ابنَتــي، وريثَــة الرغبَــة بتَســلُّق هِضــاب الطُمــوح، وتملَّــكَ فيــكِ عِنــادٌ تَسَــلّلَ إلــى جيناتِــكِ مــن خــالٍ إلــى خــال، وفعَــلَ فِعلــه داخِــل عقلِــك. كُنــتِ يــا ابنَتــي، مُســتقَرًّا طبيعيًّــا لهــذه الصِفــات. انتَقلَــت إليــكِ مــن جيــلٍ إلــى جيــل. لَــم تطلُــب منــك إذنَ دُخــول. فرضَــت نفسَــها عليــكِ فرضًــا مُحبَّبًــا.

طبعًــا كانَ لــكِ مــا أردتِ. دخَلــتِ الجامِعــة الأميركيــة وفتَحــتِ البــابَ واســعًا لإخوَتــكِ بَعــدَكِ.

تتوقَّــفُ ليلــى. تنظُــرُ راضيــةً إلــى لُفافتِهــا المشــتَعلة، وتســرحُ فــي عينــيَّ المغرورقتَيــن بالدمــوع. تــراءت لــي، وأنــا أســتَمِعُ إلــى شَــريطِ ليلــى، مشــاهِد البــؤس الــذي «خاوانــي» فــي تلــك المرحلــة الصَعبــة مــن حياتــي. لِوَهْلــةٍ أضَعــتُ بوصَلــةَ جأشــي. وجَدتُنــي ألمِلِــمُ هشاشَــةً خِلْتُنــي أخفَيتُهــا عَــن عينــي ليلــى سَــنواتٍ طــوالًا فــي قُمقُــم مَنســيّ حتــى ظننتُنــي تخلّصــتُ مــن مأســاتي. غَلبَتْنــي ليلــى ووَجَــدَت القُمقُــم.

مَسَحتُ ذاكِرة أحزانـي بضِحكـةٍ متلعثمـة، وأبحَـرتُ بَعيـدًا عَـن عواصِـف عواطِفـي إلـى دِفء قِصتِهـا ونظـراتِ الرضـا فـي عينيهـا الحنونتيـن أبحـثُ عَنهـا وفيهـا عَـن نفْـسٍ مُتَشـظِّيَة ألـفَ شـظيَّة. وجدْتُنـي، مـن حيـث لا أدري، أتماهـى مَـع مِحنَـةٍ عاشـها خالهـا عبدالله أوائـل القَـرن، وَصَلـت شَـظاياها إلـى طبَقـات وسـطى سـاءت أحوالهـا الماديَّـة فجـأة عِنـد بدايـة الحَـرب الأهليَّـة فـي لبنـان عـام ١٩٧٥.

كثيـفٌ ضبـابُ لُفافـة ليلـى. خبَّـأَتْ وراءَه مَـرارة السِّـنين العِجـاف ورِفعـةَ نَفْـسٍ لـم يكسِـرها ضيـق. فعـلًا: كانَ تراجـعُ الأحـوال سـببًا أساسـيًّا لقـرار أبـي إخراجنـا مـن مدرسَـة «أتينيـه بيـروت». لـم يكـن يـرى ضَـررًا كبيـرًا علـى مسـتَقبَلِنا أن نُكمِـل تحصيلنـا العلمـيّ فـي مـدارِسَ أقـلّ كلفَـة، ولَـو أدّى ذلـك إلى خَسـارَة بعـضِ المكتسـباتِ الأكاديميَّـة. لكـنَّ ليلـى، المُصِـرّة علـى التعليـم النَوعـي المُنفَتِـح، تمـرَّدَت وعَقَـدت العَـزم علـى المواجهَـة. هـي أيضًـا لا شـيء وَقَـفَ فـي وَجـهِ تَصميمِهـا، مثلمـا لـم يقِـف يومًـا شـيْءٌ أمـامَ عزيمـةِ ماريَّـا جَدَّتِهـا لأُمِّهـا. زارَت

مُديـر المدرسـة مسـيو أنطـوان شْـلَنك. أسـرَّت لَـه بمَكنوناتِهـا. انتَزَعَـت منحَـةً جزئيَّـةً مـن المدرسـة وأقنَعَـت شـقيقها فَضْـل بجَـدوى مسـاعدتها لإبقـاء الأولاد فـي مَدرَسَـتِهم فـكانَ لهـا أيْضًـا مـا أرادَت. لـم تخطـئ ليلـى الهَـدف. كانَ واضِحًـا أمامهـا. التَعليـمُ النوعـيُّ كانَ طريقَنـا للخـروج مـن المأسـاة، ثروَتُنـا التـي لا يُمكـن لأحـدٍ أن ينتَزعَهـا منّـا مهمـا صَعُبَـت الظـروفُ وجـار الزمـان. طبعًـا لا يُمكـن تتبُّـع مسـار «مـاذا لَـو» فـي جميـع مفترقـات طُـرقِ الحَيـاة. لكـنْ مـاذا لـو لـم تَنجَـح ليلـى فـي إبقـاء أولادِهـا فـي مدرسَـةٍ ليبراليَّـةٍ منفتِحـة كـأتينيه بيـروت؟ مـاذا لـو لـم يَكـن المسـيو شْـلَنك مربّيًـا اسـتثنائيًّا؟ مـاذا لـو كانَـت هـي أمًّـا عاديَّـةً مستَسـلِمَةً للقَـرارِ الذُكـوريّ وللأقـدارِ الظالِمـة؟ التجرِبَـةُ لا تُقـاس علـى هـذا النَحـو بـل بميـزانِ الوضـوحِ وجـرأةِ اقتِحـامِ المَحظـورِ وتَحَـدّي المَحتـومِ ومشاكَسـةِ القَـدَر. يكفـي أن يرافِقنـا هـذا المِقيـاس فـي مراحِـل حياتِنـا حتَّـى نتيقَّـنَ أنَّنـا فـي المـكان الأمثَـل.

تعـودُ ليلـى مـن ضبابهـا لتُكمِـلَ الروايَـة مـن حيـثُ

انقَطَـعَ حبلُهـا: «المُشاكَسَـةُ وإرادةُ اقتحـام المَحظـور كانتـا يـا ابنَتـي لوثَـةً أخـرى ورثتِهـا، اتَّصَلـت إليـكِ عَبـر الأجيـالِ مـن خالٍ إلـى أمٍّ إلـى أولاد. قَـرارُ دخول الجامِعـة الأميركيَّـة مُكلِـف. المعرَكـة نَفسُـها مُجَـددًا. معرَكـة قِسـطٍ جامِعـيٍّ تحـوَّلَ بالإصـرارِ نَفسِـهِ منحَـةً تنـاوَبَ علـى تغطيَتِهـا صنـدوق الجامِعـة الأميركيَّـة ثُـمَّ مؤسسـة الحَريـري(٥) ذات الفَضْـل فـي تَعليـم أكثـر مـن ثلاثيـن ألـف طالـبٍ مـن خيـرةِ شـباب الطبَقـات الوسـطى والفقيـرة وشـابّاتِها أواخـر فتـرة الحَـرب الأهليَّـة، وإنقاذِهـم بالتّالـي مـن أقـدارٍ كانَت لتَكـون بائسـة.

---

(٥) مؤسَّسـة رفيـق الحريـري: مؤسّسـة تربويَّـة غيـر ربحيَّـة أسَّسـها سـنة ١٩٧٩ رئيـس وزراء لبنـان رفيـق الحريـري (اغتيـل فـي بيـروت فـي ١٤ شـباط ٢٠٠٥). قدَّمـت المؤسّسـة إبّـان الحـرب اللبنانيَّـة منحًـا لنحـو ٣٦١٠٠ طالـب لبنانـي مسـتحقّ، وبنسـبة عطـاء ١٠٠٪، وسـقف بلـغ نحـو ٢٠٠ ألـف دولار للطالـب الواحـد. دَرَسَ ٣٢٠٠ طالـب فـي الولايـات المتَّحـدة وكنـدا، ونحـو ٨٥٠٠ منهـم فـي الـدول الأوروبيَّـة (فرنسـا، إيطاليـا، ألمانيـا، إسـبانيا) وشـمال أفريقيـا (المغـرب، تونـس، الجزائـر) وتـوزَّع الباقـون علـى جامعـات لبنـان. تديـر المؤسَّسـةُ مـدارسَ ليسـيه عبـد القـادر والحريـري الثانيـة والثالثـة وجامعـة رفيـق الحريـري فـي المشـرف. راهـن الرئيـس الحريـري بعـد الحَـرب الأهليَّـة علـى تعليـم اللُبنانييـن والاسـتثمار فـي النُخـب المثقَّفـة المؤهَّلـة أن تنقـل لبنـان إلـى حالـة السِـلم والنمـو والرفاهيـة. كانَ يقـول: «إذا بـدّك تطـوّر شـعب، لازم تعلّمـه».

تَصميمُـك اليائـس، يـا ابنَتـي، ورغبتُـك الجامِحَـة فـي هَزيمَـة الرُكـود المَعنَـويّ، حَـوَّلا المنحَـة إلـى فُرصـة لا إلـى منَّـة. وبفَضـل عزيمَتـك بَقيَـتْ أُسـرتُنا فـي حِضـنِ الجامِعـة الأميركيَّـة، وبَقيَـت الجامِعـة جـزءًا عزيـزًا مـن تاريخنـا، مـن ذاكرَتنـا الجينيَّـة أكادُ أقـول، وعامِـلًا حاسِـمًا فـي خياراتِكُـم المِهنيَّـة، إخوتـك وأنـتِ، فـي وقـتٍ لاحِـق.

مُجـدَّدًا تُفَاجِئْنـي الـ«مـاذا لَـو»، فيَطـرُق قلبـيَ بقوَّة، وتتصـارعُ الصـوَرُ فـي بالـي وأنـا أتابِـعُ الإنصـاتَ إلـى ليلى .

فـي روايَتِهـا سـنوات عبدالله فـي المدرسـة الاسـتعداديَّة تختـزنُ ليلـى الكثيـف مـن «الـمُعاش» التاريخـي. كانَ لبنـان يعيـشُ أصعـبَ أيـامِ الحَـرب العالميَّـة الأولـى علـى مـا ذَكَـرَت. المجاعـةُ ضرَبتْـه فـي الصَّميـم فمـاتَ كثيـرونَ جوعًـا علـى قارِعـةِ الطرقـات. سـاحلُ المَتـن الجنوبـيّ كانَ أقـلَّ تأثُّـرًا مـن مناطِـق أخـرى، ربَّمـا لأنَّ أهلَـه كانـوا مُكتفيـن ذاتيًّـا مـن الزراعـة فـي أراضيهـم، وربمـا لأنَّ هـذا السـاحِل كانَ مَمـرًّا لتهريـبِ القمـحِ والأرزّ والسـكّر والـكاز. كانَ مَمـرًّا لتهريـبِ أبطـالٍ سـاهموا سِـرًّا فـي

تَنظيـم التَعبئـة العَسـكريَّة بَيـن الضبّاط والعسـكريين العَـرب فـي الجيـش العُثمانـي، فقاوَمـوه ووَقفـوا سـدًّا منيعًـا فـي مواجهَـةِ ظُلمِـه وجبَروتِـه.

تستعيدُ ليلى زِمام قصَّتها وتتابِع:

أصـرَّت جَدَّتـي ماريَّـا أن يُكْمِـلَ ابنُهـا عبدالله دراسـتَه فـي الكليَّـة الانجيليَّـة، وحَرَصَـتْ علـى أن تصِلـه حوائجُـه المُنشّـاة وأطايـبُ البَيـت وعُطـور الحُـبّ والحَنـان وهـو متتلمـذٌ علـى أيـدي الإفرنـج. تُحضّـر لـه السلَّة أو المطبقيّة وترسِـلُها كلَّمـا كانَ ذلـك مُتاحًـا. غالبًـا مـا كانَـت شـقيقته بَلقيـس ترافِـقُ المِرسـالَ في رحلَتِـه مشـيًا حتَّـى محلَّـة البَربيـر[٦]، ثَـمَّ بالترامـواي حتَّـى محطَّـة غراهـام[٧]، قُبالـة الجامِعـة الأميركيَّـة فـي رأس بيـروت، مُثبِّتـةً مـن غَيـر أن تـدري صِلَـة الوَصـلِ الأبديَّـةِ بالرَحِـم، هـي التـي أصبَحـت حقيقَـةً حَبلَهـا السـرّي. كثيـرًا مـا حدَّثَتْنـي بَلقيـس عَـن تلـك

---

(٦) حـيّ البَربيـر أو محلّـة البَربيـر: اسـم عائلَـة بيروتيَّـة تعـود جذورُهـا إلـى شِـبه الجَزيـرَة العربيَّـة وسـميَ باسـمها أحـد أحيـاء بيـروت.

(٧) محطَّـة غراهـام: مـكان كانَ يتوقّـفُ فيـه الترامـواي المتَّجِـه مـن بيـروت إلـى رأس بيـروت قبالَـة الجامِعـة الأميركيَّـة. وللاسـم قصَّـة طريفـة: كان أسـتاذ الطـبّ فـي الجامِعـة الدكتـور غراهـام يعطـي موظَّـفَ الترامـواي عنـدَ وقوفِـه (لإدخـال الـركّاب أو إخراجهـم) مجيديَّـة واحـدة (عملَـة تركيَّـة

الرحـلات ومُشـاهَداتِها طوابيـرَ الجائعين والمتَسـوِّلين المُلقـاة أجسـادهم علـى طرقـاتٍ مَنسـيَّة. كانَـت عيناهـا الخضـراوان تغروْرِقـان بالرمـادي بفِعـلِ جـراحٍ آلَمَـت قلبَهـا الطـريّ باكِـرًا وتركـت فيـه نُدوبًـا أبَديَّـة.

فـي حَـرَمِ الكُلّيَّـةِ الانجيليَّـة حـاول الجِهـازُ الإداري الحِفـاظ علـى مَظهـرٍ طبيعـيّ لتلامِـذةٍ احتـوى مشـاعرَهم التَوتُّـر والحُـزن بمصـابِ أهـلِ بلادِهـم. كانَ مَبنـى الوسْـت هـول[٨] بـإدارة المسـتِر بايـارد دودج، الوَحيـدَ المنـوَّر كهربائيًّـا، ومُلتقـى النشـاطات الرياضيَّـة والفكريَّـة. فـي رحـاب هـذا المَبنـى توطّـدت صَداقـةُ عبدالله بشـخصَينِ سـيكون لهمـا أثَـرٌ عظيـم فـي حياتِـه: المسـتِر دودج (أصبـح لاحقًـا رئيـس الجامِعـة)، والأسـتاذُ الشـاب محمَّـد الزيـن[٩] ابـنُ عالِـم الديـن

فـي ذلـك الزَّمـان) لقـاء تسـمية محطَّـة الوقـوف هـذه علـى اسـمِه وكانـت عيادتـه قريبـة مـن خـط الترامـواي.

(٨) الوسـت هـول: مبنًـى فـي حـرم الجامِعـة الأميركيَّـة، علـى اسـم روبـرت هَالِـدِن وسـت، جـاء مـن جامِعـة برنسـتون الأميركيَّـة إلـى بيـروت وتبـوّأ فيهـا مراكـز عـدة طيلـة ٢٣ سـنة.

(٩) الاسـتاذ محَّمـد الزيـن: ابـن عالـم ديـن مـن جبـل عامِـل كانَ عضـو مجلِـس الإدارة فـي جبـل لبنـان أيـامَ الحُكـم العثمانـي.

درَّسَ محمّـد فـي المدرسـة الاسـتعداديَّة (١٩١١ ـ ١٩١٤) وفـي الجامِعـة

الشـيعيّ مـن بَلـدة كَيفـون، ذو أفـكار تقدّميّـة، صاحِـبُ دعـوات صَريحـة للعَلمانيَّـة، ومؤسِـس جمعيَّـة سياسـيَّة سَـعَت إلـى إلغـاءِ الطائفيَّـةِ مـن النِظـام السياسـي اللبنانـي والاسـتِقلال عَـن السَـلطنة العُثمانيَّـة، ضمَّـت مُثَقَّفيـن تقدّميّيـن مـن منطقـة سـاحِل المَتـن الجنوبـي وبيـروت وطرابلـس. وسـيكون للـمستِر زيـن لاحقًـا تأثيـرٌ فـي تكويـن الوَعـي الفِكـري ـ النَقـدي ـ السياسـي لعبداللـه، والفَضْـل فـي تعرُّفِـه علـى مفاهيـم العَلمانيَّـة والوطنيَّـة والقوميَّـة. فـي حلقاتِـه التقـى ابـن ضَيعتـه عَبـد الكريـم قاسِـم الخليـل(١٠)

الأميركيـة (١٩١٩ ـ ١٩٢١). أسَّـس جمعيَّـة سياسـيَّة سـعت إلـى إلغـاء الطائفيَّـة مـن النظـام السياسـي توصُّـلًا الـى تطبيـق العَلمانيَّـة الشـاملة، ودَعَـت إلـى القوميَّـة العربيَّـة والاسـتقلال عـن السّـلطنة العُثمانيَّـة. ضمَّـت الجمعيَّـة عـددًا مـن طلّابـه فـي الجامِعـة ومُثَقَّفيـن تقدميين مـن منطقـة سـاحل المَتـن الجنوبـيّ، بينهـم عبداللـه الحـاج مـن الغبيـري، حسـن محمـد عبـاس حاطـوم مـن بـرج البراجنـة، جميـل نجـا مـن بيـروت، عبداللـه منقـارة مـن طرابلـس، عبـد الكريـم قاسـم الخليـل مـن الشـياح.

(١٠) عَبـد الكَريـم قاسـم الخليـل: ولـد سـنة ١٨٨٤فـي بـرج البراجنـة. هـو القائـد الأوَّل والزعيـم السِّـرّيّ لحركـة عربيَّـة قاومـت الاحتـلال العثمانـي صيـف ١٩١٥. أسَّـس أوَّل جمعيَّـة عربيَّـة سـرّيّة فـي اسـطنبول سـنة ١٩٠٥ باسـم «الشـبيبة العربيَّـة» لانفصـال البـلاد العربيَّـة عـن الإمبراطوريَّـة العثمانيَّـة باسـتخدام العمـل المسـلَّح وتأسـيس الدولـة العربيَّـة المسـتقلّة. شـمل نشـاطه كامـل بـلاد الشـام والعـراق ونَجـد والحِجـاز واليَمَـن، واتصـل

الزَّعيـمَ السِّــرِّيَّ لحَركــة عربيَّــة قامَــت ضــدَّ الاحتــلال العُثمانــي صَيــف ١٩١٥، وأحَــد الشُــهداء الذيــن أعدَمَهــم الوالــي العُثمانــي الســفاح جمــال باشــا[١١]، نهــار ٢١ تمــوز ١٩١٥ فــي ســاحَة البُــرجِ التــي سُــمّيَت بَعدَهــا ســاحة الشُــهداء[١٢] وأصبَحـت

بأعيانهـا وقادتهـا، وبخاصَّـة إمـام اليَمَـن حينهـا يحيـى حميـد الديـن. كان لــه دور ســرّي رئيــس فــي تنظيــم تعبئــة عســكريَّة بيــن الضبــاط والعســكريين العــرب فــي الجيــش العثمانــي وحضّهــم علــى المشــاركة فـي برنامجـه للاسـتقلال عـن الدولـة العثمانيَّـة، وكان لـه دور علنـيّ خـلال المفاوضـات مـع الدولـة العثمانيَّـة باسـم العـرب، للحصول علـى حقوقهـم المدنيَّـة خـلال المؤتمـر العربـي الأوَّل (باريـس ١٩١٣)، ومنـع أنصـار فرنسـا فـي المؤتمـر مـن فـرض أجندتهـم علـى مقرَّراتـه.

المصـدر: يوسـف خـازم، **عبدالكريـم الخليـل: مِشـعل العـرب الأول ١٨٨٤ ـ ١٩١٥**، دار الفارابـي، بيـروت ٢٠١٧.

(١١) أحمـد جمـال باشـا (١٨٧٣ ـ ١٩٢٢): والـي بغـداد العثمانـي. نـكّلَ بالعــرب بعــد هزيمتــه فــي قنــاة الســويس (٣ شــباط ١٩١٥) وســقوط ١٥٠٠ جنــدي عثمانــي بنيــران مدفعيَّــة البــوارج البريطانيَّــة والفرنســيَّة. حمَّـل القيـاداتِ العربيَّـة العسـكريَّة والمدنيَّـة مسـؤوليَّة إخفاقـه فاسـتبدل كتائــبَ غالبيَّــةُ جنودهــا عــرب بكتائــبَ غالبيَّــةُ جنودهــا أتــراك. فَصَــل الضبّــاط العــرب البارزيــن مــن وظائفهــم وأرسَــلهم إلــى مناطــق بعيــدة وأخـذ يعتقـل زعمـاء وطنييـن ومفكّريـن عربًـا وينـكّل بهـم حتـى المـوت. إعـدام ١٣ لبنانيًـا وسـوريًا فـي سـاحة الشـهداء، أتبعهـم يـوم ٦ أيّـار ١٩١٦ بأحـد وعشـرين وطنيًـا. لُقِّـب بجمـال باشـا السـفّاح.

(١٢) سـاحة الشـهداء: غيَّـر الفرنسـيّون اسمهـا إلـى «سـاحة المدافـع» La Place des Canons تيمُّنًـا بإنـزال العسـكر الفرنسـي فـي بيـروت (١٨٨٦) وتمركـز المدفعيَّـة الفرنسـيَّة فيهـا. لـم يـلاقِ الاسـم الجديـد رواجًـا مـن

مـذّاك مُلتقًـى طبيعيًّـا لـكلّ طامِـحٍ إلـى غـدٍ حـرّ.

تسـتطرِدُ ليلـى فتُخبِرُني عَـن الشَـهيد الخليـل، ابـن الشـيّاح الـذي جـابَ بِـلاد الشّـام ونَجـد والحِجـاز واليَمـن مُقاومًـا التَتريـك مُسـتَنهضًا العروبَـة. تخبِرُنـي بحماسـة الثـوّار عَـن دوره فـي وَضْـعِ بَرنامـجٍ لتوحيـد التعليـم فـي البـلادِ العربيَّـةِ لاسـتِنهاض أبنـاء الأمَّـة الذيـن كانـوا ضحيَّـة محـاولاتِ التتريـكِ وإلغـاءِ عروبَتهـم. تخبرنـي أيْضًـا عَـن دَوره السّـرّيّ فـي تَنظيـم التَعبئـة العَسـكريَّة بَيـن الضُبـاط والعَسـكريين العَـرب فـي الجَيـش العُثمانـي، وكَيـف حضَّهـم علـى المشـاركةِ فـي بَرنامجـه للاسـتقلال عَـن الدَوْلَـة العُثمانيَّـة. لـم أكـن أعـرِف أنَّ لابـن ضَيعتـي الفَضْـلَ فـي رَفـد الثَـورة العربيَّـة الكبـرى (بقيـادة شَـريف مَكَّـة حُسـين بـن علـيّ وابنـه الأمير فَيصَـل) بالأنصـار، مـا أدَّى إلـى طَـرد العُثمانييـن مـن البـلاد العربيَّـة سَـنة ١٩١٨. طبعًـا لـم يكـن الانتصـار مُمكنًـا لـولا مسـاعدة البريطانييـن، مـع أنَّ سـعيَهم أَصـلًا

الشـعب ومـن سـلطات اعتمـدت بعـد الاسـتقلال تسـمية سـاحة البُـرج. ولأن ذاكـرة بيـروت الشـفهيّة حيَّـة لا تـزال التسـميتان (البـرج والشـهداء) مسـتخدمتين.

كانَ لثَـورةٍ عربيَّـةٍ خالصـة دون تعـاون مَـع أيَّـة جِهـة أجنبيَّـة. ذُهلـتُ حيـن عرفـتُ دور الشَّـهيد الخليـل فـي المُفاوضـات مَـع الدَوْلَـة العُثمانيَّـة باسـم العَـرب لنيـل حقوقِهـم المدنيَّـة خـلال المؤتمـر العربـي الأوَّل[١٣] (باريـس ١٩١٣). وعَجِبْـتُ لنشـاطِه السياسـي القومـي العَربـي الـذي أقلَـقَ الحرَكـة الصهيونيَّـة العالميَّـة، فزرَعَـت جَواسـيسَ فـي مقـرّه المُسـمى المنتـدى الأدبـي فـي اسـطَنبول وأوقعَـت بِـه وسـهَّلت لجمـال باشـا أن يعتقلـه ويسُـوْقَه إلـى ديـوان الحَـرب العُرفـي فـي عاليـه مَـع رفاقِـه وصـولًا إلـى محاكمَتِهـم ثُـمَّ إعدامِهـم.

لـم نقـرأ عَـن كلّ ذلـك فـي كتُـب التاريـخ المَبتـورة التــي نشــأْنا عليهــا. حُرمْنــا مــن الشــعور بالفَخْــرِ

(١٣) المؤتمـر العربـي الأوَّل: نظَّمـه مفكّـرون وسياسـيّون وقوميّـون عـرب فـي قاعـة الجمعيَّـة الجغرافيَّـة (باريـس ٢٣ حزيـران ١٩١٣). حضـره ٢٣ مندوبًـا عـن لبنـان وسـوريا والعـراق وفلسـطين ومراقبـون مـن مِصـر وغيرهـا مـن الأقاليـم العَربيّـة. ناقـش المؤتمـر أربَـع قضايـا: ١ـ الاحتـلال الأجنبـي والنضـال الوطنـي، ٢ـ حقـوق العـرب فـي الدولـة العثمانيـة، ٣ـ ضـرورة الإصـلاح والحكـم الذاتـي ٤ـ المهاجَـرة مـن وإلـى سـوريا. أصـدر المؤتَمـر قـرارات طالبـت الدولـة العثمانيَّـة بالإصـلاح وبالحُكـم الذاتـي وباعتبـار اللغـة العربيَّـة لغـة رسـميَّة.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لانتِمائنـا الفِعلـيّ إلـى الحُلْـم العربـيّ. حُرِمْنـا مـن تفاصيـل تمـلأ فَـراغَ مُخيَّلتِنـا بالحيـاة. مُنعنـا مـن التماهـي مَـع أبطالِنـا ولـم نعـرف عَنهـم سـوى أنَّهـم شُـهداء. كـم بَخْـسٌ إنسـانُنا!

تخبِرُنـي ليلـى عـن «شَـهيد العَـرب الأوَّل، شَـهيد العَـرب المُكَـرَّم، ومِشـعَلِ العَـرب الأوَّل» كمـا أسـماه المـؤرخ عَجـاج نوَيهـض. تخبِرُنـي بـكلّ ذلـك وفـي عينَيهـا يقيـنٌ أنَّ الإعـدامَ لا يتـمّ رَميًـا بالرصـاص أو شـنقًا فحَسـب، بـل باللامبـالاة، بالنِسـيان المُتَعَمَّـد، وبقَطْـع صِلَـةِ الإنسـان بمسـقِطِ رأسِـه. وهـذا النـوع مـن الإعـدام أقسـى وأشـنَع، لأنَّـه يُميـتُ المَعـدوم كلَّ يـوم. شُـهداء الحريَّـة والاسـتقلال أُعدِمـوا مـرَّةً واحِـدَة، أمـا ليلـى، إذ أُبعِـدَت عَـن ذاكِـرَةِ حواسِّـها، فتمـوتُ كلَّ يَـومٍ ألـفَ ميتَـة.

مجَّـةٌ طويلـة مـن لُفافَتهـا وواصلـت القِصَّـة مـن حَيـث ترَكَتهـا تَتدَحـرج: «توَطَّـدت العلاقـة بَيـن خالـي عبدالله والمسـتِر زيـن أوائـلَ العِشـرينيّات وكانَ لهـا أثَـر كبيـر فـي نشـاطِه لنشـرِ فكـرة إلغـاء الطائفيَّـة والدَعـوة إلـى العَلمانيَّـة الشـامِلة، مـا أثـارَ حَفيظـة رجـال الديـن. بَحَثـتُ كثيـرًا عـن أثـرٍ

للـمسترِ زيـن فـي المراجِـع التاريخيَّـة والكُتـب. إنـه، كمـا خالـي عبداللـه والشـهيد عَبـد الكريـم الخليـل، نَمـاذِج نـادِرة ومؤسِسـة فـي تاريخِنـا الحديـث. إنمـا مَـرَض «الأمنيزيـا» فـي بِلادِنـا مُزمـن فتّـاك.

نـالَ عبداللــه البكالوريــوس فــي العلــوم صَيــفَ ١٩٢٢. غـادَر إلـى عِـراق المَلِـكِ فيصَـل وزاول تعليـم التاريـخ سـنتَين وبَعـض السّـنة فـي ثانويَّـة الموصِـل. كانَ مَسـكونًا بـروحِ جامِعتـه فحافـظ علـى تواصُلِـه مَعهـا عبـر مَجلَّـة **الكليَّـة**، كانَـت لـه فيهـا مسـاهمات كثيـرة مَحفوظـة فـي أرشـيفها، وكان لـه نشـاط مـع فـرع متخرجـي الجامِعـة فـي العِـراق.

أحـبّ خالـي بِـلادَ مـا بَيـن النَّهريـن، وقـرَّر العَـودة إليهـا بَعـد تحقيـقِ حُلْمـه باسـتكمال دراسـاتِه العُليـا فـي الولايـات المتَّحـدة الأميركيَّـة. أبحـر إليهـا مُتَسـلِّحًا بحماسَـتِه ومثاليَّتـه وتَهـوّرٍ غيـر قليـل. لكـنّ أحلامَـه العظيمـة تَكَسَّـرَت علـى رَصيـف مينـاء شـيربورغ(١٤) فـي النورمانـدي الفرنسـيَّة لأنَّ أوراقَـه

---

(١٤) ميناء عسكريّ وتجاريّ وسياحيّ على ضفاف بحر المانش (منطقة النورماندي، فرنسا).

الرسـميَّة اللازمـة لدُخـولِ أرضِ الحُلـم الكَبيـر لَـم تكـن مُكتمِلـة.

الارتطـام برَصيـفِ الواقِـعِ كانَ مُدَوّيًـا. رجُـلٌ بأحـلامٍ عظيمَـة آتٍ مـن عِـراق الملـوك علـى أجنِحَـة الثِقَـة والطُمـوح يَنكَسِـر علـى رَصيـفِ ميـناءٍ غَفـل. كيـف يُلَمْلِـمُ خَيبَتَـه؟ كيـف يتَمسَّـكُ بأحلامِـه والمـالُ ينقُـصُ وجَمـرُ الطُمـوحِ يُحـرِق؟

رغـم الخَيبـة، شـمَّر عبداللـه ابـنُ ماريَّـا عَـن زُنـودِه وراح يبحَـثُ عَـن عَمـلٍ يَقيـهِ العَـوَز. تـوكَّل علـى نَفسِـه وعَمِـل نـادلًا فـي أحَـد مطاعِـم الميـناء عاقِـدًا العَـزم علـى إيجـادِ حـلّ. حـلٌّ أتـى بـه قَـدَرٌ بَعـد أشـهُرَ قليلـة علـى مَتْـنِ صَـوت المسـتِر دودج مُدوِّيًـا غاضِبًـا سـائلًا بإلحـاح: «مـاذا تفعَـل هُنـا يـا مسـتِر عبداللـه»؟ هـالَ الرَجُـل أن يَـرى خِرّيجًـا لامِعًـا مـن جامِعتـه يعمَـل نـادِلًا فـي مطعـمٍ كئيـبٍ فـي ميـناءِ رَحيـل.

لـم يتـرُك المسـتِر دودج ميـناء شـيربوغ إلا وعبداللـه برفقَتِـه علـى مَتـنِ سـفينة الـماجِستِك، أكبَـر سُـفن العالـم فـي ذلـك الزمـان. أبـى الرئيـس

أن يَتـرُك طالبـه مُنكَسِـرًا مهزومًـا فـي ميناءِ فَنـاء فحَمَلَـهُ مَعَـهُ إلـى أرضِ الوَعـد وحَقَّـق حُلْـمَ خِرّيجِـه النَجيـب وسـهَّل لـه دخـولَ كليَّـة المُعلّميـن فـي جامِعـة كولومبيـا العَريقـة بموجـبِ منحـة دراسـيَّة مُعتَبَـرة.

فـي جامِعـة كولومبيـا تتلمَـذ عبداللـه علـى أحَـد أبرز أعـلام التربيَـة الحديثـة الأميركييـن فـي النِصـف الأوَّل مـن القـرن العشـرين: الفَيلسـوف الطَّليعـيّ للحَركـة التقدميَّـة الأميركيَّـة وعالِـم النَفـس جـون ديـوي[١٥]، أحـد زعمـاء الفَلسـفة البراغماتيَّـة التـي ترْبِـطُ النظريّـات بالواقـع دون الخضـوع لِنظـامِ الواقـع والتقاليـدِ المَوروثـة مهمـا كانَـت عَريقـة. بإشـرافِه كتَـبَ عبداللـه أطروحَتَـه: **إقتراحـاتٌ فـي كتابـة المناهِـج** فنـال شـهادة الماجِسـتير، وكان لديـوي الأثَـر الحاسِـم فـي تكويـن سـلوكِ الخـال الفِكـري

---

(١٥) جـون ديـوي (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢) عالـم أميركـيّ متخصّـص فـي علـم النفـس والتربيـة. مـن روّاد الفلسـفة البراغماتيّـة ومـن أوائـل مؤسسـيها. ارتبَـط اسـمه بفلسـفة التربيـة إذ حـدَّد الغـرض مـن التعليـم وربـطَ النظريـات بالواقـع دون الخضـوع للنظـام المفـروض والتقاليـد الموروثـة ولـو كانـت عريقـة.

وآرائـه الاجتماعيَّــة وفــي رَسْـمِ توجّهاتِـه السياسـيَّة الاشــتراكيَّة.

الخـال الاشـتراكي تأَدلَـجَ فـي أميـركا! تَضحَـك ليلـى مـن علامـات الدَهشَـة علـى مُحَيَّـايَ مُلوّنَـةً بألـوان أقـواسِ قُـزَح: «نعـم يـا ابنَتـي، هـذه ليسـت قِصَّـةً مـن قِصَصـي الخُرافيَّـة، ولا سـيناريو فيلـم حاكتْـه مُخيّلتـي. إنهـا واقِعـة حَدَثـت فعـلًا سـنة ١٩٢٥».

مُجـدّدًا ترفَعُنـي الـ«مـاذا لَـو» إلـى سـماءٍ افتراضيَّـة. يطـرُق قلبــي بقــوّة، تتَقاذَفُنــي أمــواجُ الأطلَســي الرماديَّــة البــاردة وتلفُظُنــي علــى صُخــور مينــاء شـيربورغ. إنهـا الـ«مـاذا لـو» عنـد كل مفـرقٍ مـن طُـرقِ الحَيـاة: مـاذا لَـو بقـيَ عبدالله نـادِلًا فـي ذَلِـك المَقهـى الـرَث المَنسـيّ علـى شـاطئ النورمانـدي؟ مــاذا لَــو تأخَّــرَت رحلَــة المســتِر دودج دقائــق أو أبكَـرَت هُنيهَـة؟ مـاذا لَـو دَخَـلَ حانَـةً أخـرى وكانَ عبدالله فـي المطبَـخ يحضّـر سَـلَطة فَرنسـيَّة لضَيـفٍ جائــع؟ هــل كانَ عبداللــه ليُكمِــل مشــوارَه فــي الحيـاة علـى نَحـو مـا أكمَلَـه؟ هـل كانَ سـيُقَيَّض لـه الوصــول إلــى الحُلــم الأميركــي العظيــم والدُخــول إلـى الجامِعـة العَريقـة؟ هَـل كانَ بقـيَ في شـيربورغ

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

بقيَّـة حياتِـه وانتَهـى بِـه الأمـر رئيـسَ نُـدُل أو مديـر مشـتريات فـي حانَـة مَغمـورَة لا يعرفُهـا أحَـد؟ هـل كانَ أكمَـلَ طَريقَـه إلـى أميـركا أَم عـاد خائبًـا مَهزومًـا إلـى بِـلاد ماريًّـا؟

ما سِرُّ تَغيُّر الأقدار؟

بـأيِّ قُـدْرَة يتحـوَّل لقـاء أو صُدفَـة أو كلِمَـة أو موعِـد أو حـادِث عرضـيّ أو حَرَكَـة أو إيمـاءَة، بأيَّـة قُـدْرَة يتَحـوَّل كُلُّ هـذا إلـى حَيـاة مكتَمِلَـة؟

نعيـشُ آلافَ الحَيـواتِ علـى إيقـاعِ آلافِ المصادفـات، فهَـل هـي مصادفـاتٌ مدبّـرَة؟ أم وقائـعُ فـي متاهَـةِ الأعمـار؟

مئـاتُ آلافِ الكتُـب كُتِبَـت حَـولَ هـذه الأسـئِلَة دونَ أن يسـتَقِرَّ أيٌّ منهـا علـى ميـناءٍ أو رصيـف. جُـلُّ مـا يُمكـن اسـتنتاجُه هـو السَّـيرُ مَـع الأقـدار.

عبدالله نـادِلُ لَحظَـةِ الانكِسـار صـارَ نائبًـا وزعيمًا لأنَّ القَـدَرَ شـاءَ ونـاداه بصَـوتِ المسـتِر دودج. شـيءٌ مـن روح البروتسـتانتيَّة يلفَحُنـي وأنـا أتأمَّـلُ هـذه القِصَّـة الحقيقيَّـة ترويهـا ليلـى بشَـغَف. روحٌ لـم ألتَقِطْهـا،

ربَّمـا لقُصـورٍ بـي. التجرِبَـةُ اليسـوعيَّة، كمـا تربَّيـتُ عليهـا، نظريَّـةٌ جَبريَّـةٌ ومُنقـادَةٌ بفَـرَحٍ ورَجـاء نحـوَ الأسـمى. البروتسـتانتيَّة مُغامِـرَة، مؤنِسـنة ومؤنسَـنَة. الأولـى منفصِمَـة عَـن توحُّـلِ اليَديـن، الأخـرى تَغْمِسُ جوارِحهـا فـي الوَحـل وتُبقـي رأْسَـها مشـدودًا صَـوب السـماء.

الوافـدُ بعباءتين

صيـفَ ١٩٢٦ عـاد عبداللـه إلـى شَـرقِه الجديـد وأضـواءُ تَجْرِبتِـه الغنيَّـة فـي مدينـةِ الصَخَـب والجـاز تُنيـر لـه الطريـق، عـاد ليُطْلـق أُولـى ثوراتـه مـن دار المُعلميـن العاليـة فـي بغـداد: ثـورة علـى المناهِـج التعليميَّـة كمـا أرسـاها ابـنُ مدينـةِ حَلـب المُنَظِّـر القَومـي العرَبـي الشَـهير سـاطِع الحُصـري[1] مؤسّـس وزارة المَعـارف السـوريَّة (١٩١٩) وواضِـع المَناهِـج التربويَّـة فـي سـوريا والعِـراق.

فـي بغـداد سـاجلَ عبداللـه بضَـرورة شَـحْذِ الحِـسّ النَقـدي للمُتَعَلِّـم واحتـرام مبـادئ التَقصّـي العِلمـي والمُسـاءلة والتَشـديد علـى التربيـة العِلميَّـة ونَشـر

---

(١) سـاطع بـن محمّـد هـلال الحُصـري (١٨٧٩ ـ ١٩٦٨): مُفّكـرٌ سـوري مـن حَلَـب وأحَـد رمـوز القوميَّـة العربيَّـة فـي العَصـر الحديث. أسَّـس وزارة المعـارف السـوريَّة (١٩١٩) وسـنَّ المناهـج التربويَّـة فـي سـوريا والعـراق. شـارك فـي تأسـيس كليَّـة الحقـوق فـي جامعـة بغـداد. كان مستشـارًا لـدى جامعـة الـدول العربيَّـة.

القيَـم الديمقراطيَّـة فيمـا كانَ سـاطِع الحُصـري يُنَظِّـر بالـولاء والتشـدُّد والانضِبـاط وتقويـة الشـعور القومــي.

خـلال إقامـة عبداللـه فـي العِـراق تعـرَّف إلـى رُسـتم حَيـدر[٢] كمـا حـاز علـى ثقـة المَلِـك فَيصـل الأوَّل فعيَّنـه رئيسًـا لديوانِـه المَلَكـي. عَمِـلَ عبداللـه مُعاونًـا لرسـتم بيـك (١٩٢٧)، فاكتسـب دُرْبـةً فـي عالَـم السياسـة والحُكـم. كانـت تَجرِبـةً تأسيسـيّة إذ إنّ المـدرّس الشـاب، مـن حيـثُ لـم يكُـن يَنتظِـر، انغَمَـسَ فـي شـؤون السياسـة العِراقيَّـة وتَعقيداتهـا. إثْـر تعييـن رُسـتم حَيـدر وزيـرًا للماليَّـة فـي حكومَـة نـوري السَّـعيد (١٩٣٠)، عُيّـن خالـي عبداللـه رئيسًـا للديـوان المَلَكـي بالوَكالـة ومُستشـارًا للملـك فَيصَـل الأوَّل (١٩٣٤).

توالــت أحــداثُ العِــراق: اِنقلابــات واغتيــالات وتوتّــرات أمنيَّــة، فعــاد إلــى لبنــان ســنة ١٩٣٧.

---

(٢) محمـد رسـتم حيـدر (١٨٨٩ ـ ١٩٤٠): عراقـيّ مـن أصـل لبنانـي (بعلبـك)، شَـغل مناِصـب وزاريَّـة فـي العَهـد الملكـي. يـوم ٢٢ كانـون الثانـي ١٩٤٠ اغتالـه المفـوّض المفصـول مـن الخدمـة حسـين فـوزي توفيـق مطلقًـا عليـه أعيـرةً ناريّـة فـي مكتَبـه فـي وزارة الماليَّـة.

هالَـه كَـم تغيَّـرتْ ضَيعتُـه الهانئـة: انحَسَـرَت زراعـة الحَريـر، هاجَـر عـددٌ كبيـرٌ مـن السُّـكَّان، المَسـيحيّين خصوصًـا، إلـى بلـدان أميـركا اللاتينيَّـة؛ حَلَبَـةُ سِـباقِ الخَيْـل (أُنشِـئت سـنة ١٩٢٧ فـي غابَـة الصَّنوبـر شِـمال الشـيّاح) اسـتَقطَبَتْ وافِديـن جُـددًا مـن مناطِـق بقاعيَّـة للعَمَـل فيهـا، اِزداد العُمـران العشـوائي، فـإذا بهـا منطقـة مهملـة، مهمّشـة، تَنـدُر فيهـا القيـادات، غيـر ممثّلـة سياسـيًّا بسـبب اعتمـاد الدائـرة الانتخابيَّـة الموسَّـعة فـي مُحافظـة جَبـل لبنـان، تَمْثيلُهـا بيـن ١٩٢٧ وعشـيَّة انتخابـات نيسـان ١٩٥١، اختُـزِلَ بنائـبٍ واحِـدٍ مـن بِـلاد جُبيـل: أحمـد الحسـيني، تعيّنـه سـلطة الانتـداب الفرنسـي.

هكـذا كانَ سـاحِل المَتـن الجنوبـي عنـد عَـودَة عبداللـه إلـى مَسْـقِط رأسِـه.

وأثـارَ الوافـدُ بعباءتَيـه المَلكيَّـة والعِلميَّـة اهتمـام شُـبّان منطَقتِـه فتوافَـدوا للتعَـرُّف علـى ابـن الضَّيعـة الـذي سـاكَنَ الملـوك. أُعجِبـوا بحَديِثـه الدَمِـث وأسـلوبه المباشـر ومَنطِقـه العِلمـي، فتحلَّقـوا حَـول الأسـتاذ ـ الزعيـم المتواضَـع البَسـيط. جَذبَتهُـم أفـكاره الداعيـة إلـى التَّحـرُّر

مـن الاسـتِعمار الفرنسـي، ورَفـض التقاليـد الموروَثـة، وحماسـتِه للعَلمانيَّـة الديمُقراطيَّـة والعدالـة الاجتماعيَّـة، ودِفاعِـه عـن حقـوق المـرأة. أكثـر مـا ميَّـزه وزادَ مـن تحلُّـق الشـباب حولـه: «إطلاقُـه نقاشًـا لا محرَّمـات فيـه، حـول الدِفـاع عَـن حقـوق المـرأة وإعـادة النَظَـر فـي تقاليـد اجتماعيَّـة ودينيَّـة موروثـة انطلاقًـا مـن دَعوَتـه إلـى سَـيْر المُجتمـع فـي طريـق التَطَـوُّر المَدنـي الحديـث...».

تَضحَـكُ ليلـى إذ تَتَـذكَّر: «لا أذكُـر مَـن شـجَّعه على خَـوض السياسـة. البدايـات كانـت غَيـر مُشَـجِّعة: خـاضَ ثلاثـة انتخابـات عَـن المَقعَـد الشـيعي ولـم يوفَّـق: الأولـى (١٩٣٧) فـي الكُتلـة الشـعبيَّة مـع جـورج عَقـل وسَـليم صَعـب ومحمَّـد جَميـل بَيهـم، الثانيـة (١٩٤٣) فـي الكُتلـة الدسـتوريَّة مـع الرئيـس بشـاره الخـوري[٣]، وخَسِـر وحـده بَعـد انقـلاب اللائحـة عليـه وفـوز أحمَـد الحُسـيني

(٣) الشـيخ بشـارة خليـل الخـوري (١٨٩٠ ـ ١٩٦٤): أول رئيـس لبنانـيّ بعـد الاسـتقلال (١٩٤٣) وأحَـد مؤسسـي نِظـام الحُكـم فـي لبنـان.

ثانيــةً، والثالثــة (١٩٤٧) خاضَهــا مُنفــردًا بَعــد أن أصبَــح مُعارضًــا الرئيــسَ بشــارة الخــوري، وخَسِــر بالتزويــر كمــا قيــلَ حينهــا. لكنــه ثابَــرَ وفــازَ فــي انتخابــاتِ ١٩٥١ فدخَــل للمــرَّة الأولــى النــدوَة البرلمانيَّــة نائبًــا عَــن المَقْعَــد الشــيعيّ فــي قَضــاء بعَبــدا، والركــن الشــيعيّ فــي الجَبهــة الاشــتراكيَّة الوطنيَّــة[٤] أوَّل ائتِـلافٍ انتخابـيّ تحـوَّلَ كُتْلَـة نيابيَّـة أسَّسـها مَـع كمـال جنبـلاط وأنـوَر الخَطيـب وكميـل شَــمعون وغسّــان توَينــي وإميــل البُســتاني وبيــار إده وديكــران توســباط، فباتــت ســريعًا أهــمَّ كُتْلَــة معارِضــة ذاتِ برنامــج اجتماعــيّ.

عــادَ الخــال ثانيــةً إلــى البَرلمــان نائِبًــا عَــن دائــرة بيـروت الرابعـة فـي انتخابـات ١٩٥٣، ثامـن انتخابات تشــريعيَّة بعــدَ الاســتقلال. خــاضَ مَعركــة غَيــر تقليديَّــة بــأدواتٍ وقــدراتٍ متواضِعــة جــدًا، وهَــزَم مُنافسًــا قويًّــا: وزيــر الماليَّــة والدِفــاع مؤسّــس الكليَّــة

(٤) الجبهـة الاشـتراكيَّة الوطنيَّـة (١٩٥١): أطلقهـا نـوَّاب ورد ذكرُهُـم فـي النـصّ. هـي أوَّل ائتـلاف انتخابـي تحـوَّل كُتلـة نيابيَّـة عارضـت التَمديـد لرئيـس الجمهوريَّـة بشـارة الخـوري وحضَّتْـهُ علـى التنَحـي بـدون إراقَـة دمـاء أو تَهديـد بُنيَـة النّظـام السياسـي.

العامليَّة في بيروت رشيد يوسف بيضون[٥]، فنال ضِعف أصواته.

لماذا عادَ عبدالله الحاج نائِبًا عَن دائرة بيروت لا عَن جَبَل لبنان؟ تفصيلٌ مهمٌّ ولَو بدا تَحصيلًا مُحصَّلًا، أدعوكِ يا ابنتي للتوقُّف عِنده والتفكُّر لأنَّ له أدِلَّة كثيرة.

لَماذا حاذَرَ عبدالله الحاج التَرَشُّح عَن المَقعَد الشيعيّ في جَبَل لبنان؟ ألأنَّه عَرَف مُسبقًا أنَّ الزعامات أقوى من البرامج؟ ألأنَّه، في ظِلِّ الزعامَتَين الجنبلاطيَّة والشمعونيَّة، لم يَكُن له مكان في مِزاج شعبي يَركُنُ لحُكم الزعامات؟

كانَ خالي متعَاطِفًا وقريبًا جدًا من كميل شَمعون لكنَّه كانَ واقعيًّا. عَرَفَ أنَّ مسألَة تَشكيل اللوائح الانتخابيَّة مختلِفَة تَمامًا، بحِساباتها وتوازناتها، عن مسألَة الصداقة والتعاطُف مَع زَعيمٍ أو مَع

---

(٥) رشيد يوسف بيضون (١٨٨٩ ـ ١٩٧١): سياسي لبناني أسس حزب الطلائع في بيروت، وفيها أنشأ مدارس ومعاهد العامليَّة. شَغل مناصِب وزاريَّة عدَّة في حكومات لبنانيَّة، وانتُخب نائبًا عدَّة دورات في البرلمان اللبناني.

آخَـر علـى خلفيَّـةِ أحـداثٍ معيَّنَـة أو علاقـاتٍ عائليَّـة مميّـزة.

ولْأُوضِـحْ لـكِ أكثـر: كان فــي جبـل لبنــان زعيـمٌ ذو حضــور شــيعيّ، هــو محمــود عمّــار[٦]. ومــن الطريـف تكنيتُـه بمحمـود حسـين دَرويـش. وكان حسـين دَرويـش أحَـد شُـرَكاء نِمـر كميـل شـمعون (والِـد الرئيـس) فدعـم الشَّـمعونيون محمـود عمّـار بَـدَل عبداللــه الحــاج عَــن دائــرة بعَبــدا رغــم صداقـة وزمالـة خالـي بكميـل شـمعون. المصالـح يــا ابنتــي تأتــي قَبــل البرامِــج! ولــم يتدخّــل الحليـف والصديـق كَمـال جنبـلاط أو يناقِـش فــي تسـميَة المُرشَّـح الشـيعيّ فــي جَبـل لبنـان، تـارِكًا الأمـر للزعامَـة المارونيَّـة المُتَمثِّلَـة آنـذاك بكَميـل نمــر شَــمعون.

التوغُّـلُ فـي العلاقَة بيـنَ حسَـين ونِمر يأخذُنـا بَعيدًا إلـى عالَـم التجـارَة، المشَـروعَة علـى طريـق الحَرير،

---

(٦) محمــود حســين درويــش عمّــار (١٩٢٠ ـ ٢٠١٠): محــامٍ ونائــب ووزيــر، ولــد فــي بُــرج البراجنــة. مــن أركان حِــزب الوطنيّيــن الأحــرار. شـارَك فـي تأسـيس المَجلـس الإسـلامي الشـيعي الأعلـى، وجمعتـه صداقـة بالإمـام السـيّد موسـى الصـدر.

مؤسسة دَار الجَديد
Dar al Jadeed

والمَمنوعـة علـى طُرقـات أخـرَى مَقصيَّـة. كانـت الحصَّـة الشـيعيَّة، بالرِضـا والتسـليم الجُنبلاطـي، مـن حصَّـةِ الخَصـم والحَليـف الشَّـمعوني. خُصومَـةٌ وأحـلافٌ وتَسـليمٌ ورِضـا وتقاسـمٌ وتوزيـعُ مناصـب، قيَـمٌ دَمَغَـت تلـك الفتـرة وسـيَّرَت شـؤونَ النِظـام قَبْـلَ اعتِلالِـه بسـنوات.

كان بيتُنـا يغنّـي علـى شَـدوِ العندليـبِ السياسـيّ: خالـي. ولـكلٍّ مـن أشـقائي: مُنيـر ومالِـك وفَضْـل وأحمَـد وابراهيـم، قصَّتـه مـع تلـك الحقبـة.

مُنيـر، أكبَـرُ أشـقّائي، كانَ مُتوقِّـد الـذكاءِ والأقرَب سـنًّا وذكاءً وجمـالًا إلـى بَلقيـس، تخبرُنـي عنـه قِصصًـا فـي الإبـداع المدرسـيّ ونبوغِـه فـي الرياضيـاتِ علـى أيـامِ مدرسـةِ الحُـرش الرسـميَّة وكان يَـدرُس فيهـا حسـين كامِـل (شـقيق العالِـم الكَبيـر حَسَـن كامـل الصبّـاح قريـب جدَّتـي ماريَّـا). ذكاؤه الصبّاحـي كادَ يَجعَـل منـه عالِمًـا لـولا ظُلـم مصادفـةٍ منعَتْـه مـن اسـتثمار مواهِبِـه فـي حـلِّ المسـائلِ الرياضيَّـةِ والفيزيائيَّـةِ المُعقَّـدة إذ تَعَـرَّض فـي سـنّ مُبكِـرة لحـادِث سـيّارَة ألزَمَـهُ الفِـراش وأعاقَـهُ عـن متابَعـة تَحصيلـه العِلمـيّ، فاكتفـى بمسـك دفاتـرِ المُحاسـبة العموميَّـة فـي

بلديَّــة الغبيــري[٧] عنــد انفصالِهــا عــن الشّــيّاح[٨]،
ورفيــق خالــي عبداللــه فــيِ مغامَراتِــهِ الانتخابيَّــة.
مالِــك خَطفَتــهُ أمنياتــه المتأرجِحَــة إلــى البرازيــل،
البِلاد البَعيــدة التــي سَــبَقَهُ إليها خالانــا علــيّ وفايــز.

---

(٧) بلديَّـة الغبيـري: علـى سـاحِل المَتـن الجنوبـي فـي محافظـة جبـل لبنـان. ثانـي أكبَـر بلديَّـة فـي لبنـان مـن حيـث مصـادر الدخـل والمسـاحة. سُـميّت تيمّنًـا بنبتـةٍ بريَّـةٍ وَرديَّـة اسـمها «الغبيـرة» اشـتَهرت بهـا. قبـل القـرن التاسـع عشـر، لـم يتجـاوز عَـددُ سـكّانها الألـف نسـمة يعتمـدون علـى الزراعـة وإنتـاج الحريـر. عمرانيًّـا امتـازت بمنـازل ريفيّـة مشـيّدة علـى الأراضـي الزراعيَّـة فاشـتهرت باسـم بسـاتين الغبيـري منطقـة قصـور منتشـرة بَيـن أشـجار الصَنوبـر، سـكَنها كبـار رجـالات السياسـة، أبرزهـم الرئيـس ريـاض الصلـح. توسَّـعت عُمرانيًّـا بفنـادق ومسـابح علـى شـاطِئها الرملـي أبرزهـا الـسان سـيمون، وهـي تمتلـك جـوار العاصِمـة شـبَكة طرقـات حيويَّـة. ارتفـع عَـدد سـكّانها بازديـاد الوافديـن إليهـا مـن القـرى مُسـتفيدين مـن نَهضتهـا ومـن موقعهـا المتاخـم لبيـروت. حَصَـدت الغبيـري إرثًـا ثقيـلًا خـلال الحـرب فهـي علـى خطـوط التمـاس. دمَّـرت المعـارك معظـم أبنيـة واجهتهـا الشـرقيَّة. سـنة ١٩٨٢ دافَـع عنهـا أهلهـا فلـم يدخلهـا الجيـش الإسـرائيلي، لكـن مذبَحـة مُخيَّمـي صبـرا وشـاتيلا شـوهت تاريخهـا. فـي تَمـوز ٢٠٠٦ دُمّـر قِسـم كبيـر منهـا فـي الهجـوم الاسـرائيلي المعـروف بـ : «حـرب لبنـان الثانيـة» أو «حـرب تمـوز».

(٨) الشّـيّاح: جنوبـيّ بيـروت، تربِـطُ المدينـة بالجَبـل والبِقـاع بطرقـات دوليَّـة أبرزهـا طريـق الشـام. تأسّسـت بلديَّتها سـنة ١٨٩٠. سـكنَها الصحافي والسياسـي ميشـال زكّـور، وَوديـع نعيـم الـذي تـرأّس وَفـد لبنـان إلـى الأمـم المتَّحـدة، وحاكِـم مصـرف لبنـان السـابق المحامـي إدمـون نعيـم. تعرّضـت لدمـار هائـل أيّـام الحـرب.

عـاشَ مالِـك ومـاتَ دونَ أن أعرِفـهُ إلا مـن صـورَةٍ مُعلَّقـةٍ علـى جِـدار حَسـرَةٍ لوالدتـي تـكادُ تَعرِفُهـا أغلـبُ أمهـاتِ لبنـان، حَفَـرَت فـي ذاكِرَتـي خوفًـا مُزمنًـا مـن خطـفٍ علـى هويّـات اليـأسِ والرَحيـلِ قـد يصيـبُ يومًـا أولادي. ولا يفارقنـي حُـزنُ خالـي عبداللـه؛ تحذِّرنـي رَنّـةُ كلماتِـه مـن مخاطـر تهجيـرٍ وهجـرات هـي مـن صلـب تاريخ لبنـان البلـد الصغير. كانَ يربِـطُ أسـبابها بضيـقِ الحـال وتناقُـص الفـرص. كَتَـبَ فـي الصحُـف وعَبَّـر عـن قَلَقِـه فـي مَجالِسِـه وفـي مَجلِـس النـوَّاب: «مَـن يمُـرّ بـدار القنصليَّـة البرازيليَّـة يعلَـم ويشـعُر بالخطَـر الـذي يهَـدِّد هـذا الوطـن مـن اسـتمرار الهجـرة علـى الصـورة الجاريَـة فـي هـذه الأيّـام. كلُّ ذلـك سَـبَبُه الشـركات والأسـعار والغـلاء والبطالـة وقلَّـة المـوارد»[٩]. فمـاذا نقـول اليـوم وكلّ يـوم ونحـن نَمـرُّ بالقنصُليّـات العربيَّـة والأجنبيَّـة؟ هـل نلـومُ الشـركات والأسـعار والغـلاء والبطالـة؟ أم نلـوم أنفُسَـنا لأنَّنـا لـم نصنَـع وطنًـا لأولادنـا؟

شـقيقي فَضْـل امتَهَـنَ المُحاسـبة من بـاب الاختصاص

(٩) المصدر: محاضر مجلس النوَّاب، في ٦ كانون الأول ١٩٥١

الجامِعـيّ وورث عَـن الخـال وعلـى طريقَتِـه شَـغَفَه بالسياسـة. «غَطَـسَ» فـي الفِكـر الشـيوعيّ والتنظيـم الحِزبـي فـكانَ مهنـدس الحـزب ماليًّـا فـي مَرحلتِـه التأسيسـيَّة، وأحـد الذين، سـنة ١٩٦٤، بدأوا المُناقشـة الفِكريَّـة السياسـيَّة التنظيميَّـة لتكريـس اسـتقلاليَّة الحِـزب الشـيوعي اللبنانـي[١٠] عـن الحِـزب الشـيوعي فـي سـوريا. وطـوال العَهـد الشَـهابي لا أذكـر أنَّ أفـراد عائِلَتـي، وشـقيقيَّ فَضْـل وابراهيـم خصوصًـا، عَرَفـوا يومًـا واحِـدًا راحـة البـال أو الاسـتِقرار فـي المَنـزل الأبـويّ. ففضـل ظـلَّ ناشِـطًا تحـت الأضـواء، وفـي أصعَـبِ الظـروف، حتـى آخِـر يـومٍ مـن حياتـه.

---

(١٠) الحـزب الشـيوعيّ اللبنانـيّ: أقـدَم حـزب فـي لبنـان، تأسـس سـنة ١٩٢٤، وهـو مـن أهـمّ فصائـل حركـة التحـرُّر الوطنـي اللبنانيَّـة والعربيَّـة. ضـمَّ مناضِليـن مـن مُختلـف الطوائـف اللبنانيَّـة ومـن أقليّـات قوميَّـة فـي لبنـان، لاسـيما الأقليَّـة الأرمنيَّـة. اسـتقطَب نقابـات وجمعيّـات مهنيَّـة ونُخَـبَ مُثَقَفـة وأصحـاب مهـنٍ حُـرَّة وكُتَّابًـا وصحافييـن. شـكَّل الشـيوعيّون حزبَهـم باسـم **حِـزب الشَـعب** وأصـدروا جريـدة **الإنسـانيَّة**، ولـم يتصـل بــ «الكومنتـرن» الَّا عـام ١٩٢٧، وتغيَّـر اسـمُهُ مـن **حِـزب الشَـعب** إلـى **الحِـزب الشـيوعي**، وكانَ ذلـك شـرطًا للانتسـاب. تـمَّ حظْـره بَعـد الاسـتقلال. شـارك فـي أحـداث ١٩٥٨ مَـع مناوئـي الرئيـس كميـل شَـمعون، وربَطتـه علاقـة مميّـزة مَـع الحِـزب التقدّمـي الاشـتراكي. كانَ أوَّل مَـن نـادى بتَحديـد سـاعات العَمـل بثمانـي سـاعات فـي اليـوم، وأوَّل مَـن واجَـه الاحتِـلال الإسـرائيلي عـام ١٩٨٢ ضِمـن «جَبهـة المقاومـة الوطنيَّـة اللبنانيَّـة». مـن أشـهَر أمنائـه العامّيـن جـورج حـاوي (اغتيـل عـام ٢٠٠٥).

لَـم تُفارِقـه البَسـمة ولا رباطـة الجـأش حتـى عندمـا طالـت الاغتيـالات بكواتـم الصـوت أركانًـا مـن الحِزب الشـيوعي فـي بيـروت والضاحيـة والجنـوب ومناطِـق أخـرى، كأسـتاذ الفلسَـفة والمُفكّـر حَسَـن حَمـدان (مَهـدي عامِـل)، والمُفكّـر حسـين مـروّة (اغتيـل فـي سَـريره) والفنَّـان المُقعَـد نـور طوقـان.

شـقيقي الأصغـر ابراهيـم الـذي نـال منحـةً مـن الجامعـة اللبنانيّـة «انتـزَعَ» دكتـوراه فـي الرياضيّـات مـن جامِعـة السـوربون فـي فرنسـا بدرجَـة متَفـوّق. فـي بدايَـة السـتينيّات قـاوَمَ عَرضًا سـخيًّا لتبَـوُّءِ مَقْعَدٍ تعليمـيٍ رفيـع فـي الجامِعـة الفرنسـيَّة العَريقـة نفسـها، وفضَّـل العَـودة إلـى الأرض الأمّ والجامعـة الأمّ مشـاركًا صَديقـه الدكتـور حَسَـن مشـرَّفيّة[11]

---

(١١) الدكتـور حسـن مشـرفيّة (١٩٢٥-٢٠١٨): تلميـذ مدرستَي القديـس يوسـف (عينطـورة) والإخـوة المريميـين (بيروت).خرّيـج جامعـة السـوربون فـي باريـس عـام ١٩٥١. أسَّـس كليَّـة العلـوم فـي الجامعـة اللبنانيَّـة وكانَ عَميدَهـا الأول (١٩٦٠ ـ ١٩٦٤). عُيّـن وزيـرًا للتصميـم العـام (تشـرين الأول ١٩٧٠) مُحتفظًـا بمَركـزه عَميـدًا لكليَّـة العلـوم. اِسـتقال فـي آذار ١٩٧٢ وعـاد إلـى عِمـادة كليّـة العلـوم حتـى نهايـة ١٩٧٧. فـي مَسـيرته النضاليَّـة أنـه قـدّم اسـتقالةً جماعيَّـةً مـع ٨٥ أسـتاذًا فـي كليَّـة العلـوم (مـن أصـل ٨٧ أسـتاذًا) لـحَضّ السُـلطات علـى شـراء أرض فـي الشـويفات وإنشـاء مُجمَّـع الحَـدَث الجامعـي. تـمَّ تدشـين الحـرم فـي سـبعينيّات القـرن الماضـي

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

فـي تأسـيس كُليَّـة العلـوم[١٢] فـي منطقـة الحَـدَث. والدكتـور مشـرَّفيّة، المَعـروف بـالعَميد المُتواضِـع، عَلَـمٌ آخـر طَـواه النكـران والنِسـيان، هـو أول عميـد لكُليَّـة العلـوم، ووزيـر التَصميـم (١٩٧٠) فـي حكومـة الرئيـس صائـب سـلام. رافَقـه شـقيقي إبراهيـم وزوجتـه ليلـى الريّـس فـي نضالـه مَـع الطُـلّاب والأسـاتِذة دفاعًـا عَـن حقوقهـم وحقـوق الجامِعـة الوَطنيَّـة وسـاروا مَعَـهُ فـي التظاهـرات والاعتصامـات والإضرابـات. نَكهَـةُ أمَـل عذبـةٌ فـي ذلـك الزَمَـن

برعايـة الرئيـس شـارل حلـو وحضـور رئيـس الحكومـة رشـيد كرامـي. ضمَّـت أرضُـهُ لاحقًـا مُجمَّـع مدينـة رفيـق الحريـري الجامعيَّـة. وَضَـعَ قانـون التفـرُّغ لأسـاتذة الجامعـة، ودافَـعَ بشَراسـة عـن «العائلـة الجامعيَّـة» طيلـة ثلاثـة عقـود جعـل خلالهـا كليَّـة العلـوم صَرحًـا علميًّـا محترمًـا فـي لبنـان والخـارج، خصوصًـا فـي فرنسـا التـي توجَّـه إليهـا خرّيجـون لدراسـة الدكتـوراه والعَـودة الـى الكليَّـة لرَفدِهـا بالخُبُـرات وافتِتـاح اختِصاصـاتٍ جديـدةٍ فيهـا.

(١٢) كليَّـة العلـوم: مـن أوائـل كُلّيـات الجامِعـة اللبنانيَّـة وأكبرها. أنشِـئت سـنة ١٩٥٩، وفـي السـبعينيّات شـكَّلت نـواة مُجمَّـع مدينـة رفيـق الحريـري الجامعيَّـة فـي الحَـدَث، أكبَـر مُجمَّـع جامعـي فـي الجامعـة اللبنانيَّـة. تضُـمُّ الكليَّـة خَمسـة فـروع تغطـي أربَـع محافظـات فَضـلًا عـن العاصِمـة وتمنَـح شَـهادت فـي الرياضيّـات والإحصـاء والمعلوماتيَّـة والفيزيـاء والإلكترونيـك وعلـوم الحيـاة والأرض والكيميـاء والكيميـاء الحياتيَّـة والعلـوم الجيولوجيَّـة والجيولوجيـا النفطيَّـة.

الجميـل لا أنسـاها. درّس إبراهيـم فـي كليَّـة العلـوم حتــى تَقاعُــدِه، وكاد أن يخسَــر فيهــا حياَتــه أكثَــر مـن مـرَّة خـلال الحَـرب الأهليَّـة مُدافعًـا عَنهـا دِفـاع المَغاويـر عَــن الأوطـان الضائِعَـة، حارِسًــا أســرارَها العلميَّـة وأحـلام عُلمائهـا ممـن تشَـظَّت طموحاتهـم وتناثَـرت هِجـرةً قَسـريَّةً فـي بُلـدان العالـم.

مـا حقَّقـه إبراهيـم مـن تَحصيـلٍ جامعـي حقَّقـه أحمَـد فـي تَحصيـل الـرِزق. حـازَ شـهادة السـرتيفيكا وتحـوَّل إلـى التِجـارَة ثـمَّ إلـى تخليـص البضائـع فـي مينـاء بيـروت، ثـم اسـتقرَّ ونجَـحَ فـي إدارَة مؤسَّسـة تجاريَّــة.

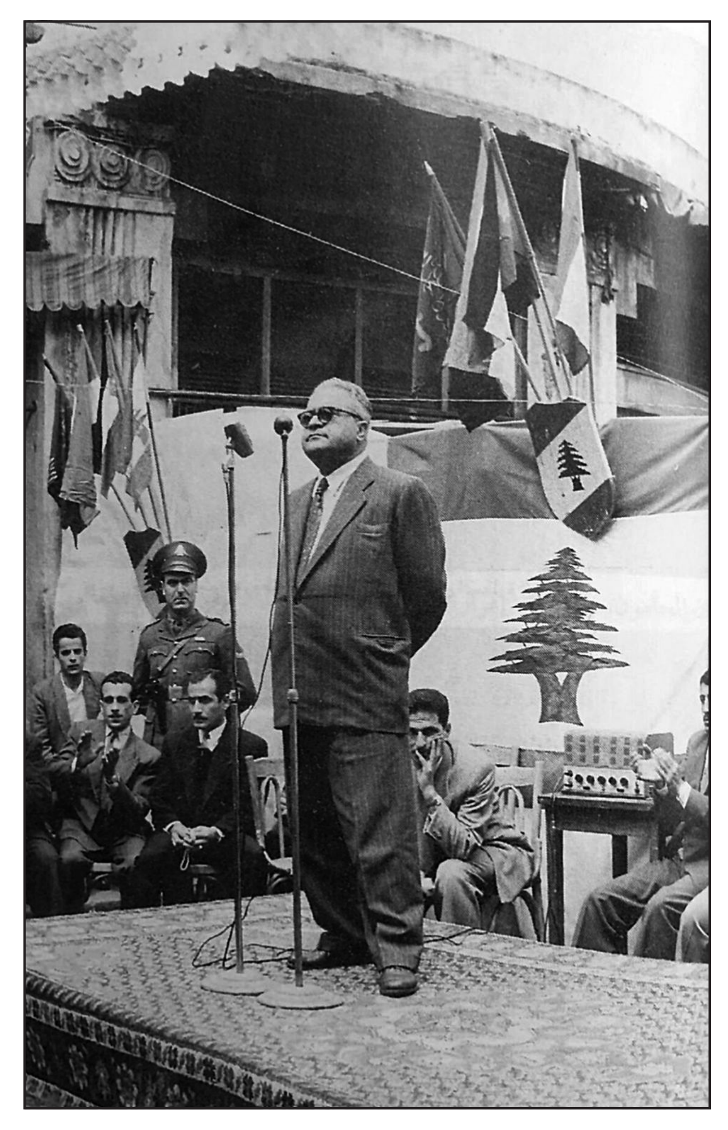
أمــا أنــا فكُنــتُ الشــاهِد الوسَــط بَيــن شــقيقتين، وأكادُ أقـول بَيـن حِقبتيـن. فالكبـرى سَـلمى تزوَّجـت زواجًـا تقليديًّـا بسـيّدٍ مثقَّـفٍ راقٍ مـن آل مُرتضـى وهَجَـرت بـل ربمـا تَهَجَّـرَتْ مـن ضَيعتهـا السـاحليَّة إلـى مَدينـة الشَـمس بَعلبـك. والصُغـرى يُمنـى أنهَـت دراسَـتها الجامعيَّـة فـي الجامِعـة اللبنانيَّـة وتزوَّجـت حبيبهـا المُهنـدس البيروتـي الوَسـيم مـن آل الكـردي. هاجَـرت مَعَـه إلـى حيـثُ وجـدا للـرِزق والنجـاح

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

سـبيلًا، وبقَيَـتْ رفيقَـة دربـي حيثُمـا حلَلْـت.

أمـا أنـا فلَـم أشـأ يومًـا أن أغـادر قِصَّتـي: تزوَّجـتُ ابن الضَيعـة، وعِشـتُ علـى مَقرُبـةٍ مـن بيتـيَ الوالـدي الـذي تهجَّـرتُ منـه وإليـه مرَّتيـن: أُولـى حيـن دَمَّـرَت الحَـرب الأهليَّـة منزلـي الزوجـيّ (الشـيّاح طريـقِ صيـدا القَديمَـة)، والأخـرى حيـن عـادَت إلـيَّ حرّيتـي وعُـدتُ أمًّـا إلـى حُضـنِ أمّـي.

حَصـادٌ وَفيـرٌ فـي مُحصِّلـة هـذه السـيرة: منـه مَـا حَصَدْنـاهُ، ومنـه... مـا حَصَدَنـا.



عبدالله الحاج خطيبًا | خمسينيّات القرن العشرين

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

حَنجَــرَة حريَّــة

سـأخبِرُكِ عَـن عبدالله الحـاج وَسـطَ أكـوامِ الأسـماءِ التـي مـرَّت فـي فَضائنـا السياسـيّ والوطنـيّ. عندمـا أقـول إنَّ الرجُـلَ كانَ ظاهِـرةً، فإنَّمـا لأؤكِّـد أنَّـه كانَ فلتَـة شَـوط عَلمانيَّـة فـي نظـامٍ طائفـيٍّ مُسـرطَنٍ حتَّـى النُّخـاع الشـوكيّ. مـن هـذه الخَلفيَّـة كانَ خِطابُـه نديًّـا، مَسـكونًا بنبَـضِ النـاسِ والشـارع.

... الشـارع؟ اعذرينـي يـا ابنتـي! لـم تَعُـد هـذه التَسـمية تَليـق. فـ«الشـارع» قَبـل السَـبعينيّات كان شَـريعَةً للتآخـي والجِـوار وانقلـب إلـى شُـرعةٍ لحقـوقِ المتقاتليـن. اليَـوم أصبحَـت الشـوارع تُسَـمّى بأسـماء شُـهداء «ماتـوا ليحيـا لبنـان»! أمـا كانَ لبنـان ليحيـا مـن دونِ أولئـك الشُـهداء؟ ألـم يكُـن أجمَـل لو أنَّهـم حَضَنـوا أولادَهـم وأحفادَهـم وشـاخوا مثـل كلِّ البَشَـر، وعاشـوا طَربًـا ورَقصًـا فـي لبنـان دونَمـا حاجَـة لأن تُرَقَّـص توابيتُهـم فـي الشـوارع؟

اعذُرينـي مـرَّةً جَديـدة: أخَذَنـي الشـارعُ إلـى أكيـاسِ الرَمـلِ والدُشَـمِ، إلـى أوتـارِ الرُعـبِ تُحرِّكُهـا رَشَـقات القنّاصيـن، إلـى شِـعاراتِ البطولَـةِ الزائفَـةِ مكتوبـةً عَجْلـى علـى حيطـانِ اليـأس، بَـدَلَ أن يأخذَنـي إلـى حيـثُ أمسـياتُ الشِـعرِ ورائحـة الشـاي السـيلاني في السـاموفار يَنـزِل فـي الاسـتَكانَةِ «خَمـرًا للمؤمنيـن»، وبَـدَلَ أن يأخذَنـي إلـى رَصيـفِ العِشـقِ وباعَـة الكَسـتناء والفَـرَحِ المفتـوحِ علـى جميـع الاحتمـالات.

عبداللـه الحـاج! نَعَـم. لِنَعُـد إليـه. بَقـيَ الرجُـل مَرميًّا علـى قارِعَـة النسـيان عشـرات السّـنين. صَوتُـه كانَ نشـازًا بالمُقارنـة مَع جَوقَـة «الطائفتاريـا»... طريقتي اللغويَّـة لأخلُـطَ الطائفيَّـة بالعَسـكر. تخيَّلـي عندمـا تكونيـن طائفيَّـة بِبِـزَّةٍ إفرنجيَّـة أو ببِـزَّة عسـكريَّة!

لَـم يُـرِد يومًـا دخـولَ النَّـدوة البرلمانيَّـة مـن أجـلِ مَجـدِ الأرشـيف. خَـرَج منهـا بهُـدوء، تـارِكًا أرشـيفًا مـن المَعانـي والعِبَـر فـي تَمثيـلِ النـاس والدِفـاع عـن مصالِـحِ البِـلاد.

وسـطَ الفَسـاد والإفسـاد، واجَـهَ عبداللـه عَهـدَ السـلاطين مِمَـن لـم يوَفِّـروا مـن النَهْـبِ المُبَرمَـج حتَّـى صَنـادِلَ الفُقـراء. بَقـيَ مُمسِـكًا بطَبَشـورةِ

الفُقـراء ومُتوسِّـطي الدَخْـلَ والطامِحيـن إلـى التَّحـرُرِ مـن طُغيـانِ الزِّعامـاتِ والطائفيَّـة. خاطَـبَ النـاس في العاصِمـة بَيـروت وفـي ضَواحيهـا بلُغَـةٍ بَيضـاء ليـسَ فـي عَباءَتِهـا سِـوى صَفـاء القِيَـم. وثورَتُـه علـى الفَقـرِ والظُلـمِ والفَسـادِ لـم تسـتَثْنِ رجـالَ الديـنِ وتسـلُّطَهم علـى الحيـاة المَدَنيَّـة. لَـم يَسـتَحِ مـن تَوجيـهِ الأسـئلَة المُزعِجَــة إلــى الحكومَــة مــرَّةً تِلــوَ أخــرى حَــولَ مُمارسـاتٍ رأى فيهـا غُبنًـا وتَمييـزًا كتَخصيـصِ مبالـغَ كبيـرة مـن القَطْـعِ النـادِر لعَقيلـةِ رئيـسِ الجمهوريَّـة فيمــا البِــلاد تواجِــه أزمَــةً ماليَّــة، والطــلابُ فــي الخــارِجِ مُحتاجــون إلــى العُملَــة الصَعبــة، مُطالبًــا بالمُصارحـةِ والمُحاسـبةِ: «لأنَّ القَضيَّـة ليسَـت قضيَّـة أشــخاص بَــل قضيَّــة مبــدإٍ تعــاونٍ عــامٍّ لجَميــع المواطنيـن»[1]. كذلـك فَعَـلَ بالنِسـبة لزيـادةِ ضعفَـي

---

(١) «إنَّنـا إن كنّـا نهتَـمّ بشـيء، فـأن نجعـل هـذه الجمهوريَّـة مُثلـى. علينـا أن نحاسـب أيّ شـخص تنـاول القَطْـع النـادر إذا كانَ مـن غيـر مسـتحقّيه، بينمـا المسـتحقّون وهـم تلاميـذ قـد حرمـوا منـه، ونحـن فـي أشـدّ الحاجـة للعِلـم والتربيـة. لذلـك أرجـو أن أُجـاب عـن هـذا السـؤال، لأنَّ القضيَّـة ليسـت قضيَّـة أشـخاص بـل قضيَّـة مبـدأ تعـاون عـامّ لجميع المواطنيـن. نحـبّ أن نثبـت للجميـع أنَّنـا فـي هـذه الجمهوريَّـة لا نراعـي مواطنًـا علـى مواطـن، فالجميـع متسـاوون».
المصدر: محاضر مجلس النواب، في ١٠ تموز ١٩٥١

النَفقاتِ المُخصَّصة لأعمالِ بناءِ مطارِ بيروت، مُقترحًا تشكيلَ لجنَة برلمانيَّة للتَحقيقِ في الأمرِ وبخاصَّة في ظلِّ نَفادِ الاحتياطيّ والمشاكلِ الماليَّة الحادَّة[٢].

كثيرةٌ هي المعارِكُ التي خاضَها لِقَناعةٍ منه، والتزامٍ بوجوبِ التأسيسِ لِفعلِ المُحاسبة: محاسبة «كلّ مواطِن» مهما علا شأنَه، وعلى

(٢) «كنت قد تقدَّمت إلى هذا المجلس باقتراح تشكيل لجنة برلمانيَّة للتحقيق في العشرين مليون ليرة التي زادت عن الـ ٢٥ مليون ليرة المقدَّرة لأعمال المطار إذ لا يجوز أن نوافق على صَرف ٢٠ مليون ليرة خلافًا للتقديرات. قُدِّرَت للمطار اعتمادات بـ٢٥ مليون ليرة فلا يمكننا أن نوافق على صَرف ٤٥ مليون ليرة قبل أن نكون صادقين تجاه أنفسنا وضميرنا. واجبُنا يتطلّب منا أن نعيّن لجنة برلمانيَّة للتحقيق بهذا الامر. (...) نعلمُ أن الحكومة كانَت تعاقدت مع شركة وستنكهوس التي تقول الحكومة إنَّها أخطأت ودفعت لها ٢٥ ألف دولار أجرة دروس أتت مغلوطة. لا أدري على أيّ أساس سنستمرُ في أعمالنا (...) ولا أدري إذا كانَ أحد منّا يطاوعه ضميره على تصديق هذه المبالغ الجسيمة، خاصّة أنَّ معالي الوزير صرّح أنَّ الاحتياطي قد نفد، وأنَّنا نعاني عدَّة مشاكل ماليَّة (....) أيها السادة، إنَّ في قضيَّة المطار أخطاء واضحة، وأنا أضع مسؤوليَّة التمنُّع عن تشكيل لجنة تحقيق على عاتق هذا المجلس».
المصدر: محاضر مجلس النواب، في ١٠ تموز ١٩٥١

«كلّ فلسٍ يتناولَه من الخزينة»[٣]. فِكْرُه «الدَولَتي» (من دَولة) كانَ مبنيًّا على قَناعةٍ أكيدَةٍ أنَّ الدَولة هي مشروعُنا، وهيَ الطريقُ إلى المُستقبل. قبل أكثَر من سَبعينَ سنةً كانَ يثيرُ حَفيظَته سوءُ النوعيَّة في خدَمات بديهيَّة كالماء والكهرباء، ويؤجِّج ثَورَتَه الاستهتار بمالِ الناسِ، فكان يَقِفُ في مَجلِسِ النوّاب جاهِرًا بالحَقائق، فاضِحًا الارتكابات، سائلًا أن تُحاسِب البلادُ «كلّ مواطِن أيًّا كانَ... لأنَّنا فقَط بمُراقبة الحُكّام وإخضاعِهم للمُحاسبة والمُساءلة نبني الأوطان»[٤].

أنتِ يا ابنتي، مِمَن يعتَقِدون خَطَأً أنَّ لبنان اليَوم

(٣) «عندما قدَّمت سؤالاً لم أستهدف الأشخاص الذين ذكرتهم، بل أحببت أن أظهر للعالم وللبنانيين خاصة أنَّ هذه البلاد تحاسِب كلّ مواطن في أيّ مكان على عمَله، وعلى كلّ فِلسٍ يتناوله من الخزينة. إذا كانَت الحكومة حتى الآن تتهرب من سؤالي، مع أنَّني طلبت أن يُطبع ويوَزَّع جواب الحكومة عليه، وإذا كانَ مكتب المجلس لم يجرِ شيئًا، فهذا نَقص في حياتنا البرلمانيَّة».

المصدر: محاضر مجلس النواب، في ١٠ تموز ١٩٥١

(٤) «نحن هنا لنُراقِب ونُحاسِب ونُقرِّر باسم هذا الشعب دِفاعًا عن أرواحِه وأموالِه ولا مهمَّة لنا غير ذلك».

المصدر: الجريدة الرسميَّة، ٣ تموز ١٩٥١

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

صورَة مشوَّهة عَن لبنان الأمس. لا ذَنبَ لكِ في ذلك فالذاكرةُ مُغتالة. اِسألي مَن كانوا شهودًا على تِلك الفَترة. اِسألي أرشيفَ مَجلِسِ النواب والمحاضِرَ الرسميَّةَ لجَلَساتِه. راجعي أرشيفَ الصُّحف: النهار، الأنباء، البَيرق.

... اِسألي عَن الشاعِر عُمَر الزعنّي[٥] وأزجاله ومونولوغاته الناريَّةِ الشهيرة. أتظُنينَ أنَّ مَنطِقَ شراء الذِمَمِ لم يكُن سائدًا يَومذاك؟ بالطَّبع كان. وبخاصَّةٍ لدى الشَركاتِ العابرةِ القارّاتِ تُخصِّص في دراسات جَدواها نِسبَةً مئويَّةً لشراء الضَمائر. الفَرقُ الوحيدُ بَين زَمَنٍ خالي وهذا الزمان البائس: السِعر آنذاكَ كانَ مُرتفعًا، والضَميرُ أكثرَ

(٥) عمر الزّعنّي (١٨٩٥ ـ ١٩٦١): شاعرٌ بارزٌ عُرفَ في بَيروت ودمشق والقاهرة باستخدام فنِّه للنقد والثورة ضدَّ الظلم المجتمعي. لُقّب بـ«شاعر الشعب» و«ابن البلد» و«فولتير العرب» و«موليير الشرق»، وهو برأي الناقد عمر فاخوري: «أحد أعظم الهجّائين بين شعرائنا لأنّه استحدث الهجاء الإجتماعي». عنه قال أمين الرَّيحاني: «عمر الزّعنّي ليس شاعرًا فحسب، إنه مربي الأجيال». ألقى أشعاره أغانيَ وألحانًا باللغة المحكيَّة كي يفهمها ويقرأها الناس من مُختلَف الخلفيّات التعليميَّة. ولا يزال فنّه سائدًا وشائعًا حتّى اليوم.
المصدر: المراجع المفتوحة

ارتفاعًـا، أمّـا فـي زمَنِنـا هـذا فالأسـعار تهـاوَت ومَعَهـا تهـاوَت الضَمائـرُ، وسَـهُلَ شِـراؤها بتِسـعٍ مـن فَضَّـة!

خـلال ولايَتِـه النيابيَّـة كانَ عبداللـه كابوسًـا حقيقيًـا لشـركاتٍ[٦] مـن بقايـا امتيـازاتِ الانتـدابِ الفرنسـيّ، تمـادَت فـي احتِـكارِ المَرافـقِ العامـةِ كالكَهْربـاء والميـاه وإنتـاج التُرابـة، وفـي اسـتِغلالِ المواطنيـن والاسـتِهتار بمَصالِحِهـم. ثـاروا واحتجّـوا علـى قَطْـعِ الميـاهِ وغـلاءِ أسـعارِ الكهربـاء وضعْـفِ الإنـارةِ وانقطاعِهـا المتواصِـل[٧]. وَقَـفَ عبداللـه مَعَهُـم مُطالبًـا الشـركات بتحسـين خدَماتِهـا ووَضـعِ تَعرفَـة

(٦) خـلال الولايـة الثانيـة مـن عَهـد الرئيـس بشـارة الخـوري، كانَـت ثـلاثُ شـركاتٍ: شـركة كهربـاء بَيـروت (الفرنسـيَّة ـ البلجيكيَّـة)، وشـركة شـكّا للترابـة، وشـركة المـاء، تديرُهـا شـركات أجنبيَّـة ذاتُ امتيـاز مـن بقايـا امتيـازات الانتـداب الفرنسـي.

(٧) «إنّ شـركة الكهربـاء التـي يشـكو منهـا جَميـع أفـراد الشـعب لا تدفـع فلسًـا واحـدًا ضَريبـة دَخـل. تعطـي المسـتهلكين فئـات مختلفـة لأمـرٍ واحـدٍ وصناعـةٍ واحـدةٍ، تتحكَّـمُ بالمشـتركين كأنَّهـا التزمَتهـم. إذا كانَـت هـذه الشـركة لا تقـوم بواجبهـا بدَفـع الضَريبـة، أطلُـب أن يُطبَّـق عليهـا قانـون ضَريبـة الدَخـل، وأن تضع تَعرِفـة عامَّـة يتسـاوى فيهـا جميـع المُسـتهلكين مـن أصحـاب المطابـع والصناعـات وغيرهـا. وإذا لـم تُغيّـر هـذه الشـركة وضعَهـا، أطلـب أن يمتَنـع الشَـعب عـن دَفـع الاشـتراكات لهـا، حتـى نؤدّبَهـا إن كانَـت الحكومـة لا تسـتطيع ذلـك».

المصدر: محاضر مجلس النواب، في ٤ كانون الأول ١٩٥١

عامَّـة يتَسـاوى فيهـا جَميـعُ المُسـتهلكينَ مـن دونَ تَمييـزٍ، طالبًـا منهـا أن تَقـومَ بواجِبِها بدَفـعِ ضَريبـةِ الدَخـل وإلّا امتَنَـعَ الشَـعبُ عـن دَفـعِ الاشـتراكاتِ لهـا.

هـذه الكيميـاء كانَـت سَـنَدَهُ للذهـابِ بَعيـدًا فـي المُســاءلةِ وإحــراجِ المَصالــحِ المُركَّبـة[٨]. عِندمـا أُسـقِطَ اقتراحُـهُ تعييـنَ لجنَـة برلمانيَّـة للتَّحقيـق فـي

---

(٨) «عَلِمـتُ أنَّ مجلـس إدارة شـركة ترابـة شـكّا يتألـف مـن سـبعة أعضـاء هـم سـتّة لبنانييـن وأربعَـة أجانـب، وأنَّ اللبنانييـن يملكـون فـي الشـركة ٢٥ بالمئـة فقـط، ومـع ذلـك تُعتبـر لبنانيَّـة خلافًـا للأصـول. ومراقب الحسـابات المِسـتر جـون سـتيوارت، المُعيَّـن مراقبًـا مـن قِبَـل الحكومـة، مُســاهم فــي الشــركة وأحَــد مالكــي أســهمها، وذلــك خلافًــا للقانــون اللبنانـي أيضًـا. والضَريبـة التـي تدفعُهـا، وهـي نحـو مليـون ونصـف مليـون ليـرة، هـي ربـع مـا يتوجَّـب عليهـا دفعُـه بنـاءً علـى أرباحهـا. أمـا شـركة الكهربـاء فعَلِمـتُ أنَّهـا إذا باعَـت الكيلـوات للمُسـتهلك العـادي بـ ١٥ قرشًـا، وللمُســتهلك الوسَــط بخمســة قــروش، وبقرشــين للصناعــات والبيّــارات والمطاحـن ومعامـل النجـارة، تسـتطيع أن تربَـح أكثـر مـن عشَـرة بالمائـة. كمـا أنَّ شـركة ميـاه بَيـروت والمنفـوخ ونَبـع العسَـل وغيرهـا مـن شـركات المـاء تربـح أكثـر مـن عشْـرة بالمئـة إذا باعـت متـر المـاء بــ٢٥ ليـرة. لـذا علـى المجلـس أن يسـعى إلـى تخفيـض هـذه الأسـعار. وأقتـرح تشـكيل لجنــة تنظــر فــي إنتــاج هــذه الشــركات وكميَّــة الدخــل التــي تجنيهــا الحكومـة، وعـدد اللبنانييـن الذيـن يشـتغلون فـي هـذه الشـركات، وإذا كانَـت هـذه الشـركات تطبِّـق دفتـر امتيازهـا».
محاضر مجلس النواب، في ٤ كانون الأول ١٩٥١

أعمـالِ الشـركاتِ الاسـتثماريَّةِ وأحيـلَ طلَبـهُ إلـى الحكومـة وكانَ لبعـض أعضائهـا مصالِـح في الشـركاتِ يتواطـأُون معَهـا ويحمونهـا، دَعـا إلـى تَشـكيلِ لِجـانٍ شـعبيَّةٍ فـي أحيـاءِ المُـدنِ والقُـرى وحرّضهـا علـى الإضـرابِ العـامِ الشـامِل ورَفْـضِ دَفـعِ فَواتيـرِ الكَهرباءِ والمـاءِ والضغـطِ لتَخفيـضِ أسـعارِ الترابَـة والمطالبَـةِ بتطبيـقِ ضَريبـةِ الدخـلِ التصاعُديَّـة.

استبشَـرَ ناخِبـوه بـ «طاقَـة» حُريَّـة كانَت على وَشَـكِ أن تُفتَـحَ فـي جِـدارِ اسـتِبدادِ طبَقـةٍ حاكِمَـةٍ مُتحكِّمَـة ومَحكومَـة حـاولَ مِـرارًا وتِكـرارًا تحريـكَ نَخوَتِهـا، داعيًـا إياهـا أن تتَّحِـد فـي التمسُّـك بحقـوقِ الدَولـة وألَّا تتسـاهَل مـع الأجنَبـي لأنَّ فـي التسـاهُلِ مَهانـةً، ولأنَّ مَـن لا يُطالـبُ باحتـرامِ قوانينـه ومؤسَّسـاته لَـنْ يلقـى احترامًـا مـن أحَـد[٩].

(٩) «نحـنُ لا نطالـب بإلغـاء الإمتيـازات إنَّمـا هـي قضيَّـة كرامـة وطنيَّـة. مـن العـار علينـا أن نكـون مُهانيـن ومُسـتخدَمين عنـد الأجنبـي وفـي بلادنا. مـن العـار علينـا أن نُعامَـل بحِطَّـة فـي عقْـرِ دارنـا. القضيَّـة قضيَّـة كرامـة وطنيَّـة أولًا وأخيـرًا. وإذا نحـن لـم نتمسّـك بالحقـوق التـي لنـا والتـي نحـن مصدَرهـا، وإذا تسـاهلنا مـع الغَيـر، فنحـنُ ندفعُـه ليتسـهين بنـا وبكرامتِنـا وحقوقِنـا. قـد نختَلـف فـي قضايانـا الداخليَّـة، أمـا فـي مكافَحـة الأجنبـي وشـركاتِه فمـن واجبنـا أن نكـون جَبهـة واحـدة، ولا ننقَسـم علـى بعضنـا.

بَيـروت والضَواحـي شـكَّلتا مَلعَبَـه فـراحَ يؤلِّـبُ النـاس ويؤلِّـب عليهـم: يؤلِّبهـم ضـدَّ الفَسـاد والفاسـدين ويؤلِّـب النَخـوَة فيهِـم علَّهـم ينتَفضـون. خاطَبَهـم حَيـث الوَجـع. حمَّلهُـم مسـؤوليَّة مصائِرهـم طالبًـا منهـم مقاوَمـة الفَسـاد والإفسـاد، كلٌّ بحَسـب وزناتِه، لأنَّ الإنقـاذ عَمـلٌ مُجتمعـيٌّ وليـس مجـرد تكليـف فـي صنـدوق اقتـراع. ولـم يوَفِّـر فـي انتقاداتـه مَـن رآه «يفضّـل عَـدَم التضحيـة بربـحٍ يـدرُّه عليـه الفَسـاد فـي سـبيل مـا سـيدرُّه عليـه الإصـلاح لـو ضَحّـى وسـاعَد علـى تحقيقِـه»[١٠].

عَنيفًـا كانَ خِطابُـه بـلا شَـعبويَّة، وحاسِـمًا

فإمّا أن نَعوم جميعًا أو نغرَق جميعًا».

المصدر: محاضر مجلس النّواب، في ٦ كانون الأول ١٩٥١

(١٠) «إنَّنـا لـن نسـتطيع الإنقـاذ لوحدنـا. علـى كلّ لبنانـيّ حيـثُ هـو ـ فـي القريـة وفـي المعمـل وفـي السـوق وفـي المكتـب وفـي الشـارع، فـي لبنـانَ أو فـي ديـار الغُربـة ـ أن يفكّـر بمـا يسـتطيع عَمَلـه لإنقـاذ البـلاد. إنَّ البـلاد لنـا جميعًـا وعلينـا أن نعمَـل علـى إنقاذهـا. علـى كلّ منـا أن يعمَـل ويقـاوم الفَسـاد والطُغيـان حيـث هـو وحَسَـبَ مقدِرتـه. إنَّ الحالـة أصبَحـت لا تُطـاق والمسـتقبل فـي خَطـر، فهـل نحـن فاعلـون مـا هـو متوجِّـب علـى كلٍّ منـا لإنقـاذِ هـذا الوطـن»؟ (الأنبـاء، ١٤ أيلـول ١٩٥١ فـي كتـاب وهيـب معلـوف، **نائـب الشـعب الـكادح: سـيرة عبـد اللـه الحـاج (١٨٩٩ ـ ١٩٧٥)**، المذكـور ص.٤٧.

بـلا ديماغوجيَّـة. يَعنـي: يقـولُ ويعنـي مـا يقـول. وَصَـلَ بـهِ الأمـرُ إلـى التَحريـض. نَعَـم التَّحريـض! بربِّـكِ قولـي لـي: مـا قيمَـةُ مُمَثِـل الشَـعب الـذي لا يحـرِّضُ شَـعبَه علـى الثـورَة ضـدَّ الظُلـم والهَـوان؟ فـي ذلـك كانَ متأكّـدًا أنَّـهُ لا يمثِّـلُ الشَـعبَ فحَسـب بَـل أنَّـهُ واحـدٌ منـه. كانَ واثِقًـا مـن أنَّ النـاسَ يقِفـون هُـم أيضًـا إلـى جانِبـه. فهَـل أخطـأ الحِسـاب؟

صحيـحٌ أنَّ خالـي عبداللـه كانَ حَنجُـرَةَ الطَبقـة الوسـطى ومـا دون، وزئيـرًا علـى الطَبقـة المُخمليَّـة ومـا فَـوق، لكنَّـه لـم يكُـن أبـدًا ضـدَّ المُخمَـل هـو الـذي تَربّـى علـى الحَريـر. كانَ ببسـاطةٍ ضـدَّ أن يُنسَـجَ المُخمـلُ علـى نَـولِ رجُـلٍ جائـع!

ليـس يسـاريّا غَوغائيًّـا كمـا اتَّهمـوه، بـل كان مُناصِـرًا مُناديًـا وفاعِـلًا فـي التأسـيس لعَدالـةٍ اجتماعيَّـةٍ هـي، كمـا يحلـو لـكِ أن تُـردّدي لـي دائمًـا، أسـاسُ الرَّفـاهِ والتَنميَـةِ البشـريَّةِ والسّـلمِ المُجتمعـيِّ المُسـتدام.

لا بـأس إذًا أن نقـولَ عـن خالـي إنَّـه كانَ وكيـلَ الكادِحيـن، «حَريصًـا علـى كلِّ قِـرشٍ مـن مـالِ

المُكَلَّـف»[١١] كمـا كانَ يُحـبُّ أن يصِـفَ دَورَه، وربيـبَ صَباحاتِهـم الحُلـوة المُزدانـة بشـبابيكٍ مـن الأحــلامِ المســتحيلة.

بُـذورُ الثـورَةِ كما تلقَّنَها مـن المِسـتر محمَّـد الزّيـن (أسـتاذه فـي الجامِعـة الأميركيَّـة) ولاحِقًـا مـن المسـتر جـون ديـوي (أسـتاذه فـي جامِعـة كولومبيـا) تَمظهَـرَت فـي صوتِـهِ ومواقِفِـهِ وصلابَـةِ وقوفِـهِ إلـى جانِـبِ قيَـمِ الحَـقِّ والديمقراطيَّـة والعَدالَـة الاجتماعيَّـة، وفـي رَفضِـهِ الثابِـتِ المُحاصَصـةَ الطائفيَّـةَ التـي كانَـت بـدأت تنخُـرُ جَسَـدَ النّظـام اللبنانــيّ الهَــشّ.

العِلّـة، يـا ابنتـي، لـم تكُـن فـي الدسـتورِ يومَهـا ولا فـي المناهِـج بـل فـي عِلَّـة السُـلطةِ وجَبـروتِ المـال، عندمـا يصبِـحُ الدُسـتور مطّاطًـا يتناسَـب ومقاسـاتِ الطُموحـات. خُـذي مَقـاس أي خَصْـرٍ، مـن الأنحَـفِ

(١١) «إنَّنـي واحِـد مـن هـذا الشـعب ووكيـلٌ عـن المُكَلَّـف اللبنانـي، ومهمَّتـي أن أحـرَص علـى كلِّ قـرش مـن مـال المُكَلَّـف، أريـد أن أسـأل الحكومــة...».
محاضر مجلس النواب، في ١٣ حزيران ١٩٥١

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

إلـى الأكثـرِ بدانـةً وألبسـيهِ سِـروالًا بزنّـارٍ مطّاطـيّ وقولـي لـي مـاذا ترَيـن؟ السِّـروال ذاتُـه فـي تناسُـق تـامٍ مَـع النَحيـلِ والبَديـن. هل تغيَّر شـيء مُنـذ ١٩٤٣ سـوى تغييـرِ نوعيَّـة السَـراويل وفاعليَّـة المطّـاط؟

«لمـرَّةٍ واحـدةٍ وأخيـرة»... كـم سـمِعناها منـذُ أيـامِ السُـلطانِ القَديـم إلـى أيـامِ السـلاطينِ الجُـدُد؟ نَعـودُ دائمًـا إلـى مشـروع السُـلطة والتشـبُث بهـا. نَعـود إلـى «مـرّةٍ واحِـدَةٍ وأخيـرَة» لـم تكـن يومًـا مـرَّةً أخيـرَة. هـذا مـا أرادَ عبدالله الحـاج مواجَهَتَـه: مواجَهَـة سَـبي النصـوصِ مـن أجـلِ اللّصـوصِ واغتِصـابِ «حُلُـمِ المَسـاكينَ فـي دَولـة»[12].

نَعَـم يـا ابنتـي! العِلَّـة لـم تكـن يومًـا فـي الدسـتور ولا فـي المَناهِـج. ولـو كانَ الأمـرُ كذلـك لـكانَ

---

(١٢) «إنَّنـا إصلاحيّـون. نهـدُف إلـى إنقـاذ الدَولـة مـن المهالـك المَحتومـة التـي سـيَّر خصومُنـا أعمالهـا وتصَرُّفاتهـا فيهـا منـذ بدايـة العَهـد الاسـتقلالي (...) عَرَضْنـا هـذا الوضـع الشـاذ، وقُلنـا فـي حينـه إنَّ الدَولـة لا تقـوم علـى فئـة واحِـدة مـن الشَـعب، فئـة الموالـين فحَسـب. وقُلنـا إنَّ المُعارضـة أسـاس فـي الشَـعب، وهـي منـه ولـه، وهـي التـي تحاسِـب وتنتَقِـد وتراقـب.»

مـن كتـاب وهيـب معلـوف، **نائـب الشـعب الـكادح: سـيرة عبـد اللـه الحـاج** (١٩٧٥ ـ ١٨٩٩)، المذكـور ص. ٤٧ و ٨٨.

الأجـدى بِنـا أن نَعـود جميعُنـا إلـى منهـجِ الرئيـسِ رِيـاض الصُلـح، وضعتِـه كالقَسَـم فـي صَـدرِ مَكتَبِـك فــي مَعهــد باســل فليحــان المالــي والاقتصــادي كأنّـي بـكِ تريديـنَ لنَفسِـك ولـكلّ مَـن أتـاكِ طالِبًـا لمَعرفَـةٍ أو لاستِشـارةٍ فـي أمـورِ إدارةِ الشـأنِ العـام أن يَعـودَ للأصْـل، لـكلِّ شـارِدَةٍ ووارِدةٍ فـي الإصـلاحِ رَسَـمها ذلـك البَيـان الأوَّل بحِنكَـةِ العـارِف. منهـجٌ ثميـنٌ بِحُلّـةٍ ثمينـةٍ أهـداكِ إيـاهُ المُبـدِع جـورج الزعنّــي[١٣] الفنّــان المتميّــز برؤيتِــه الفكريَّــة والوطنيَّــة والثقافيَّــة.

عبداللـه الحـاج كانَ أيضًـا منهجيًّـا. والأفـكار التـي حاجَـجَ بهـا، ضَمَّنهـا برنامجًـا أعلَـنَ عَنـهُ فـي ٢١ أيـار ١٩٥١ مَـع ثمانيـة مـن زملائـه فـي المَجلـس

---

(١٣) جـورج الزعنّـي (١٩٤٢ ـ ٢٠١٥): فنـان مـن بيـروت. يحمِـل دكتـوراه مـن السـوربون (باريـس ١٩٧٢). كانَ صاحـب رؤيـة فكريَّـة ووطنيَّـة متقدِّمـة. لـه إنجـازات فـي النَّحـت والرَسـم والكِتابـة والأفـلام، ومُسـاهمات أثْـرَتْ العَمـل الثقافـي والوطنـي. عُـرفَ بـ«الأسـطورة» الفريـدة لدَعمـه الفنّانيـن وترويـج بَيـع اللوحـات، وحِمايـة الأعمـال الفنيَّـة، ودَعـم الكُتّـاب الجُـدد والنَشْـر، وترتيـب المُناسـبات الثقافيَّـة لا سـيما «مِهرجـان المكحول» خـلال فَوضـى الحَـرب الأهليَّـة وتَفَلُّـت السِـلاح والميليشـيات. عمِـلَ لتغليب صـورة التمـدُّن علـى صـورة الخَـراب. بَـرَعَ مـن خـلال مـا عُـرِفَ بـ«مُحتَـرف الزعنّـي» (رأس بيـروت) فـي تنظيـم عَشـرات المعـارض الوطنيَّـة.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

النيابــي: كمــال جُنبــلاط وكميــل شَــمعون وغســان توينــي وأنــوَر الخَطيــب وإميــل البســتاني وبيــار إدّه وديكــران توســباط. يومهــا تشــكّلَت أوَّل كتلَــة برلمانيَّــة مُعارِضــة ذاتِ برنامَــجٍ إصلاحــيٍ اجتماعــي، سُــمِّيَت الجَبهــة الاشــتراكيَّة الوطنيَّــة، وســرعان مــا غــدَت كتلَــة مؤثِــرة فــي الحيــاةِ البرلمانيَّــةِ اللبنانيَّــة، وبرغــم قلَّــةِ عــدَد أعضائهــا أَســقطت فكــرة «تمديــد الولايــة» بتحــرُّكٍ سياســي سِــلمي شــعبي (عُــرِفَ يَومَهــا بــالثورَةِ البيضــاء) أدّى إلــى اســتِقالة رئيــس الجمهوريَّــة بشــارة الخــوري الــذي لــم يتــردَّد فــي قــرارِه تَفضيــلَ السِّــلمِ الأهلــيّ ومِنعَــةِ الوطَــنِ علــى طُموحِــهِ بتَجديــدِ الولايــة. كَــم نفتقِــدُ لشــجاعةِ الرجــالِ فــي زمَــنٍ يُضحّــي فيــهِ الجَميــعُ بالوَطــن!

«كِلُّــن يَعنــي كلُّــن» هــي صَرخَــةُ الاتّهــامِ التــي دوَّت فــي ســاحاتِ تشــرين الأول ٢٠١٩ وقــد كانَــت لربَّمــا أصــدَقَ تَعبيــرٍ عــن الفَــراغِ الــذي شَــعَر بِــه ـ للحظَــةٍ صادِقــةٍ ـ أهــلُ البَلــد المفجــوع، وهُلعــوا حيــن اكتشــفوا غيــاب مَــن اعتقــدوا أنَّــه يحمِــلُ ألَمَهُــم وأحلامَهُــم فــي ســاحات القَــرار

مؤسسة دَار الجَديْد
Dar al Jadeed

والمســؤوليَّة. صرخَــة مُعبِّــرة ســتتناقلُها الأجيــال وتُغْنــي أرشــيفَ المَرحلــة.

أذكُــرُ جيــدًا أنْ يــومَ الرئيــس كَميــل شَــمعون صَديــقُ خالــي عبداللــه وحَليفُــه فــي الجَبهــة الاشــتراكيَّة الوطنيَّــة اتَّخــذ ســنة ١٩٥٨ مســارًا مُخالفًــا توجُّهــاتِ الجَبهــة التــي رشَّــحته للرئاســة فخــاضَ فــي متاهــاتِ حِلــفِ بغــداد آمــلًا بِتَجديــد ولايَتِــه الرئاســيَّة هــو أيضًــا، اِعتَــذرَ عبداللــه عــن صداقَتِــه واتَّحَــد ضِــدَّه مــع جَبهــة الاتِّحــاد الوَطنــي وبيــن أركانهــا رفــاقُ شَــمعون الســابقون: غســان توَينــي وأنــوَر الخَطيــب وكمــال جُنبــلاط وغَيرهــم مِمــن لَســت أذكُرهــم.

اِســمعيني جيّــدًا يــا ابنَتــي: الوَجَــعُ الحقيقــيُّ أن نعــرف أَصْــلَ الوَجــعِ وألّا نُكلِّــف أنفُســنا تجنُّبــه.

الســاكِتُ عــن الفَســادِ والتَّســلُّطِ شــيطانٌ أخــرس قــد لا يخلــو مــن الظَّــرفِ والبــراءة والرُقــيّ والجَمــالِ لكنــه شــيطانٌ بمواصَفــاتٍ كاملــة، قــادرٌ علــى إلغــاءِ الطَبقَــة السياســيَّة الفاسِــدة فــي صنــدوقِ الاقتــراع، وبَــدَلَ أن يُلغيهــا يَقبَــل بــأن تُلغيَــه.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

خطـابُ عبداللـه الحـاج كانَ خطيـرًا علينـا جميعًـا، نحــنُ عائلَتــه الصغيــرة ومــن حَملــوه إلــى النَــدوةِ النيابيَّــةِ مرَّتيــن:١٩٥١ عــن قضــاء بعبــدا والمَتــن و١٩٥٣ عــن بَيــروت العاصِمــة. ســمّيْتُهُ «خطيــرًا» لأنَّــه نـادى بفَصْلِ الديـن عـن الدَولـة. سـتقولين إنَّ المَقولَـةَ قديمـة، سَـبقَهُ إليهـا روّاد النَهضـةِ العربيَّـةِ فـي لبنـان والمَشـرق. لكـنَّ عبداللـه أخـرَجَ المَقولَـةَ مـن الأدبِ السياسـي، حرَّرَهـا مـن دفّـات الكتـب، أدخلَهـا إلـى البرامـج الانتخابيَّـة والمنابـرِ السياسـيَّةِ والصُحـفِ الرئيسـةِ فـي البـلاد، وحَفَرَهـا مدَوِّيَـةً فـي أرشـيفِ مَجلـسِ النـواب أولَ اقتـراح لقانـونِ الـزواجِ المَدَنــي الاختيــاري.

الأرشــيف! أعــرِفُ تَمامًــا كَــم عَنَــت لــكِ هــذه المؤسَّســة ـ المَهَمّــة فــي بدايــة حياتِــك المِهنيَّــة حيــنَ ســاهَمتِ فــي انتشــالِ مؤسَّســةِ المحفوظـاتِ الوطنيَّـة مـن دمـار الحَـرب الأهليَّـة. كُنـتِ تقوليـنَ بشَــغَفِ العــارِف إنَّ الأرشــيفَ مَحفــلُ الذاكــرةِ المُجتمعيَّـة، تشـبّهينَهُ بالمَقـامِ الـذي يُضفـي الصِـدقَ علـى المَعرفـة، منـهُ تُسـتخلصُ الوثائـقُ وفيهـا الأدلَّـة

والبيّنات، ومن الأدلّة تَظهَرُ حقائقُ تَخُصُّ الماضي. أرشيفٌ ورقيّ، أرشيفٌ إلكترونيّ، مرئيّ، مَحكيّ... منظومَة متكاملة من التَذكُّر والنِسيان أعرِفُ أنَّها تستهويكِ جدًّا رُبما لأنَّها تُحرّر، ورُبما لأنَّها تَشفي.

عندما وَقَفَ عبدالله الحاج وسمَّى الفاسدين في كورَسِ السُلطةِ الحاكمة، سجَّلَ سابِقة لا أذكرُ أنَّها تكرَّرت. ما تكرَّر لا يعدو كونه وعودًا بالقضاءِ على الفاسدينَ والمُرتشينَ وعاقدي الصفقات، وتكرُّ أحيانًا أسماءُ سارقين صِغار مَحميّين من سارقين كِبار لا أسماءَ لهُم، إلا إذا كانوا من أقرباء «راجِح» الكِذبة في المَسرح الرحباني.

ربّاه! كَم أشعرُ بالخجلِ في وطنٍ ما زالَ صوت عبدالله الحاج مدويًّا فيه بعدَ سبعينَ سنة، وما زال بلا لا ماء ولا كهرباء، ولا مَن يُجيب عن سؤالِ مُمثلٍ للأمَّة، ولا مَن يُحاسِب مسؤولًا عن عَمَلِهِ أو ما يتناولُهُ من الخزينة.

بينَ فرج الله وعبد الله

«وراء كلّ رجُل عظيـم امـرأة»، كما يُقـال. ووراء كميل شَـمعون مـود مطـران فـرج للـه[١]: سـيّدة مُجتمـع وسياسـة فـي القَـرن الماضـي وكانـت علـى جَمـال وأناقـة. يُقـال إنَّ لهـا فَضـلَ إطـلاقِ جَـذْوة شَـمعون السياسـيَّة وانطلاقتِـه وتقرُّبِـه مـن البريطانييـن. زوجَتُـه زَلفـا تابِـت، ابنـة بلـدة بحَمـدون الجَبليَّـة، كانَ لـي حَـظّ التعَـرُّف بهـا عـن قُـرب عندمـا كانـت تـزورُ بَيـت خالـي عبدالله برِفقـة الرئيـس شَـمعون، كانَـت فاتِنـة لا يُشـبَع مـن النّظَـر إليهـا. عَمِلَـت خلالَ عَهـد زوجِهـا علـى فَتـح هيـاكل بعلبَـك للمِهْرجانـات،

(١) مـود مطـران فـرج اللـه (١٩٠٩ ـ ١٩٩٥): سـيدةُ مجتمَـعٍ لَمَـع اسـمَها فـي أواخِـر خمسـينيّات القـرن الماضـي. فـي حـرم بيتهـا الأنيـق ـ الـذي أضحـى اليـوم معهـد الأبحـاث الألمانـي ـ كان الرئيـس كميـل شـمعون ورشـيد كرامـي وغيرهمـا يلتقيـان بالديبلوماسـيين الغربييـن مـن فرنسـيين وبريطانييـن.

وواكبَت نَهضَة الفنون على أنواعِها، وأسهَمَت في إحياء التُراث اللبناني.

مود الساحِرَة امتازَت بحنكتِها وعلاقاتِها السياسيَّة والدبلوماسيَّة والأمنيَّة المتَعدّدة. حاولتُ استرجاع هذه الحِقْبة من حُضور مود مطران فرج الله ابنة العائلة البعلبكيّة الإقطاعيّة وربيبة حيّ السّراسِقَة[٢]، لكني لم أجد مراجِع عنها إلّا شَذراتٍ قليلةً أبرَزها في رواية **يُمنى** للصَحافي والكاتِب سمير عطالله[٣]، لعلَّه يعرفُ أكثَرَ مما كَتبَ ونشَرَ في روايَتِه هذه.

---

(٢) سرسق: أسرة بيروتيّة أرستقراطيَّة من طائفةِ الروم الأرثوذكس. ارتبَط اسمُها بأبرز الأحداث اللبنانيَّة منذ القرن التاسع عشر. نسجت بفضل ثروتها علاقات وطيدة مع الحكّام الأجانِب من السلطنة العثمانيَّة فالانتداب الفرنسي. سكن أفرادها في بلدة البربارة (شمال لبنان) ثم انتقلوا إلى بيروت واستقرّوا في حيّ حمل اسمهم «حي السراسِقَة» (الأشرفية). أشهر مبانيه قصر الليدي كوكْرِنْ ومتحف نقولا سرسق (دمّرهما انفجار مرفأ بيروت في ٤ آب ٢٠٢٠ وترميمهما جارٍ).

(٣) سمير عطا الله: كاتب وصحافي لبناني من مواليد بيروت ١٩٤١. عمِل في صحيفة **النهار** ومجلتي **الأسبوع العربي والصيّاد** اللبنانيَّتين، وصحيفة **الأنباء** الكويتيَّة. يمزج السياسة بالأدب والثقافة بالحدَث. له أكثر من عشرة مؤلفات في التاريخ والرواية والسَفر.

قـد لا توافقيـن إذا قُلْـتُ إنَّ الرئيـس شَـمعون كانَ يحظـى بحَضانـة بريطانيَّـة ظاهِـرة، حتـى وصفـه البَعـض بـالعَميل البريطانـي. لا أقصِـد أنَّه بـاعَ بلادَه للإنكليـز أو لغيرِهـم مـن قـادَة الإفرَنـج. المشـكِلَة فـي التَسـمية هـي فـي غُلُـوِّ اسـتعمالِها حيثُ يَغلـبُ عليهـا الطابِـع «اليوضاسـي»[٤] خصوصًـا عندَمـا يتعلَّـقُ الأمـرُ بالأحـكام السياسـيَّة.

أعـودُ بـكِ إلـى مَشـروع أيزنهـاور[٥]. كانَ الرئيـسُ الأميركـيّ آنـذاك يخاطِـبُ كونغـرس بـلادِه، لا مَجلِس النـوّاب اللبنانـي، لكـنّ أذُنَـيّ الرئيـس شَـمعون كانتـا مُنصِتَتيـن فـي تلـكَ الآوِنـة. يومهـا، قـرَّر رئيـس أعتـى قـوَّة عَسـكريَّة فـي العالَـم أنَّ بإمـكان

---

(٤) يوضـاس أو يهـوذا الإسـخريوطي: تلميـذٌ خـان المسـيح وسـلَّمه لقتلتـه مقابـل ٣٠ مـن الفضَّـة، ثـم نـدِمَ علـى فعلتـه وانتحـر.

(٥) مشـروع أيزنهاور:شـرحه الرئيـس الأميركـي دوايـت أيزنهـاور (٥ كانـون الثانـي ١٩٥٧) خـلال خطبـة ألقاهـا أمـام الكونغـرس حَـول الوضـع فـي الشـرق الأوسـط.مبدؤها قـدرةُ أيّ بلـدٍ علـى طلـب المسـاعدة الاقتصاديَّـة أو العَـون مـن القـوّات المسـلَّحة الأميركيـة إذا تعـرَّض للتَّهديـد مـن دَولـة أخـرى. خـصّ أيزنهـاور فـي مبدئـه التَّهديـد السـوفياتي مؤكّـدًا التـزام القـوّات الأميركية:«تأميـن وحمايـة الوحـدة الترابيَّـة والاسـتقلال السياسـي للأمـم التـي تطلـب تلـك المسـاعدات ضـدَّ عـدوان مسـلَّح صريـح مـن أيّ أمَّـة تسـيطر عليهـا الشـيوعيَّة الدوليَّـة».

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

أيّ بَلـدٍ طلَـب المُسـاعدة الاقتصاديَّـة الأميركيَّـة أو العَـون مـن القـوّات المُسـلَّحة الأميركيَّـة إذا تعـرَّضَ لتهديـد دَولـة تابِعـة للمُعسـكر الشـيوعي. علـى المُسـتوى الإقليمـي كانَ الغَـرضُ أن يوَفّـر أيزنهـاور للأنظِمـة العَربيَّـة بَديـلًا مـن الاستِسـلام لجاذبيَّـة جَمـال عبـد الناصِـر[٦] وأن يعـزُل الـدُبَّ الروسـيَّ المؤَدلَـج شـيوعيًّا.

مـا دَخْـلُ الرئيـس شَـمعون بمتاهـات الحَـرب البـارِدَة بيـنَ الولايـات المتَّحـدة الأميركيَّـة والاتّحـاد السـوفياتي؟ هـل ظـنَّ حقًّـا أنَّ كلام أيزنهـاور حَـولَ تأميـن الوحـدة التُرابيَّـة وحِمايتِهـا، والاسـتِقلال السياسـيّ لأيّ أمَّـةٍ مُحتاجَـة للدَّعـم، يعنـي لبنـان تحديـدًا؟ أيزِنهـاوِر كانَ يصـوّبُ علـى الاتحـاد السـوفياتي مـن خلفيَّـة العُـدوان الثُلاثـي[٧] الشَّـهير وحِلـفِ بغـداد، ولـم تَخْطُـرْ ببالِـه أبـدًا مصالِـح لبنـان، ولا بالتأكيـد مصالِـح الرئيـس شَـمعون

(٦) جمال عبد الناصر (١٩١٨ ـ ١٩٧٠): راجع الهامش ص. ٤٣

(٧) العـدوان الثلاثـي (حـرب ١٩٥٦): حَـرب شـنّتها علـى مصـر بريطانيـا وفرنسـا وإسـرائيل. هـي ثانـي الحـروب العربيّـة الإسـرائيليّة بعـد حـرب ١٩٤٨، وأحـد أهـم الأحـداث العالميّـة التـي سـاهمَت فـي تحديـد مسـتقبل التـوازن الدولـي بعـد الحـرب العالميَّـة الثانيـة.

بتَجديـد ولايَتِـه الرئاسـيَّة. ولكـن رئيسًـا ككميـل شَـمعون بَلَـغ أوج شـعبيَّته بأسـلوبِه المُميَّـز وجاذبيَّتـه الشـخصيَّة وأناقَتِـه الراقيَـة، لمـاذا يقامِـرُ بـأوراق الشِّـقاق والتَفرِقـة؟ كانَـت سياسَـة لبنـان الخارجيَّـة تنطلـق مـن الحفـاظ علـى نِقـاط التـوازن فـي علاقـات لبنـان الدوليَّـة والعَربيَّـة. الحيـاد الإيجابـي (كمـا كانَ يصِـرُّ عليـه خالـي عبداللـه) تضامُنًـا مـع الـدوَل العَربيَّـة التـي علـى جامِعتِهـا أن تتمسَّـك بـه شَـكلًا ومَضمونًـا إزاء المعسْـكرَين الشَـرقي والغَربـي مـن دون التفريـط بالقضيَّـة المُحقّـة للشَـعب الفلسـطيني. فلمـاذا خَـرَقَ شَـمعون القاعِـدة الجوهريَّـة بانحيـازه إلـى المعَسـكر الأميركـي مُلحِقًـا لبنـان بمَشـروع أيزنهـاور مُنتَهِجًـا سياسَـةً تعـادي الناصريَّـة التـي كانَ يؤيدُهـا قِسـمٌ كبيـرٌ مـن اللبنانييـن؟

هـل وقَـعَ شَـمعون ضَحيَّـة الدَولـة العَميقـة التـي غالبًـا مـا كانَـت حسـاباتُها مختلِفَـةً عـن حِسـابات الدَولـة التقليديَّـة؟ الـدوَل العَميقَـة دوَلُ أقبِيَـةٍ ومصالِـحَ غيـر مرئيَّـة تَخـدُم أهدافًـا أبعَـدَ مـن

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

الاســتراتيجيّات وأقــرَب إلــى حِمايَــة الكارتيــلات الماليَّــة والدينيَّــة، فــي أقبيتهــا تُنسَــج علاقــات غريبَـة عَجيبَـة وتُعقَـد صَفقـاتٌ لا تَخطُـر ببـال، فيهـا يتقَــرَّر الاغتيــال السياســيّ والانقِــلاب العَســكريّ وكل مـا يحمِـل طابَـع المؤامَـرَة الكُبـرى والحُـروب الصُغــرى.

شُــهرَةُ الرئيــس شَــمعون والكاريزمــا المُضافَــة إلــى هالَتِــه الرِئاســيَّة، ومَتانَــة علاقاتِــه الدوَليَّــة، وقُربُــه مــن الإنكليــز تَربيَــةً وثقافــةً، مظاهــر تجعَلُنــي أســتَنتجُ، افتراضًــا، أنَّــه كانَ علــى تَمــاسٍّ مــع الــدولِ العَميقَــة، ربمــا ظنًّــا منــه أنَّ التماهــي مَعَهــا ومُجاراتَهـا يشـكِّلان مَدخـلًا لترسـيخِ حضـورِه وولايَتِـه وربّمـا تجديدهـا بمأمـنٍ عـن تفاصيـل حَيـاة الـدوَل التقليديَّــة. وافتراضًــا كذلــك، أعتَقِــدُ أنَّ شَــمعون وقَـعَ ضَحيَّـة الدَولـة العَميقـة، وطموحـات البَعـض بالعالميَّــة. مَعَــهُ وقَــعَ لبنــان مَــرَّة أخــرى فَريسَــة المعــادَلات الدوليَّــة.

تسَلسُــلُ الأحــداثَ فــي تلــك الفتــرَة يُســبِغُ شــيئًا مـن المَنطِـق علـى فَرضيَّتـي: رَفَضَـت سـوريا ومَصـر

مشـروع أيزنهـاور، بينمـا فـي لبنـان مَبعـوثُ الرئيـسِ الأميركــي الخــاصُّ جيمــس ريتشــاردز[٨] أجــرى مُحادثـاتٍ مـع الرئيـس شَـمعون بمُشـاركة وتسـهيل وزيــر الخارجيَّــة شــارل مالــك[٩] انتَهــت بإعــلان بَيــانٍ مُشــتركٍ يؤكّــدُ رَغبــة الطرَفَيــن فــي التعــاون ضمــن إطــار مَشــروع أيزنهــاور. وهكــذا، بَــدَل أن يَصــرِفَ الطَــرَفُ اللبنانــي الوَقــتَ فــي بنــاء دَولَــة إصــلاحٍ وحَوكَمَــة وشــفافيَّة وعدالــةٍ اجتماعيَّــة، راحَ المســؤولونَ الواحِــدُ تِلــوَ الآخَــر، مــع اســتثناءاتٍ قليلـة، يتَلَهّـونَ بالخطـط الآيِلَـة إلـى تَجديـد عُهودِهِم أو تأكيــدِ سَــطوةِ طوائفِهــم وحِصَصِهــا.

---

(٨) جيمــس بريولــو ريتشــاردز (١٨٩٤ ـ ١٩٧٩): محــامٍ وقــاضٍ انتخــب عضــوًا ديمقراطيًّــا فــي الكونغــرس عــن ولايــة كارولينــا الجنوبيَّــة. شــغل منصــب المســاعد الخــاص لشــؤون الشــرق الأوســط للرئيــس الجمهــوري دوايــت أيزنهــاور.

(٩) شــارل حبيــب مالــك (١٩٠٦ ـ ١٩٨٧): سياســي ودبلوماســي ومفكّــر لبنانــي. كان العربــي الوحيــد المشــارك فــي صياغــة الإعــلان العالمــي لحقــوق الإنســان (كانــون الأول ١٩٤٨) بصفتِــه رئيــس المجلــس الاقتصــادي والاجتماعــي التابــع للأمــم المتّحــدة. وزيــر الخارجيَّــة اللبنانيــة (تشــرين الثانــي ١٩٥٦ ـ أيلــول ١٩٥٨) ووزيــر التربيــة والفنــون الجميلــة (تشــرين الثانــي ١٩٥٦ - آب ١٩٥٧) فــي حكومــة ســامي الصلــح فــي عهــد الرئيــس كميــل شــمعون. تــرأس الجمعيَّــة العامــة للأمــم المتّحــدة بيــن ١٩٥٨ و١٩٥٩. ســاهم إبــان بدايــات الحــرب الأهليَّــة اللبنانيَّــة فــي تأســيس «الجبهــة اللبنانيَّــة» وكانَ مــن أبــرز منظِّريهــا.

توجَّسَ الرئيس شَمعون من تسونامي عبد الناصِر وقرأَ فيه رَسائلَ عِدَّة أهمُّها وصولُ الأمواجِ والأفواجِ الناصريَّة إليه. عبد الناصِر شكَّلَ جرّافةً شعبيّةً حقيقيَّة للأنظِمة العَربيَّة في الخمسينيّات وكانَ مَصدَر قَلَقٍ للمنطقة لا للرئيس شَمعون وحدَه، وبالأخصّ بَعد أن تحوَّلَ حُلمُ العالَمِ العربيّ الاتحاديّ إلى واقِعٍ ملموسٍ مع الجُمهوريَّة العَربيَّة المتّحدة[١٠] التي ضَمَّت مَصر وسوريا.

لم تكُنِ الساحَةُ المسيحيَّة مُطوَّبَةً لشخصٍ أو أحاديَّة أو مرجعيَّة وحيدَة، وقرارُ الرئيس شَمعون بالتَّوجُّهِ غَربًا لم يحظَ بموافقَةِ بَطريَرك المَوارِنَة مار بولس بُطرس المعوشي[١١]. تَماهى

---

(١٠) الجمهوريَّة العربيَّة المتّحدة: اتّحاد سياسيّ بين سوريا ومصر (١ شباط ١٩٥٨) أُعلن رسميًا في ٢٢ شباط ١٩٥٨؛ مثّلت سوريا الجناح الشمالي للجمهوريَّة العربيَّة المتّحدة، ومصر جناحها الغربي. عاصمة الدولة القاهرة ورئيسها جمال عبد الناصر. ألغيَت الجنسيّتان السوريَّة والمصريَّة وحمل سكّان سوريا ومصر جوازات الجمهوريّة العربيّة المتّحدة.

(١١) بولس بُطرس المعوشي (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥): البطريرك الماروني الرابع والسبعون (١٩٥٥ حتَّى وفاته). أوَّل بطريرك ماروني يحمل لقب «كاردينال». لقّبه البطريرك بشارة بُطرس الراعي عام ٢٠١١ خلال عِظَة تَوَليه السدّة البطريركيَّة: بـ «بطريرك الانفتاح بحكمة على العالَمين العربي والغربي». كانَ موقِفه كموقِف سَلَفِه البطريرك عريضة مؤيدًا

المعوشـي مـع عبـد الناصِـر وجَنَـحَ نَحـو مُحالَفتِـه فـي رؤيتِـه للقضايـا العربيَّـة وعلـى رأسِـها القضيَّـة الفلسـطينيَّة. هكـذا يُمكـنُ فَهـمُ الخُصومَـةِ بَيـن المعوشـي وشَـمعون. الأوَّل مَقدسـيّ[١٢] الهَـوَى، والآخـر مُتَمـاهٍ مـع المشـروعِ البريطانـيّ الـذي بـارَكَ وَعْـد بَلفور[١٣].خُصومَـةٌ فقطيعَـةٌ حَتَّـى قيـلَ: «بإيـام شَـمعون طِلـع الحَشـيش عَ دراج بكركـي».
فبيـن بَطْـرَك العَـرب والرئيـس المتَفرنـج وضعـت الحـرب لبنَتَهـا الأولـى فـي البُنيـان اللبنانـي مسـتحضرةً معهـا عـدَّة الدمـارِ والقتـلِ والتَّهجيـرِ والتَّشـريد.

فترتئـذٍ لـم أكـن بلغـتُ سـنّ الرُشـد فلـم أعِ أنَّ جنـود المارينـز (القـوّات البحريَّـة الأميركيَّـة) الذينَ اسـتَعانَ

اسـتقلال لبنـان مـع تعـاون وانفتـاح علـى الشـرق. وكسـلفه عـارض الانتـداب الفرنسـي علـى سـوريا ولبنـان.

(١٢) جانِـح فـي ميولـهِ نحـوَ القـدس فـي فِلسـطين المحتلَّـة ومناصِـر قضيَّتِهـا.

(١٣) وَعْـدُ بَلفُـور أو إعـلان بَلفُـور: بيـان الحكومـة البريطانيَّـة فـي الحـرب العالميَّـة الأولـى لدعـم تأسـيس «وطـن قومـيّ للشـعب اليهـوديّ» فـي فلسـطين.

بِهـم الرئيـس شَـمعون يشـكّلونَ تدخّـلًا إمبرياليًّـا[١٤] وتَعدّيًـا سـافِرًا علـى سـيادَتنا الوطنيَّـة. كُنـت فـي بَيتِنـا فـي الغبيـري يـوم سَـمِعتُ وَقـعَ أقـدامٍ قَويَّـةٍ مَصحوبَـةٍ بِهديـرٍ وأصـواتٍ وهَمهمـاتٍ فـي الشـارِع. سـارَعتُ إلـى حَديقَـةِ مَنزِلِنـا فرأيـتُ مَجموعَـة مـن المارينـز[١٥] تَعْبُـرُ الشـارِع بَعدمـا نفَّـذَت إنـزالًا علـى شـاطئ الأوزاعـي ووَصلَـت إلينـا مـن جهـة الشـياح بمُحـاذاة كَنيسَـة مـار اليـاس. كنـتُ فـي وضعيَّـةٍ أقـربَ إلـى التَّهليـل العَفَـويّ منهـا إلـى التأهيـل، للابتِسـامةِ الطفوليَّـةِ السـاذَجةِ التـي تزَيّـن بـزَّة الجُنـدي الأميركـي ولسِـحر القـوَّة. التّهليـلُ مواكَبَـةً للجَـوّ الصاخِـبِ ومُسـايَرَةً للضَجيـجِ بمِثلِـه. لـم يَقطَـع تَهليلـي سِـوى صـوتِ شـقيقي فَضْـل نادانـي مـن غُرفَتِـه. ظنَنـتُ أنـه، وهـو المَريـض فـي رئتيـه، يطلبُ خِدمَـةً أو يسـألُ حاجَـة، هـو السـاكن روحـي بحُبِّـه

---

(١٤) الإمبرياليَّـة Imperialism: الحُكـم والسَـيطرة علـى أقاليـمَ كبيـرة، وسـعي دولـةٍ لتوسـيع سـلطتها وتأثيرهـا عبـر الاسـتعمار العسـكري والثقافـي والسياسـي واسـتخدام القـوَّة العسـكريَّة ووسـائل أخـرى. ويمكـن تعريفهـا بهيمنـة اقتصاديَّـة وعسـكريَّة وسياسـيَّة لدَولـة علـى دَولـة أخـرى. لعبـت الإمبرياليَّـة دورًا كبيـرًا فـي تشـكيل العالـم المعاصـر، وأتاحـت انتشـار الأفـكار والتقنيـات وأسـهمت فـي تشـكيل عالـم أكثـر عولمـة.

(١٥) قوّات مشاة بحريَّة الولايات المتّحدة الأميركيَّة.

ولُطفِـه وإنسـانيَّتِه. هَرَعـتُ إليـهِ أسـتوضِحُ طَلَبـهُ فعاجَلَنـي بِصَفعَتَيـنِ وأمطَرَنـي بوابِـلٍ مـن كلِمـات اللـومِ علـى تهَليلـي الطُفولـيّ بِقـدومِ الإمبرياليَّـة وغزوَتِهـا إيانـا. ومـا زِلـتُ أذكُـرُ بيـن مـا قالَـه: «علـى شـو مَبسـوطَه»؟ كان شَـقيقي الثائـر يُعانـي مرَضًـا رئويًـا (قضـى عليه سـنة ٢٠٠٨). أسَّـس مكتبًـا لتدقيق الحِسـابات فـي بيـروت بَعـد أن اسـتقال مـن وظيفـةٍ مُعتبـرة فـي دائـرةِ ضريبـةِ الدَخـلِ فـي وزارَةِ الماليَّـة حيـثُ عَمِـل سـنتَين لـم يسـتَطع خلالهمـا التأقلُـم مـع «جَـو الوظيفـة». كانَ حـادًّا كالسَـيف فـي تطبيقِ القانـون، رافضًـا كلّ مُمارسـةٍ غَيـر أخلاقيَّـة تُسِـيئُ إلـى مَفهـومِ الدَولـة والخِدمـة العامَّـة، وهـوَ جـرَّب حَظَّـه سـابقًا مدرِّسًـا فـي التَعليـمِ العـام فـي منطَقَـة الجنـوب التـي أفقَرَهـا التسـلّطِ والإقطـاع. هُنـاك أيضًـا لـم يَسـتطِع «التأقلُـم مـع الجَـو». أذكُـرُ حادِثـةً ردَّدهـا كثيـرون ولا يعرِفـون أنَّـهُ بطلُهـا: اسـتَدعاه أحمَـد الأسـعَد فَـورَ تعيينِـه مدرِّسًـا، وعَـرَضَ عليـه أن «يقبَـضَ مَعاشـه وهـو مُرتـاحٌ فـي بَيتِـه دونَ حاجَـةٍ أن يُرهِـقَ نَفسَـهُ بتَعليـمِ أولاد الجنـوب». وحيـنَ سـألَهُ المـدرّس الشـابُ فَضْـل الحـاج كَيـفَ يتعلَّـمُ

التلاميـذ جـاءَه الـرَدّ الشَهير:«ولَشـو بَدهُـم يتعلّمـو يـا أسـتاذ، مـا ابنـي كامِـل معلَّـم»[16].

عبداللــه الحــاج وأولادُ شــقيقته الحَبيبــة وغَيرُهــم تعلَّمــوا، واكتَشَــفوا آلافًــا مِثلَهــم يَحلَمــون بالعِلــمِ ويُمنَعــون عَنــه كلَّ يَــوم. الفَقــرُ والظُلــمُ والإقطــاعُ والتَّعصُّــبُ الأعمــى تمَترَسَــوا بَينَهــم وبَيــن أحلامِهِــم بالتحــرُّر والانعِتــاق. ولكــن مــا العَمَــل؟ يزيدونَهــم فقــرًا عَــوَزًا ويأْسًــا ويخبرونهــم عمّــن «يَتعلَّــم عَنهــم»، و«يدافِــع عَنهــم»، و«يَعمَــل مــن أجلِهــم». يُقْنِعونَهــم بالصَبــرِ والرِضــا، يُرضونَهــم بأحــلامِ عَظَمــة، ويعظّمــون وفاءهــم لبؤسِــهم، فيَمضــي العُمــرُ بَيــن مــرارةٍ وشَــقاءٍ وقَناعــة تُفنيهــم «نقطــة ورا نقطــة»، تمامًــا كحَفــرِ الحَجَــر.

عبداللــه كانَ مَحظوظًــا. أهدَتــهُ الحيــاة مسـتر دودج. الآلافُ مــن أصدِقائــه وأترابِــه فــي الوَطَــن فتَّشــوا

---

(١٦) كامـل الأسـعد (١٩٣٢ ـ ٢٠١٠): إقطاعـيّ لبنانـي. رئيـس مجلـس النـواب السـادس بعـد الاسـتقلال لثـلاث مـرات. مجمـوع فتـرة رئاسـته: ١٤ سـنة و٩ أشـهر. هـو مـن عائلـة سياسـيَّة بـارزة. والـده أحمـد الأسـعد سياسـي تـرأّس مجلـس النـواب وتولّـى عـدة وزارات. جـدّه عبـد اللطيـف الأسـعد كان نائبًـا فـي المجلسـين النيابييـن الأول والثانـي. عـارض الانتـداب الفرنسـي.

عـن مسـتر دودج ولـم يجِـدوه. وَجـدوا عِوَضًـا عنـه «مسـتِر» آخَـر يحـبُّ أن يسـمَعَ كلِمَـة «مسـتر» تخـرجُ ذليلـةً مـن حناجِـر الأتبـاع والأزلام حتَّـى يتَرسَّـخَ الإقطـاعُ وينمـوَ كالسَّـرطانِ فـي الجسَـدِ الهَزيـل. مئـات مـن عبداللـه الحـاج تـمَّ اغتيالهُـم باسـمِ الرَغيـف والـدَواء والتَّعليـم، وكان عبداللـه الحـاج نَموذَجًـا مَعـزولًا، وصَوته كانَ للأسَـفِ الشّـديدِ صَوتًـا فـي بريَّـة.

لشَـقيقي فَضْـل منزلـة خاصّـةٌ فـي وجدانـي. قـوَّةُ الرابـطِ بيننـا غالبًـا مـا تذكّرنـي بمـا كانَ يجَمَـع بَلقيـس وعبداللـه. وجـعٌ مُزمـن يصيبُنـي مـن فُقـدان شِـقّ الـروح. لَعِـبَ فَضْـل دَورًا كبيـرًا فـي حياتـي وفـي حياتِكـم أنـتِ وإخوَتِـك. كان لكـم خـالًا برُتبَـةِ والِـدٍ إلـى جانِـبِ أُبُوَّتِـهِ لابنَتِـه الوَحيـدَة. كانَـت روحُـهُ الثائـرة وعزيمَتُـه الصَّلبـة متجسِّـدتين فيكـم، وكـذا عمـقُ التزامِـه وجرأتِـه وإقدامِـه. مـا كان يمـرُّ يـومٌ واحِـدٌ إلا ويسـأل عَنكـم. كانَ رَجُـلًا عِصاميًّـا، ثبَـت علـى مبادئِـهِ وقَناعاتِـه السياسـيَّة فلـم يَحِـد عَنهـا رغـم إغـراءاتٍ وتغَيُّـراتٍ وتحـوُّلاتٍ كَبيـرَةٍ

ألمَّت بالأنظِمَة خلال العَقد الماضي من تاريخِنا السياسي.

ولئِن كانَ خالي النائِب عبدالله الحاج قياديًّا بارزًا في العَملِ النيابيّ، فلا بُدَّ، إنصافًا لفَضْل، أن أذكرَهُ مَع أعلامٍ كبارٍ في الحزب الشيوعي اللبناني: جورج حاوي وكريم مروّة وغسان الرفاعي وخليل الدبس وجورج بطل ونديم عبدالصمد وحسين حمدان ورهيف فياض وخليل نعّوس وسواهم مِمَن أُطلِقَت عليهم تَسمِيَة «الشباب» لأنَّهم أوَّل مَن بدأ المُناقشةَ الفكريَّة السياسيَّة التَّنظيميَّة في الحزب سنة ١٩٦٤، وكرَّسوا استقلاليَّتَهُ عن الحِزب الشيوعي السوري وعن الالتحاق الأعمى بالقيادة السوفياتيَّة. «لَبنَنوا» الحزب وعانوا من قيادةٍ حزبيَّة كانَت تُؤْثِر الانصياعَ والتبعيَّة للأنظِمة البوليسيَّة وسْط عَدَمِ اكتراثٍ شِهابيّ بِما كانَ يَحصَل، بلغ حدَّ عرقَلَةَ «الشباب» دونَ أن تَشفَعَ الصّداقَةُ بين الرئيس فؤاد شهاب وخالي عبدالله وخالي عَلي (زميل شهاب في الكليَّة الحربيَّة ـ إسطنبول).

ذات فترةٍ كانَت للأحزاب اليساريَّة والقوميَّة وحزب

البَعــث[١٧] مشــاريعُ سياســيَّة واجتماعيَّــة وقوميَّــة. فكـرَة العُروبَـة بـانَ مَعدِنُهـا مـع إفـلاسِ الأحــزابِ المنظِّـرة للقوميَّـة العربيَّـة. بَقـيَ للحـزب الشـيوعي، بَعـد انطـواءِ عَهـدِه الذهبـيّ، رصيـدٌ خجـولٌ مـن نوسـتالجيا مبَعثـرَة، ولـو أنَّ هامـاتٍ كبيـرةً ظلّـت قـادِرة علـى التَسَـلُّل إلـى الحيـاة العامـة مـن خـلال عناويـنَ اجتماعيَّـة جامِعـة.

الحقيقـةُ المـرَّة أنَّ مشـاريعَ حزبيَّـةً غَيـرَ مذهبيَّـةٍ كانَ يُمكـن أن تشـكِّلَ تُربـةً خَصيبـةً لأحــزاب عَلمانيَّـة، أفْلَسَـت ولـم تبـقَ منهـا برامـج مُقْنِعـة. والمُنـادون بالدولـة المدنيَّـة الديمقراطيَّـة (خصوصًـا مـن الطائفـةِ الشـيعيَّة حيـثُ بنـى الحـزبُ الشـيوعيُّ نواتَـهُ الصَلبـة يومًـا) أخـذوا فـي غالبيَّتهـم يصَوّتـون

(١٧) حـزب البعـث العربـي الاشـتراكي: أسسـه فـي سـوريا ميشـال عفلـق وصـلاح البيطـار وزكـي الأرسـوزي. تبنـى مفهـوم البعثيَّـة («النهضـة» أو «الصحـوة»): خليـط إيديولوجـي مـن القوميَّـة العربيَّـة والوحـدة العربيَّـة والاشـتراكيَّة العربيَّـة والإمبرياليَّـة. تدعـو البعثيَّـة إلـى توحيـد الوطـن العربـي فـي دولـة واحـدة. شـعار الحـزب «وحـدة، حريَّـة، اشـتراكيَّة»، مبـادئ ترمـز إلـى الوحـدة العربيَّـة والتحـرّر مـن السـيطرة والتدخـل غيـر العربـي.

لأحـزابٍ مذهبيَّـةٍ أبرزهـا حـزب اللـه[١٨] تحـتَ شِـعارِ مقاومـةِ العـدوّ.

غُربَتـي الذاتيَّـة مَردُّهـا رَفضـي دَفـنَ الإرثِ الـذي ترَكَـهُ خالـي عبداللـه وخـالاكِ فَضْـل وابراهيـم. الأوَّل تـركَ إرثًـا عَلمانيًّـا والحُلـمَ بدولَـةٍ مدنيَّـةٍ صـاغَ أسـلوبَ حياتِـه، فـكان أوَّل مَـن اقتـرَحَ فـي مجلِـس النـوَّاب مَشـروعَ قانـونِ الأحـوال الشـخصيَّة فـي لبنـان علـى قاعِـدَةٍ غيـر طائفيَّـة، وتركَّـز نِضالُـهُ علـى هـذا المَشـروع فـي دَورَتَيـن انتخابيّتيـن (١٩٥١و١٩٥٣). أمـا خـالاكِ فَضْـل وإبراهيـم فتَـرَكا إرثًـا علـى شـكلِ نتـاجٍ فِكـريٍّ دونَ أن تَنطفـئ فـي قلبَيهمـا جُـذوةُ العِلـم والدَولَـة المدنيَّـة والعدالَـةِ الاجتماعيَّـة.

لا أبالِـغُ فـي مَـدحِ الأوَّل إذا قلـتُ إنَّـه كانَ جـزءًا مـن الدَولَـة رافِضًـا أن يَكـونَ جـزءًا مـن السـلطَة. رَفَـضَ عبداللـه الحـاج التوريـثَ السياسـيَّ والتلاشـي الأخلاقـي أمـام مُغرياتهـا. لَـم يُكـدِّس سـوى ثَـروَة

(١٨) حـزب اللـه: حـزبٌ سياسـيٌّ ـ عسـكريٌّ شـيعي يوالـي ولايـة الفقيـه والجمهوريـة الإسـلامية الإيرانيـة.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

السُــمعَة. ولــم يتعبَّــد، بعــدَ تعبُّــدِه للــه، سِــوى للمَصلحَــة العامَّــة.

أُنْظُـري اليَـومَ إلـى حـالِ معظـم رجـالِ السياسَـةِ فـي لبنــان: سُــلطاتٌ تَنتَقِــلُ مــن الجَـدِّ إلــى الأبِ إلــى الحَفيـدِ فـي حرَكِـةٍ تسـتَولِدُ التقليـدَ البائِـد مـن دونِ خَجـلٍ، ثـم انظـري إلـى عبداللـه الحـاج الـذي كانَ أبًـا لثلاثَـةِ أولادٍ لـم يقـرُب أحـدٌ منهـم دُنيـا السياسَـة.

متـى يـزورُ أحلامَنـا الوطنيَّـة أمثـالُ عبداللـه الحـاج؟ متـى يتحَقَّـق حُلمنـا بدَولـةٍ مدَنيَّـةٍ حضاريَّـةٍ ترعـى بالعَـدل والقُسـطاس حقـوقَ مواطِنيهـا؟

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

«تطلي سِرْت» أو لُفافة ديوجين

سـألتْني ليلـى: «هَـل تعلَميـن أنَّ أكثـر الجامِعـات العَريقَـة ينقُصُهـا اختِصـاصٌ لَـم تعرِضْـه أَيٌّ منهـا فـي لائحـةِ الاختِصاصـاتِ لديهـا؟» وأردَفَـت دونَ أن تُعطيَنـي فرصَـةَ تفكُّـر: «إجـازَةٌ جامعيَّـة فـي فـنِّ النّقـاشِ والتحـاور، لا بـأسَ أن تتطـوَّر إلـى ماجسـتير تَخاطُـبٍ فدكتـوراه».

كانَـت تنتَظِرُ علامَـةَ الاستِفهامِ علـى وَجهـي وزيـادةً فـي التَطميـنِ أضافَـت: «طبعًـا تعرفيـن قصَّـةَ ديوجيـن الـذي كانَ يَجـوبُ الشـوارِعَ تحـتَ «طقَّـةِ الشـمس» حامِـلًا فانوسَـهُ ومُطْلِقًـا عِبارَتـهُ الشَّـهيرة: «أفتّـشُ عَـن إنسـان!»

أتـوقُ إلـى أزمنـةِ النِقـاشِ ولغَـة لا تَعـرفُ المَتاريـس. مشـكلَتُنا فـي الحَقائـقِ المُعلَّبَـة: مَنظومـاتٌ مُنَمَّطـة تَعـرِفُ مـن أيـنَ تبـدأ وإلـى أيـنَ تَنتهـي. المُجتَمـعُ

لا يتطـوَّر إن لـم يكـن مفتوحًـا علـى الاحتِمـالات، فيُعيـد إنتـاجَ ذاتِـه بمَلـل. لا بِـلاد مُزدَهـرةً بـدون انفتـاحٍ ومواجَهَـةٍ شُـجاعةٍ مـع الأصوليـاتِ المُتحكِّمـةِ الحاكِمـة، ماديَّـةً كانـت أو مَعنويَّـةً أو دينيَّـة.

طَبـعُ ليلـى الثَورجـي يَتسـلَّل إلـى أقـوالٍ وأفعـالٍ مـن بِنـتِ الثَمانيـن بعينيهـا الفتيَّتيـن. ليلـى التـي لـم تَعتَـب عليهـا مُظاهَـرة ولـم يَفُتْهـا اعتصـام. عاشَـت حياتَهـا كمـا تُحِـبّ. اِختَزَلـت علـى طريقتِهـا أرشـيفًا حيًّـا عَـن البَلـد وشـؤونِ سـكّانِه وأوجاعِهـم المُسـتمرَّة. مئـاتٌ مـن التظاهـرات مَشَـت فيهـا ليلـى. ردَّدت الشِـعارات التـي اقتنعَـت بهـا. غَنَّـت لشُـعراء النِضـال الذيـن انتَقَتهـم «عَ الطَبليّـة» مِمـن قَرَنـوا القَـول بالفِعـل وفـق مـازورَةِ قيـاسٍ مـن صُنـع مبـادئ عاشَـت علـى ضيائهـا. لـم تَسـتحِ يومًـا مـن انتِقـادِ مَـن سـاوَم أو ماطَـل أو «مَشـى أعـوَج». لَـم تَحمِـل يومًـا عَلمًـا ملوَّنًـا إلا بألـوان قيَمِهـا. عَلَـمٌ واحِـدٌ وَرِثَتـهُ عَـن خالِهـا.

تَنظُـر إلـيّ ولا تَرانـي. تُشـعِل لفافَتَهـا وتُـردِف: «المُعلَّـب يكـون داخِـل عُلبَـة وغالِبًـا يأخـذُ شَـكلَها. اِفتَحـي علبَـةً تَـرَي مـا تسـتَوعِبه فَقـط لا غَيـر. هَـل

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

نَستطيع أن نفكّرَ خارِج العُلَب؟ هَل نَستطيع أن نَكسرَ طوقَ المنازِل؟

في اللُغة الإنكليزيَّة ما يُشيرُ إلى ذلك عِندما يُطلَب من المُتلقِّن أن يُفكِّرَ خارِج العلبَة أي «آوت أوف ذي بوكس» كما تَقولُ يُمنى حَفيدتي «تُقبُرني». مَتى نَجِدُ في العربيَّة مُرادِفًا يُسعِفنا في الخُروج من العُلَبِ والأنماطِ المَرسومَةِ سَلَفًا؟

في بَيتِ بَلقيس عِشتُ هذه اللغَة الخارِجَة عن التَعليب وتَدرّبَت حَنجُرتي عليها. ساعَدَنا في ذلك والدان منفَتِحَان وخَمسة أشقّاء وشقيقتَانِ لي أدمنوا فنونَ الجِدالِ والنِّقاش. كانوا يشبِهونَ سِوارًا من أحجارٍ كَريمَة، مُختلِفَة في اللونِ متَّحِدَة في هُويَّة المَصوغ!

كلُّ القَمحِ الفِكري في بَيتِنا كانَ مَدروسًا على بَيدَر الفِكْرِ اليَساري، يَتشَمَّس على حَرارَةِ أحلام خالي عبدالله، النائب الذي استلَّ صَوتَهُ من بُحَّةِ شَعبِهِ حينَ دخَلَ الندوةَ النيابيَّة سنة ١٩٥١ نائبًا عن قَضاء بعبدا، وبَعدها سنة ١٩٥٣ نائبًا عَن العاصِمة بيروت. «نائبُ الشعبِ الكادح»

الـذي مَحَـت دَورَه ذاكِـرةٌ سياسـيَّة أصابهـا أَلْزهايمـر شــطب اســمًا مــن القَيــد الوَطنــي، فيَتــردّد حينًــا ويَختفــي عَــن ضَميــر الحَيــاة السياســيَّة... لا فــارِق فــي الاغتيــال!

تلــك اللغــةُ التــي طالمــا سَــمِعتُها تَــتَرَدد فــي بَيتِنــا عَســى يَكــون لهــا أرشــيفٌ فــي مَجلــس النــواب. قــرأتُ فــي الصُحُــف أنَّ مُجمَــل حِــوارات المَجلِـس الداخليَّـة والسـريَّة باتَـت مَحفوظَـة علـى أســطوانات بفَضــل درايَــة أمينــه العــام الدكتــور عدنــان ضاهــر، وأنَّ عَمليَّــة نَقــلِ الداتــا المُهمَّــة انتهَـت، وأصبَـح النِّظـام الرقمـي يتيـح عَـودَةً إليهـا مهمَّــةً لأنَّهــا تَــكْشِفُ مــا قبــلَ الأحــداث والتعليــقَ عليهـا والتحذيـرَ منهـا. فيـا حبَّـذا لـو تكـون مُتاحـةً للنــاس علــى رابِــط إنترنــت لأمثالــي مــن مُدمنــي القـراءة والــسَمَاع، ولـو تكـون التَسـجيلات الصَوتيَّـة مَوجــودة، لــكانَ سَــمِعَ شــبابُ لبنــان وشــابّاتُه حقائِـق مَطويَّـة يحتاجونَهـا ليَخلعـوا عَنهـم أوهامًـا كثيــرة نشــأُوا عليهــا فيبنــوا وَعيهــم الوَطنــي علــى قاعِـدة الحَقائـق التاريخيَّـة. حقائـقُ تُحـرِّر ورُبمـا

تَشـفي. أتمنّـى أن تُكشَـفَ يومًـا للباحثيـن وعُلمـاء السياسَـة والمؤرخيـن ومؤلّفـي كُتُـب التاريـخ المفقـودة «عمـدًا» مـن المناهِـجِ التربويَّـة.

تأخـذُ مجَّـةً مـن سـيجارتِها الأنيقـة. ترمُقُنـي بنظـرةٍ جانبيَّـة وتُتابِـع: «هَـل تَعلميـن كَـم مـرَّةً شَـكَت لـي ابنَتُـكِ منهـج دراسـتِها؟ تقـولُ مُحتـارَةً إنَّهـا لا تَجِـدُ فـي كُتُبهـا أثـرًا لمـا أخبِرُهـا إيـاه. «الكُتـب تَكـذِب يـا تيتـا». أليـس إخفـاءُ الحَقائـق أو بَعضهـا كَذِبًـا؟ تأتـي إلـيَّ، تَرمـي علـى كاهِلـي قَلقَهـا لأنَّ زُملاءَهـا وأصدِقاءَهـا فـي غُربَـةٍ عمّـا باتَـت هـي تدرِكُـه بحُكـمِ الانتِقـال. الحُـزنُ يتسـلَّل مـن عينـي شـبابِها وغُصَّـةُ يُتـمٍ كافيَـة لإشـعالِ ثـورَة. تحـاولُ أن تكتُمَهـا عَنّـي بـدونَ قَناعـة. شـعورٌ غامِـضٌ بالانقطـاع عـن مواطَنـةٍ وهويَّـةٍ جامِعـة يجتـاحُ اللحظـة.

يؤلِمُنـي حُـزن يُمنـى! كَـم تحتـاجُ هويَّتنـا المُلغـاة عَمَـلًا أنتروبولوجيًّـا سياسـيًّا تاريخيًّـا سوسـيولوجيًّا مؤسِسًـا جوهـرَ الهويَّـة، خصوصًـا أحـداث عقْـد ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠، وهـي فَتـرةٌ أسَّسـتْ تَغيّـراتٍ هَـزَّت

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

الكَيـان. كَـم يُفيـد اليـومَ التَنقيـبُ فيهـا لكَشـفِ أسـرارٍ وكَسـرِ أوهـامٍ وبنـاءٍ مُشـتَرَك!

أُفٍّ! اسـتطرَدنا كثيـرًا. لنَعُـد إلـى ثَقافَـةِ النِقـاشِ والعَصـفِ الفِكـريّ يَـومَ كانَ فِكريًّـا، وبالأخَـصّ فـي المَجلـسِ النيابـي. ثَقافَـةُ الحِـوار زَمـنَ تلاقُـح الأفـكارِ فـي أواسِـط القَـرن الماضـي، كانَ فيـه نـوعٌ مـن الرِفعـة والبَيـان حتَّـى فـي أوج الخِـلاف. مدهـشٌ كيـفَ كانَ النـاسُ يتناقَشـون. كانـوا يُلِمّـون بِقواعِـد الارتبـاط، ولـم يكـن فـي بـالِ أحـدٍ أن يتخطّاهـا إلـى حيـثُ الانـزلاقُ إلـى المتاهَـة. حـراكٌ أختصِـرُه فترتئـذٍ بِمَفهـومِ «إدارَة الهُويَّـة». وَعـيُ الـذاتِ عبـرَ الآخَـر. مُحاولَـةُ ملاقاتِـهِ إلـى المشـتَرَك. هـذا مـا تَتمخَّـضُ عَنـه إرهاصـات إدارَة الهُويَّـة فـي زَمـنِ البِدايـات.

عبداللـه الحـاج كانَ أحَـدَ أركانِ هـذه الإدارَة الداخليَّة للـذات الخاصَّـة والعامَّـة عَلـى حَـدٍّ سَـواء، لكـن بدونِ موارَبـةٍ أو تمَلُّـقٍ أو مُصانَعـة. صَريـحُ الأقـوالِ صَريـحُ الأفعـال. لـم تسـتَهوه قواعِـدُ الإنشـاءِ فـي قامـوسِ السِّياسـةِ البَرلمانيَّـة فاختـارَ الخُـروجَ علـى لغَتِهـا

ومُفرداتهـا ولَـم يتقيَّـد بتقاليدِهـا ولا بلباسِـها. كانَ بَسـيطَ المظهَـرِ بَسـيطَ الهِنـدام. سـيكارَتُه الشـعبيَّة «تَطلـي سِـرت غَليـظ»[1] لا تفـارِقُ شـفَتَيه. مـادّةٌ خـام بنَكهـةِ الفِجـلِ والباذِنجـان فـي مَسـقِطِ رأسِـه السـاحليّ، لـم تَلمَـعْ فـي مُسـامَرَةِ أصحـابِ القُصـورِ ولا فـي مُغازلَـةِ النِسـاء. اِرتَـدى سِـروالًا واحدًا: سِـروال ناخِبيـه. دخَّـنَ لفافَـةً واحِـدَة: «تَطلـي سَـرت غَليـظ». واجَـهَ بلغـةٍ شِـبهِ عاريـةٍ وَحـشَ الاحتـكارَ وأخطبـوطَ المُناقصـاتِ والالتزامـات[2] وزُرافـاتِ الشَـركاتِ الأجنبيَّـة التـي نَمَـت فـي الحدائـقِ الخلفيَّـةِ لقُصـورِ الساسَـة والرؤسـاء.

أحـبَّ خالـي مدرَسـةَ النـاس واسـتَظلَّ فَـيْء مُعلّميهـا. نَطَـق باسـمِ حِرمانِهـا وحَـرَّضَ نيامَهـا[3]. لـم يَتـرُك

---

(١) تطلي سِرْت: ماركة سجائر تركيَّة مصنوعة في إسطنبول.

(٢) «جـرى تلزيـم سَـبعة آلاف وخمسـمئة مِتـر مربَّـع بـلاط لمصلحـة المطـار. والمُناقصـة التـي أجرَتهـا اللجنـة التنفيذيَّـة رسَـت علـى مَحـلّ السـادة درويـش الحـداد المُمَثّـل بأحَـد أعضـاء اللجنـة: الشـيخ فـؤاد الخـوري. هـل يجـوز، شَـرعًا وعُرفًـا، لأعضـاء لجنـة مصلحـة تلزيـم الأعمـال، وهـم واضِعـو دفتَـر شـروطِها والمطَّلعـون علـى خفايـا المصلحـة، أن يشـتركوا فـي المناقصـات وأخـذ الالتزامـات مـن أنفسـهم ولأنفسـهم»؟ المصدر: محاضر مجلس النواب، في ٦ تشرين الثاني ١٩٥١

(٣) «برهَـن عبداللـه الحـاج أنَّـه يتحسَّـس بأمـان الفئـات الفقيـرَة

حَبلَ غَسيلٍ واحِدًا إلا نَشَرَ عَليه ثياب ديمقراطيَّة لبِسَت ثَوبَ العَدالَةِ زورًا وثَوبَ الإقطاعِ حَقيقة. كانَ للناس مِرآةً عكسَتْ طوباويَّتَهم وأحلامَهم الصَغيرة. تذكَّري جيّدًا: أخطَرُ ما في رَجُلِ السياسَةِ قُدرَتُه على مُخاطَبةِ لاوَعيِ العامَّة ووَعيِهِم في الوَقتِ ذاتِه، والاستِقرارِ في أعماقِهِم، وتَحريكِ نَخوَتِهم. هذا الطِراز من القادَة مُرشَّحٌ دائما لنوعَين من الاغتيال: سياسيّ أو جسديّ. سايروا عبدالله الحاج وكافأوه بالاغتيال الأوَّل. خصَّصوا النَوعَ الآخر لآخرين أتوا من بَعدِه. بلى: لا فارِقَ في الاغتيال!

كُنتُ وإخوتي نكْبَرُ على أخبارِ خالي. نَكاد نَسمَع صَوتَه الجَهوريّ يُدَوّي في أروِقةِ مَجلسِ الأمَّةِ دِفاعًا عَن المالِ العام وحقوقِ اللبنانيين. كنَّاه الناسُ بـ«وَكيلِ الحقّ» و«فارس الجُرأة والخَطابة»

والوسطى وأنَّه يعيش في صَميمها فيفرح لأفراحِها ويتألم لآلامِها وشعرَت هذه الفئات أنَّ عبدالله الحاج منسلِخ من أحشائها ممَثل لرغباتِها، لِذا رأيناها في الانتخابات الأخيرة (١٩٥٣) تصوّت لَه باندِفاع كلّي وتوصِله إلى الندوة بأكثريَّة ساحِقة رغم فقرِه وانعزالِه ورغم مكانة خصمِه الوَزير رشيد بيضون الماليَّة والحكوميَّة.»
جريدة الأنباء ـ ١٤ آب ١٩٥٣.

و«مُصَـدَّق لبنـان»[٤] و«عبدالله كهربـاء». كَرِهَـهُ كثيـرون واتَّهمـوه بالغَوغائيَّـةِ والديماغوجيَّـة. أطـرَفُ الألقـاب جـاءَهُ مـن النـاسِ البُسـطاء حيـن أسـمَوه «عبداللـه لَمْبَـة» لمواقِفِـهِ العَنيـدة ضـد احتِـكارِ شَـركةِ الكهربـاء التـي هَـدَّد بالثَـورةِ عليهـا وتَحطيمِهـا[٥] إن لـم تخَضَـع لقوانيـنِ البِـلاد وتُخفِّـض أسـعارَها وتُحَسِّـن خَدماتِهـا وتَدفَـع مُتوجّباتِهـا مـن ضريبـةِ الدَخـل ورسـومِ البَلَديَّـة.

مـع عبداللـه الحـاج أصبَـح فَصـلُ الدْيـن والـبزنِس

---

(٤) مُحَمَـد مُصَـدِّق: كانَ محاميًـا ومؤلفًـا ووزيـرًا وبرلمانيًـا بـارزًا قبـل أن يصبـح رئيسًـا لـوزراء إيـران سـنة ١٩٥١. أدخلَـت إدارَتـه إصلاحـات اجتماعيَّـة وسياسـيَّة واسـعة كالضمـان الاجتماعـي وتنظيـم الإيجـارات واسـتصلاح الأراضـي. بلـغ شـأْوًا شـعبيًّا كبيـرًا بتأميـم صناعـة النِّفـط الإيرانيَّة بعدمـا كانَ البريطانيّـون يسـيطرون عليهـا مُنـذ ١٩١٣ عبـر شَـركة النَفـط الأنجلـو ـ إيرانيَّـة (سُـمّيَت لاحقًـا «شـركة النَفـط البريطانيَّـة» أو بـي بـي). تسـبَّبت قراراتُـه بانقـلاب أَطاحَـهُ يـوم ١٩ آب ١٩٥٣ بعـد اسـتفتاء مـزوَّر لحـلّ البرلمـان فـي عمليَّـة مُشـتركة للمُخابـرات البريطانيَّـة والأميركيَّـة سُـمّيت «عمليَّـة أجاكـس». أُسـقطَت حكومَتـه، وسُـجِن ثـلاث سـنوات ثـم أطلِـقَ سـراحه إنمـا بقـي فـي الإقامـة الجبريَّـة حتَّـى وفاتـه سـنة ١٩٦٧. المصدر: بتصرّف عن ويكيبيديا الموسوعة الحرّة ـ مُحَمد مُصَدِق

(٥) «أقـولُ للحكومَـة علنًـا: إن لـم تهتـمَّ بأمـر هـذه الشـركة (الكهربـاء) لمـا فيـه صالـح الشَّـعب فسـأثور علـى رأسِ الشَّـعب وأحطِّم هذه الشـركة». المصـدر: محاضـر مجلـس النـواب، فـي ٢٠ كانـون الأول ١٩٥١

عَـن الدَّولـة نقطـةً مركزيَّـةً فـي إصـلاحِ البُنيَـةِ السياسـيَّة وليـس فَقـط فـي إصـلاحِ البنيَـةِ الفكريَّـة والذهنيَّـة. أسَّـس نقابـة مُزارعـي الدُخـان، وناضَـل للحَـدّ مـن أسـعارِ الخُبـزِ والتُرابـةِ والمـاءِ والكهربـاء، وإصـلاحِ النِظـامِ التربَـوي. كان أوَّل المُطالبيـن بالعَدالـة الضريبيَّـة للحـدِّ مـن فـوارِق اجتماعيَّـة تحـرِمُ المُجتمعـات فـرَص التنميـة الحقيقيّـة. أذكـر تـداول أسـرتنا افتتاحيَّـةَ غَسـان توَينـي فـي النهـار. كلمـاتُ عاقِـلٍ كبيـرٍ لا زالـت دَرسًـا فـي الثـورَة والمسـؤوليَّة اليَـوم وكُلَّ يَـوم: «الشَـعب الـذي يَصبِـر علـى الظُلـم لا يَصبِـر علـى الجـوع والعَطـش، والـذي لا يَهتـمّ بخـرابِ بـلاده لا يسـكُت عـن خَـراب بَيتِـه، والقلّـة المختـارة التـي تَفـور نُفوسُـها بالروحيَّـة الثوريَّـة الحقيقيَّـة، عليهـا أن تَعـرِف كَيـف تَقـود الذيـن يثـورون مـن أجـل المَصلحـة الوطنيَّـة خـلال ثورتِهـم بفِعـلِ تأثُّرهـم بمصالِحهـم الخاصَـة»[٦].

(٦) (...) «قـالَ صديقـي وزميلـي الأسـتاذ عبداللـه الحـاج إنَّـه إذا اسـتمرَّ الحـال علـى مـا هـو، سـيَقود بنفسِـه الشَـعب فـي ثَورتـه علـى الشـركات الاسـتثماريَّة التـي تمتـصُّ دمـاء الشَـعب. وقـد عيَّـن مجلـس النـواب علـى الأثَـر جلسَـة خاصَّـة للمناقشـة فـي مَوضـوع الشَّـركات الاسـتثماريَّة. ولا نعـرف مـا إذا كانَ عبداللـه الحـاج سـيكتفي بجلسَـة المناقشـة فيعـود عـن

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

ولكـن... أيـن ثـوّارُ اليَـوم مـن هـذا الوَعـي الصافـي ومـن دُروسِ التاريـخ؟ مـاذا تَعلَّمَـت القِلَّـة المُختـارة مـن تجربَـة الرجـالات الكِبـار؟ وكَيـفَ الأكثـرُ حِنكـةً بينهُـم سـيَقودُ الذيـن يثـورون بفِعـل الوَجَـع دونَ السـقوطِ فـي فِعـلِ التفرِقـة؟

فـي ردٍّ نقـديٍّ علـى اتهـامِ الخـال بالغوغائيَّـة والديماغوجيَّـة، يقـولُ وهيـب مَعلـوف فـي كتابِـه الـذي يسـتحقّ أن يصـدر بطبعـة جديـدة[٧]: «الكثيـرون مـن مُحترِفـي السياسَـة وزُعمـاء الطوائـفِ والإقطـاعِ مِمـن يتعامَلـون مَـع المواطنيـن كأزلامٍ وزبائـنَ ولا يسـتمِدّون مشـروعيَّتَهم مـن تواصلِهـم

تهديـده بالثـورَة (...). قـد يقـال إنَّ مـا يهـدِّد عبدالله الحـاج بالثـورَة عليـه ليـس بمَوضـوع ثـورَة (...) وفـي هـذا القَـول الكثيـر مـن الحـقّ. غيـر أنَّـه ليـس كلّ الحـقّ لأن الشـعب الـذي يَصْبِـرُ علـى الظلـم لا يَصْبِـرُ علـى الجوع والعَطـش، والـذي لا يهتـمّ بخـراب بـلاده لا يسـكت عـن خـراب بَيتـه، والقلّـة المختـارة التـي تفـور نفوسـها بالروحيَّـة الثوريَّـة الحقيقيَّـة، عليهـا أن تعـرف كيـف تقـود الذيـن يثـورون مـن أجـل المصلحـة الوطنيَّـة خـلال ثورَتهـم بفِعـل تأثّرهـم بمصالحِهـم الخاصَّـة. وهـذا مـا يبـدو أنَّ عبدالله الحـاج... قـد عرَفـه».

المصدر: غسان تويني، النهار ـ ٢١ كانون الأول ١٩٥١

(٧) مـن كتـاب وهيـب معلـوف، **نائـب الشَـعب الـكادِح: سـيرة عبدالله الحـاج** (١٨٩٩ـ ١٩٧٥)، المذكـور صـص ٤٧ ـ ٨٨ ـ ٩٠.

مـع جمهورِهـم وثقتِـهِ بهِـم وبمـا يقولـون، لـم يجدوا تفسـيرًا للظاهـرِة (أي ظاهِـرة عبدالله الحـاج) سِـوى وصفِهـا بالديماغوجيَّـة لكَسـبِ الشـعبيَّة الرّخيصَـة. لكـن السياسَـة تتعلَّـق أوَّلًا بالقِيَـم وبالُقـدرَة علـى التواصـل الفعّـال مـع النـاسِ وكَسـب ثِقَتهـم، وعليـه لا يصـحّ تصنيـف ظاهِـرة الحـاج فـي خانَـة الديماغوجيَّـة. إنَّهـا دليـل عَمَـلٍ لنهـجٍ سياسـيّ ناجِـح».

هكـذا خالـي: نهـجٌ تَميَّـز دومًـا بِجُـرأة طروحاتِـه، كالمُطالبَـة بانتِخـاب الرَئيـس مـن الشَـعبِ مُباشَـرةً مُخالفًـا بذلـك الأعـرافَ، أو بطَـرحِ مشـاريع قوانيـن لإلغـاءِ الطائفيَّـةِ مـن قانـونِ الانتِخـاب (١٩٥٢)، وإعطـاء المَـرأة حَـقَّ التَصويـت أسـوَةً بالرجـال، أو تقديـم أوَّل مَشـروعِ قانـونٍ مَدنـيّ للأحوال الشـخصيَّة (١٩٥٣). هـل كان يـدرِك أنَّ هذه الاقتراحات سَـتكلِّفه مقعَـده النيابـي وهـو لـم يـرَ فيـه يومًـا محطًّـا لرِحالٍ بـل سـكَّة انطـلاقٍ نحـوَ مواطَنَـة حقيقيَّـة؟

تخيّلـي معـي الـى أيـن وَصَـلَ هـذا الرَجُـل! اليَـوم يتباهـون أنَّهـم بلَغوا فـمَ التنّيـن إذ يُطالبون بالنسـبيَّة

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

قانونًــا للانتِخــاب. تأخَّــروا ســبعينَ سَــنة. سَــبقَهم عبدالله الحـاج فـي المُطالبَـة بقانـون انتِخـابٍ يحـرِّر المُرشَّـح مـن التَّبعيَّـة لرَئيـس لائحَتِـه[٨]. لَـم يقبَـل أن يتَحـوَّل النائِـب إلـى رَقـمٍ إضافـيّ فـي لائِحَـةِ أيّ زعيـمٍ كائنًـا مَـن كان. لـذا هاجَـم قانـونَ انتخـابٍ سـادَ فـي الخَمسـينيّات كـرّسَ نفـوذًا عظيمًـا لزعمـاء اللوائـح الذيـن كانـوا أشـباه آلِهَـةٍ يتصدَّقـونَ علـى مَـن يَطلُـب الانضِمـام إلـى لوائِحِهـم وَفـقَ شُـروطِ المَكسَـب، ويتقاضَـون منـه أثمانًـا خياليَّـة تـكاد لا تُصـدَّق، وشـروطًا تحالفيَّـة أشـبَه بالـرِقِّ والاسـتِعبادِ الشـخصيّ والسياسـيّ.

آمَـن عبدالله الحـاج أنَّ المُعارضـة الحقيقيَّـة يجـبُ أن تمُـرَّ بقَطـعِ الطَريـقِ أولًا علــى سُــلطاتٍ غَيــر

---

(٨) «كلّنـا يعلـم أنَّ مُعظـم النـوّاب فـي المَجلـس ينتَسـبون إلـى قوائـم إقطاعيَّـة طائفيَّـة تَعمـل القـوَّة الخفيَّـة، بالتَّعـاون مـع زعمـاء هـذه القوائـم، علـى محاولـة إيصـال مَـن تشـاء منهـم إلـى المَجلـس النيابـيّ لتحقيـق الأغـراض. لذلـك حُـرِم الشـعب اللبنانـي، منـذ تأسـيس الحيـاة النيابيَّـة فـي البـلاد، مـن إيصـال ممثليـن حقيقيّيـن عنـه يُسـيطرون علـى التَشـريع ويراقِبـون ويحاسِـبون فـي تنفيـذ القانـون» (مـن كتـاب وهيـب معلـوف، **نائـب الشَـعب الـكادِح: سـيرة عبدالله الحـاج** (١٨٩٩ ـ ١٩٧٥)، المذكـور صـص ٤٧ ـ ٨٨ ـ ٩٠).

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

محـدودَة يتيحُهـا قانـون الانتخـاب لِغِيـلانِ السياسـةِ مـن أهـلِ المـالِ والسـطوَة، ومـن ملـوكِ وأُمـراءِ الطوائـف. لـذا جاهَـرَ بِضـرورَة تضييـق الدوائـر الانتخابيَّـة وزيـادة عَددِهـا وجَعلِهـا علـى أسـاس نائـبٍ واحـدٍ مـن كلّ دائـرةٍ أو نائبَيـن علـى الأكثـر. كانَ يـرى أنَّ الطائفيَّـة قـد تتلاشـى تدريجيًّا إذا اعتـادَ الشـعبُ علـى انتخـابٍ لاطائفـيّ: انتخابـات شـعبيَّة يكـون الفَـردُ فيهـا: «مُرتبطًـا بالقانـون والدَولـة فَقَـط لا بقائمـةٍ أو طائفـةٍ أو زَعيـم». ذَهـبَ بعيـدًا فـي جُرأتـه فـكانَ أوَّل مَـن اقتَـرَحَ قِسـمَة السَـبعة والسَـبعين مقعَـدًا نيابيًـا فـي مَجلـس١٩٥١ إلـى اثنيـن: مَجلِـس شـيوخ مـن ٢٢ عضـوًا يُنتَخـبُ علـى أسـاسِ الطائفـة ويَكـونُ كمَجلِـس اللـوردات فـي بريطانيـا، ومَجلِـس نُـوّاب مـن ٥٥ عضـوًا، كامِـل الصلاحيّـات التشـريعيَّة، يُنتَخـب علـى أسـاسٍ غيـر طائفـي، فتُلغـى المُحافظـات والأقضيَـة وتُقسَّـم البِلاد إلـى اثنتَيـن وعشـرين مديريَّـة، لـكلٍّ منهـا عُضـو فـي مَجلـس الشـيوخ، وإلـى ٥٥ دائـرة انتخابيَّـة، لـكلٍّ منهـا نائـب. ثـم يُسـتغنى عَـن مَجلـس الشـيوخ عندمـا يطمئـنّ الشـعب ويَـزولُ الشـعور الطائفـي فـي البـلاد.

طبعًـا، اقتـراحُ عبدالله الحـاج لـم يـرَ النـور. لكـنَّ فِكـرة المَجلسَـين عـادَت فظهـرت فـي دُسـتورِ الطائـفِ (١٩٨٩) بَعـدَ حـروبٍ أهليَّـة مدَمِّـرة، ولـم يُنَفَّـذ منـه شـيءٌ لأنَّ الطَبقَـة السياسـيَّة بالأمـسِ كمـا اليَـوم ترفُـضُ إضعـافَ قُدراتِهـا «التَسـلُطيَّة» وتُقاتِـلُ مَـن يَمَـسُّ أَيَّ مـا يفـكّكُ البُنيَـة الطائفيَّـة للنِظـام ولـو بَعـد عُمـرٍ طويـل. ونحـنُ، إن سـمِعنا مَـن يُنـادي زورًا بإلغـاء الطائفيَّـة، نَعـرِف حَـقَّ المَعرفـة أنَّ السُـلوك الطائفـيّ اليَومـيّ هـو الثابِـت والمُتَحـوّل. وهـذه الرشـاقة تحَمـي بُنيانًـا صَلبًـا تَوافَـق الجَميـعُ علـى حمايَتِـه.

تخيَّلـي أن يتقمَّـص عبدالله الحـاج فـي نُسـخَةٍ عَصريَّـة، وينـادي مـن البَرلمـان بفَصْـلِ الديـنِ عَـن الدولـة. مـاذا يُمكِـن أن يَحـدُثَ؟ هـل تَذكريـن عندما لـوَّح رئيـس الجمهوريَّـة الأسـبَق اليـاس الهـراوي بالـزَواج المَدنـيّ الاختيـاريّ؟ توحَّـدت المَرجِعيّـات الدينيَّـة التـي كانَـت فـي ذُروَة خلافاتهـا، ونَزلـت إلـى الشـارع وأسـقَطَت المَشـروع. ولـم تُطـاول قَتـلَ الحُلـمِ عَواقِـب. سَـلِمَت أيـدي الطوائـف مـن الـدَمِ المَهـدور، وكانَ أخطَـرَ مـا فـي الاغتيـالِ الاستِسـلامُ

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لهـذا المنطِـق الطائفـيّ القاتِـلِ المسـتقبل. ظَـلّ الـدَّمُ المَسـفوكُ حتَّـى اليـوم علـى الأرضِ دون حُرمَـة، لا عصبيَّــة يســتَفزُّها، ولا زَعامــاتٍ تَنتظـر فرصَــةً تَقتنِصُهـا. الـزواجُ المَدنـيّ الاختيـاريّ بالنِسـبة لفَصْـلِ الديـنِ عَـن الدولـة هـو كنِسـبةِ النَهـرِ إلـى البَحـر. نـادى عبداللـه الحـاج بالإبحـار قبـل أكثَـر مـن ٧٥ سَـنة فيمـا اليـوم يَكتفـي البَعـضُ بالاسـتِحمامِ فـي مياه نَهـرٍ فَرعـيّ صَغيـر. باللـه عليـكِ، قولـي لـي مَـن يَذكُـر النائـب العَلمانـي مـن سـاحِل المَتـن الجنوبـيّ الــذي قَــرَن القَــولَ بالفِعــل، وذَهَــب بَعيـدًا فــي قناعاتِـه، حامِـلًا فِكـرَةً ديمقراطيَّـةً ثابتـة عَـن حَيـاةٍ سياسـيَّة مُنفتِحـة علـى حَداثـة راقيَـة؟

مـرّت الســنوات وبَقــي عبداللــه الحــاج طيلَــة حياتِــه النيابيَّــة كمــا ديوجيــن: يَجــوبُ شــوارِع الإصـلاحِ تحـتَ «طَقَّـةِ شَـمسِ» المصالِـح، حامِـلًا فانوسَــه، رافِضًــا الاستِســلام، بانتِظـار عَصًـا سِـحريَّة يَحتاجُهـا إصـلاحُ البـلاد[٩]. فهَـل مَـن يُعيدُنـا اليَـوم

(٩) «إنّ اسـتمرار الظلـم فـي بعـض الأسـعار الفاحِشـة علـى الشـعب فـي التُـراب والمـاء والكهربـاء هـو نتيجَـة للفسـاد التـي أشـار إليـه دَولـة رئيـس الـوزراء فـي إحـدى الجلَسـات السـابقة عندمـا أثـار بَعـض الزُمـلاء مـا إذا

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

إلـى فانـوسِ خالـي ودَفاتِـره الملوَّنـةِ بلَـونِ الأحـلامِ المَمنوعَـة فـي وَطـنٍ سَـليب؟

تعترينـي دومًـا أنانيَّـةٌ ذات طَابَـع عائلي كُلَّمـا توغَّلتُ فـي العالَـمِ البَسـيطِ والمُبسَّـطِ الـذي رَسَـمَه خالـي عبدالله. وأشـعُرُ بكرامـةٍ وطنيَّـةٍ، ولـو علـى شَـكلِ جَنيـنٍ غَـضٍّ، كُلَّمـا اسـتذكَرتُ تلـك القامَـةَ الوطنيَّـة الجريئـة، مـا يجعلُنـي أخـرُجُ مـن عُقـدةِ الذاتيَّـةِ العائليَّـة إلـى المـدى الوطنـيّ الأرحَـب.

قولـي لـي بصراحَـة: إلـى أيّ مَـدًى يبلُـغ اعتـزازُك بلبنانيَّتـكِ اليَـوم وأنـتِ تَـمْثُلين شِـبهَ عاريـةٍ مـن مواطنَـةٍ حقيقيَّـة بَيـن أيـدي ضُبّـاط الحُـدودِ فـي مَطـاراتِ العالَـم؟ لبنـان إشـعاعٌ حضـاريّ وتجربـةٌ ديمقراطيَّـة رَغـم ثقوبهـا، وبيئـةٌ أغناهـا

كانَـت الحكومـة تعمَـل جاهـدة فـي تنفيـذ بَرنامجهـا. وقـد أجـاب دَولـة رئيـس الحُكومـة فـي وقتِـه أنَّ الإصـلاح فـي هـذا البلـد يحتـاج إلـى عصـا سـحريَّة، وأشـار إلـى الفسـاد مـن رشـوَة ومحسـوبيَّة وتداخُـل نفـوذ. لا شـكّ فـي أنَّ مـا قالـه دَولـة الرئيـس فـي حينـه، مـن أنَّ الإصـلاح يحتـاج إلـى عصا سـحريَّة هـو صَحيـح، ولا شـكَّ فـي أنَّ الفسـاد القائـمَ فـي البـلاد هـو صَحيح أيضًـا. إنّمـا غيـرُ الصحيـح أن نسـمَع ذلـك ونحـنُ هنـا ولا نأتـي بعمَـلٍ يقـومُ علـى الإصـلاحِ المطلـوبِ أو نوجِـد العصـا السـحريَّة لتُصلح الفسـاد».
المصدر: محاضر مجلس النواب، في ٤ كانون الأول ١٩٥١

التنـوّعُ وغـذّى فِكرهـا. الإعـلامُ اليَـوم لا يُغطّـي مـن أخبـار بلادِنـا سـوى أكيـاسِ القُمامـة ونَـتَـنِ الصَفقاتِ والمـالِ الوَسِـخ ونكهَـة المُخـدِّرات. فكَيـف لا تشـمُّنا الـكلاب البوليسـيَّة فـي مطـارات العالـم؟

قَـد يوسَـم عبداللـه الحـاج بالمُغـالاة. لا بـأس. لا خَطَـرَ وراء إضفـاء مَشـروعيَّةٍ لهـذه المُغـالاة لأنَّهـا فِعـلًا تأسيسـيَّة. نَعَـم: أسَّسَـت لِنَمـوذَج. بالطَّبـع لا أعنـي بذلـكَ مِثـالًا مُكتَمِـلًا ومُنـزَّلًا. عبداللـه الحـاج نَمـوذَجٌ يُحتَـذَى. إنَّـه «نَموذَجانـي»، إذا صَـحَّ التَّعبيـر، يَصْلُـح للاطّـلاع عليـه والبِنـاء علـى نتائِجِـه فـي الحَيـاةِ العامَّـة. نحـنُ أمـامَ نَمـوذَج تُحَرِّكُـهُ الجَـرأة والتجربـة البنَّـاءَة. تَجرِبَـة التَماهـي مَـع الـذات اللبنانيَّـة، مَـع بِنـاء المؤسَّسـات، والأهـمّ مَـع تجربَـة بِنـاء دَولَـةٍ مَدنيَّـةٍ تكـونُ مرجِعِيَّتُهـا مرجِعيَّـةً حصريَّـة ووَحيـدَة. وهـذا لا يلغـي بُعدَنـا المناطِقـيّ ولا انتماءَنـا الدينـيّ أو اللاانتمـاء. مَسـاقِطُ رؤوسِـنا تَصقـلُ شـخصيَّتَنا. نحـنُ أهـلُ سـاحِل المَتـن الجنوبـيّ، صَحيـح. هـذا جانِـبٌ لا أطرَحـهُ فـي الظلمَـة عِندَمـا أكشِـفُ النِّقـابَ عَـن حَياتـي اليَـوم.

يُقـالُ إنَّ عبدالله الحـاج كانَ ماسـونيًّا[١٠]. المُشـكِلةُ يـا ابنَتـي ليسَـت فـي التُّهمَـة بـل فـي نَظـرَةِ النـاسِ المَفطوريـنَ علـى نظريَّـةِ المؤامَـرة، علـى فِكـرَةِ أنْ لا وجـودَ لمسـارٍ طَبيعـيٍّ للتَّرقّـي الاجتماعـي، ولَـو مَـرَّ هـذا المَسـار مـن الجامِعـة الأميركيـة فـي بيـروت أو مــن الســوربون أو حتَّــى مـن جامِعـة كولومبيـا العَريقـة. إذا حقَّـقَ الرَجُـل أو المَـرأة العاديَّـان نجاحًـا فهـو نِتـاج مؤامَـرةٍ لا تراكُـم عناصِـرِ نَجـاح.

فــي نظَرِهــم لا بــدَّ أنــه سَــلَك طريقًــا «قادوميَّــة» (Short cut كمـا تقوليـنَ لـي أحيانًـا)، طريقًـا خارِجَـة عَـن مألـوفِ الطُرقـات. المُشـكلَة فـي عَـدَمِ تمكُّـن مُجتمَعِنـا مـن وعـي أنَّ الإنسـانَ قـد يُصَنَّـف خـارِج التُهمَــة السـهلَة ونِطـاق الرِّيبَـة، وأنَّ نمـاذِجَ مِثْـلَ عبداللــه الحــاج وأمثالِـه أتـوا إلــى العَمَـل العــامّ

---

(١٠) الماسـونيَّة أو البنّـاؤون الأحـرار: منظَّمـة أخويَّـة عالميَّـة يتشـارك أفرادُهـا عقائـدَ وأفـكارًا واحـدةً حـول الأخـلاق والماورائيّـات وتفسـير الكَـون والحيـاة والإيمـان. تتَّصـف بالسّـرّيّة والغمـوض الشـديدين خاصَّـةً فـي شـعائرها، مـا جعلهـا مَحـطّ تسـاؤل حَـول حقيقـة أهدافهـا. ذهـبَ مـن سـعى لفهمهـا إلـى أنّ حُلْـم المنتميـن إليهـا السـيطرة علـى العالـم والتحكّـم بـه. وهـي تُهَـمٌ وأسـاطير لـم تؤكّدهـا الوقائـع.

مـن بـابِ العِلـمِ والعَمَـل خـارج الطَـوقِ الطائفـيّ أو «الزعائمـيّ» هـي نمـاذِجُ مُمكِّنـة بـل ضروريَّـة لارتِقـاء المُجتَمـع.

أن يصِـل عبداللـه الحـاج إلـى مـا بلغَـه مـن مواقِـع نيابيَّـة وشـعبيَّة فـلا بـدَّ أنَّ للمؤامـرَةِ دورًا فـي إيصالِـه. وأن يخـرُج مـن مُجتَمـعٍ مُغـرِقٍ فـي التقليـدِ والبَسـاطةِ ويحقِّـقَ مـا حقَّقـه بقُدراتِـه الذاتيَّـة، فمسـارٌ تآمـريّ. تلـك ذِهنيَّـةٌ وطريقَـةُ تفكيـرٍ تـكادُ تكـون دِيانَـةً رَديفَـة: ديانَـةَ الخرافَـة والمبالَغَـة، فـي مُجتمَـعٍ مؤدلَـجٍ بالأسـطورَة، حائِـكِ وَهـم، مُدمـن خُزَعبَلات. هـذه ثقافَـة مُرعِبَةٌ وليـدَةُ مِـزاجِ الطوائِف الـذي يَمنـعُ فَهـمَ تطَـوِّر المُجتَمـعِ مـن خـارِجِ مَنطِـق المؤامَـرة، ويُحكِـمُ الطَـوقَ علـى النمـاذِجَ المُغايـرَة. واليسـارُ اللبنانـيّ الـذي حـاوَلَ ذات فتـرةٍ أن يفهَـمَ العلاقَـةَ بَيـن الأوليغارشـيَّةِ[١١] والنِظـامِ اللبنانـيّ لَـم يُعـطَ فُرصَـة التَّبَلـور. التُهمَـة مِـزاجُ الطوائِـف.

---

(١١) الأوليغاركيَّـة Oligarchy ـ حكـم الأقليَّـة: شـكلٌ مـن الحُكـم تنحصـر السـلطة السياسـيَّة فيـه بفئـةٍ صغيـرة مـن المُجتمـع تتمتَّـع بالمـال أو النسَـب أو السـلطة العسـكريَّة. وغالبًـا مـا تسـيطر علـى الأنظِمـة والـدوَل الأوليغاركيَّـة عائـلات نافـذة معـدودة تُـورث النفـوذَ والقـوَّة مـن جيـل إلـى آخـر.

للأسَـف، اتَّصَلَـت هـذه الأمزجَـة إلـى جيلكُـم. بلَدُنـا ورثَ هــذه الموبِقــات ولــم يفعَــل شــيئًا ليغيّــر فيهـا. لبنـان صـارَ سـميكًا لا موضِـع شـقّافًا فيـه. لا يُمكِـنُ النَظـرُ عَبـر ثقوبِـه. مقفَـلٌ طائِفيًـا ومـن دون ثقـوب، لا فـي إنتـاج السُـلطَة فقـط بـل فـي الثقافَـة والعُمــران والاجتمــاع. إنتــاجُ الُسـلطة أصبَـح كلّـه بطريقــة Short cut. شــبَكةٌ زبائنيَّــة ونِظــامُ مصالِـحَ وحافـلاتٌ وبوسـطات. مرشَّـحون علـى مقعَـد نيابـيّ فــي منطقَــة يحصــدون أكبَــرَ عــدَد مــن الأصــواتِ ثــمَّ يَختَفــون عِنـدَ حلـولِ بوسـطَةٍ انتخابيَّـة أخـرى. أمــرٌ مَفهــومٌ وغيــرُ مَفهــومٍ فــي آن: مَفهــومٌ لأنَّ مِـزاج الطوائِـف فتّـاك، وغيـرُ مفهـومٍ لأنَّ المغامريـن ضـدَّ هـذا المِـزاج يَظهَـرون كقَـوسِ قـزَحٍ ويَختَفـون كقــوسِ قــزحٍ أيضًــا. لا يترُكــون أثــرًا. وجودُهــم، عملُهـم، كفاحُهـم، إنجازاتهـم، شـعبيَّتهم... جميعهـا كأنَّهـا انفـراطُ ضبـاب.

كانَ عبداللـه الحــاج أســيرَ تلــك الحِقبَــةِ الأولــى بأُطُرِهـا ومُناخِهـا السياسـي، وأغلَـبُ الظَّـن أنَّـه لـن يتكـرَّر كشـخصيَّة، أوَّلًا لأنَّ ظـروفَ بيئَتِـهِ العائليَّـة والثقافيَّــة تغيَّــرت، وثانيًــا لأنَّ البيئَــة السياســيَّة

الحاضِنَـة آنـذاك انقلَبَـت رأسًـا علـى عَقِـب. أوَّل تغييـرٍ جَـذري طـرأ علـى البيئَـةِ العامَّـة هـوَ انتِفـاءُ ضـرورَةِ تَحلّـي الشَّـخص بأكثَـر مـن هويَّـة. النِّظـامُ القَديـمُ كانَ مُبدِعًـا بامتلاكـه طُرقـاتٍ فرعيَّـة، ثقوبًـا، شُـقُوقًا قـد ينفُـذَ مـن خلالهـا الشَّـخص إلـى انفتـاحٍ أو تَمـاهٍ أو تلاقُـحٍ مـع الهويَّـاتِ المُحاذيـة، مَـع الآخَـرِ بإرهاصـاتِ فِكـرِه وتلاويـنِ عَقيدَتِـه. واليـوم أرى الشُّـقوقَ والزواريـبَ المُبدِعَـة تلاشَـت نِهائيًـا ولـم يعُـدْ بِمقـدورِ الإنسـان التماهـي مَـع التنَـوُّع.

توفـي خالـي عبداللـه يَـوم الأحَـد ١ حزيـران ١٩٧٥. كانَـت الحَـربُ اللبنانيَّـة أطبقَـت علـى حياتِنـا فيمـا نعيـش حالَـة إنـكارٍ شَـديدة. بَيتـي المُشـرِف علـى الخَـطِّ الرئيسـيّ للقِتـالِ فـي منطقـةِ الشـيّاح قُبالـةَ سـاحَةَ البَريـدِ علـى طَريـقِ صَيـدا القَديمـة(١٢) أصبَحَ مِتراسًـا يصعُـب العَيـشُ فيـه. كُلُّ شـيء ضـاعَ فـي لحظـات الغَفلَـة إلـى غيـر رَجعَـة.

حَملْتُكُـم وهَرَبْـت، لاجئـةً إلـى بـلاد بلقيـس الغارِقـة فـي خَسَـارة شـقّ الـروح ورَفيـق الفكـر ودُرّة العَيـن.

---

(١٢) طريـق صيـدا القديمة: المسـار من سـاحِل المَتـن الجنوبيّ نحوَ صيدا فـي الجنـوب اللبنانـي مـرورًا بطريـق بلـدَة الحَـدَث والشـويفات الداخليَّـة.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

حُزنُهـا أصبَـح ملجَئـي الدائـم. عُـدْتُ إلـى كُرسِـيِّ «المقشَّـش»، إلـى شَـمسِ الطفولـةِ علـى شُـرفَةِ بيَـتِ بَلقيـسَ ومُصطفـى، المُطلَّـة علـى روائـحِ حَديقَـةِ عمَّتـي حَسْـنَة سـليم، والـدة مُحسِـن. عُـدتُ أمَّـا إلـى حَديقَـة طفولتـي، صَديقـةً لحُـزنِ أمّـي، حَبيسـةَ صَمـتِ عينيهـا الخضراويـن، تفـوحُ مـن صَلاتِهـا رائحةُ الغـارِ الأزلـيّ ورقَّـةُ اليـاسَـمين.

كأن خالـي عبدالله اختـار يـوم وفاتـه مَوعِـدَ الأفـول بدَلالـة الرَمـزِ وقـوَّة الشُـعورِ بالنَكبَـة الآتيَـة: فـي ١ حزيـران ١٩٧٦ دَخـل الجَيـش السـوري لبنـان فاتِحًـا بـابَ الملَعـب علـى مِصـراع اليـأْس.

مؤسسة دَار الجَديْد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لُـقـمـــان

لـم يتـرُكْ خالـي عبدالله وريثًـا سياسـيًّا بالمَعنـى التقليـديّ للكلِمـة، ولا ابـنُ عمَّتـي مُحسـن سـليم[1]. هـو أيضًـا شـاءَ خَـوضَ غمـار السياسَـة علـى طريقَتِـه. لـم يبـقَ أثـرٌ كبيـر لدورِهمـا، كمـا لـم يبـقَ الكثيـر مـن تجرِبَـة محمَّـد الزيـن وعبـد الكريـم الخليـل وغيرهمـا مـن الـروّاد.

لا أغالـي فـي القَـول إنَّ أَلْزهايمِـر التاريـخ اللبنانـيّ الحَديـث اغتـال تجربتَيـن سياسـيَّتين نادرتَيـن فـي

---

(١) مُحسـن سـليم (١٩١٨ ـ ٢٠٠٠): نائـبٌ وحقوقـيٌّ ومحـامٍ مـن حـارة ـ حريـك، عُـرِف بانفتاحـه وليبراليّتـه. ترشّـح جـوار صديقـه ريمـون إدّه مرّتيـن للفـوز بالمقعـد الشـيعي فـي بـلاد جبيـل. فـاز لـدورة نيابـة واحـدة عـام ١٩٦٠ عـن دائـرة بيـروت الثانيّـة. ترافـع فـي قضايـا شـغلتْ الـرأي العـامّ: اغتيـال الصحافـيّ كامـل مـروّة، منـع كتـاب ليلـى بعلبكـي **سـفينة حنـان إلـى القمـر**. كانَ مـن أشَـدّ المدافعيـن عـن الشّـرعيّة والدسـتور وحقـوق الإنسـان. مـن مؤلّفاتـه: **سـيادة الدسـتور فـي لبنـان، دفاعًـا عـن القـدس، لبنـان والعالـم العربـيّ**.

ساحِل المَتن الجنوبيّ. مهَّدَت لعمليَّتَي الاغتيال تَصفيَةٌ مَعنويَّةٌ ثقافيَّة واجتماعيَّة من أقرَب الناس إليهما. ربَّما لأنَّهما اختارا، كلٌّ على طريقتِه ومن دون موارَبة، أن يكونا في غَير بيتِهما، فجاءَ الاغتيال مُركَّبًا.

قرارُ التَصفيَة هذا أراه اعترافًا بقوَّةٍ ما كان يُمكن لهاتَين التجربتَين أن تُفجّراه يومًا من ينابيعَ لثقافةٍ سياسيَّةٍ وطنيَّةٍ تَروي أحلامًا بدَولةٍ مُستقلَّة عن الظُلم والاستِغلال، بمنظومَةٍ نابذةٍ للطوائفيَّة، عابرة للمذهبيَّة، مُناصِرة للعَدالة الاجتماعيَّة، تسيّرُها مؤسَّسات عصريَّة.

أرى في الاغتيالِ الفِعليّ للُقمان بنِ مُحسِن[٢]

(٢) لُقمان سليم (١٧ تموز ١٩٦٢ ـ ٣ شباط ٢٠٢١): كاتبٌ وناشِرٌ ومخرج أفلام توثيقيَّة وقائد رأي مُدافِع عن حقوق الإنسان؛ مُلتَزم بالتَوعية الثقافيَّة والسياسيَّة حَول مواضيع المُواطَنة والحُرّيات.ناقدٌ في مقالاتِه وإطلالاتِه التلفزيونيَّة لحزب الله وجميع الأحزاب الطائفيَّة والتوتاليتاريّة. ابنُ عائلة لبنانيَّة شيعيَّة مؤثّرة عُرفت بوشائجها مع النُخَب المسيحيَّة. والدتُه الباحثة سلمى مِرشاق بروتستنتيّة من شوام مصر. والدُه المحامي محسن سليم: نائب في البرلمان اللبناني (١٩٦٠ ـ ١٩٦٤). سافر لُقمان سنة ١٩٨٢ إلى باريس لدراسة الفلسفة في جامعة السوربون. عادَ إلى بيروت سنة ١٩٨٨، وبعد عامين، أسَّس دار الجديد دار طليعيّة لعبت دورًا محوريًا في المشهد النشري. لم يغادر دارة

(ولـو أنَّ تَجربَتـه السياسـيَّة فـي غَيـر مُسـتَقَرّ) امتدادًا واحــدًا لفِعــلِ الإلغــاء. وهــو إلغــاءُ نمــاذجَ ثقافيَّــة سياســيَّة خَرجَــت عــن جِســم التَقليــد. تجرِبتــان خلَقَتـا، كلٌّ علـى طريقتِهـا، مِسـاحة فِكريَّـة مُختلفـة تصــدَّت للقــوَّة «الاكتســاحيَّة» وأقلقَــت راحَــة كلّ سُــلطة متقَوقِعَــة فــي مَذهبيَّتِهــا. نِضــالان حَمَــلا سُـلطان العِلـم والانفِتـاح وسَـيف الحجَّـة والبيِّنـات. كِلاهُمــا ابــنُ بيئَتِــه لــم يخــرُج عنهــا أو منهــا وإن كانَ لـه حيالهـا فَهمُـه الخـاص. كلاهُمـا عـاشَ تمامًـا كمـا شـاء «مُنحـازًا» مُعطيًـا لِذَاتـه «شـرعيَّة» خِدمَـة وطَنِــه والمُســاهمة فــي رُقيّــهِ ورِفعَــة شــأنِه.

لُقمــان كانَ أصيــلًا فــي رؤيتِــه للــهنغار[٣] وأُمَــم للتوثيـق والأبحـاث[٤]. مشـروعان طوَّبا عملَـه التنقيبيّ

أجـداده «العـودة» ـ وهو الاسـم الـذي كان يُطلق على هـذه الأرض الزراعية.

(٣) الهنغـار: معناهـا الأصلـي مَـكَانٌ لِإيـواء وتَصْلِيـح الطائِـرَات. شـيّد والـد لقمـان المبنـى لتأجيـره وهكـذا كان حتّـى انـدلاع الحـرب. حيـن أسّـس لقمـان أمـم للتوثيـق والأبحـاث فكّـر وشـريكته مونيـكا بورغمـان إلـى تحويـل المـكان إلـى مَركـزٍ ثقافـيّ لعَـرض الأفـلام وإقامـة المعـارض والنـدوات واللقـاءات الفكريَّـة. هنغـار أمَـم اسـتقطَب جُمهـورًا متنوّعًـا.

(٤) أُمَـم للتوثيـق والأبحـاث: مؤسَّسـة لُبنانيَّـة غَيـر حكوميَّة تُعنـى بالعَمل التَّوثيقـي والبَحثـي. تأسَّسـت سـنة ٢٠٠٥ مركـزًا مُتخصّصًـا بذاكـرة الحـروب وتاريـخ لبنـان والمنطقـة. أُمَـم تنطلـق مـن الماضـي، تقـرأه ومنـه تحـاول

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

فـي تسـمِيَتَين، وكانـا فِعـلَ حراثـةٍ ببُعـدٍ عقلانـيّ فـي بيئـة باتَـت تَعيـش علـى المَشـاعرِ العَصبيَّـة. صَهَـر لُقمـان مُفتـاحَ كلّ المغاليـق Master key، بِـه فتـحَ الموصـد مـن أبـواب تاريـخٍ رفضنـا مـرّة تلـو المـرّة أن نقاربـه برباطـة جـأش. وكَيـف لنـا أن نؤسِّـس لسَلام فـي هـذه البِلاد وفـي هـذه المنطقـة، إن لـم نتَصالـح مـع تاريخنـا؟

أخبَرنـي يومًـا أنَّـه أنقَـذَ كتبًـا وأفـكارًا تركهـا أصحابهـا علـى قارعـة بيوتهـم وفـي سـلال المُهمـلات. ضَحِكـتُ لأنَّـه كان فِعـلًا عَلـى حَـقّ. لقـد وجـد يومًـا مذكَّـرات سـيّدةٍ مـن قريـةِ الشّـبانيّة الجبليـة، اسـمُها أسـماء سَـركيس. كَتَبَـت عـن الحُـبّ والفلسـفَة وخبايـا النَفـس البشـريَّة بالفرنسـيَّة والعربيَّـة سـنة ١٨٩٣. كنـزٌ مـن كنـوز التاريـخ! كَـم جميـلٌ أن نلتقـط مـن المنسـيّات

التفكيـر بالحاضـر والمسـتقبل. عشـرون عامًـا وأمـم تنقّـب وتبحـث. جـوار نشـاطاتها المتعدّدة أنتجت الجمعيّة كتبًا ومنشـورات عـن اللجوء والمغيّبين والمحاكـم العسـكريّة وغيرهـا. راجـع مواقـع أمـم ومكتبتهـا وخزائنهـا.

www.umam-dr.org | www.memoryatwork.org

www.menaprisonforum.org

والمهمـلات قصصًـا عُمرهـا أكثَـر مـن ١٣٠ سـنة ونَحتسـي مرَّهـا وحلوَهـا بتوقيـت اليـوم!

أخبَرنـي أيضًـا أنَّـه انتَشـل كتابـات يوسـف نَجـا سـكرتير غُرفـة التجـارة والصناعـة فـي بيـروت. يبـدو أنَّـه حَفِـظَ سـجّلًا ذهبيًّـا للعالَـم العَربي، وهـو انتُخِبَ رئيـسَ شَـرَفٍ لِجمعيَّـة الشـبّانِ المسـلِمين فـي ذلـك الزَّمـان وكانَ رئيسًـا لمَحفِـل الاسـتقلال رقـم ٣.

كَـم جميـلٌ أن نجمـعَ مهمـلات ونَصنَـع منهـا مـوادًّ خامًـا للتحاجُـج والتلاقُـح وللتسـامُر أحيانًـا. العمـلُ التوثيقـيُّ بهـذا المَعنـى يُكسـبُكَ مـن حيـثُ لا تـدري لياقـةً فكريَّـة وإنسـانيَّة أكيـدة ويُبعِـدك عـن القَسـوَة. التعصُّـب والتقوقُـع وقَتْـل الحجَّـة آثـامٌ تجـرَحُ لياقتَنـا الإنسـانيَّة وتُفقِدنـا قُدرَتنـا علـى قـراءة تاريخِنـا بهـدوء بعيـدًا عـن سَـيل العواطِـفِ وتصلُّـبِ الإيديولوجيـا وصَريـرِ الدوغمـا. القَسـوَة تمنعُنـا مـن صِناعـة مُسـتقبلٍ متَّصـلٍ بأصالتِنـا. مُسـتقبلٌ ربَّمـا أكثـرُ تفـاؤُلًا. مـن هنـا أنَّ كلَّ عمَلِـه فـي الهنغـار وأُمَـم للتوثيـق والأبحـاث أراه كـي يُبقـي مَنطِـق الهـدوء والحُجَّـة صامِـدًا فـي بيئتِنـا فتَبقـى «ذاتَ صِلـة» بمُحيطِهـا ولبنانيَّتِهـا.

كَثيـرًا مـا اختلفْـتُ مَعَه في القِـراءة السياسـيَّة، لكنَّني استَسَـغتُ ذكاءَه ومَعرفَتـه المَوسـوعيَّة وبَراعـة لُغَتِـهِ وقـوَّة السـرد. لُمـتُ تهـوُّرَه وفَضَّلـتُ لـو أنَّـه بَقـيَ فـي بُعـدِه الفلسَـفيّ الإنسـانيّ، كاتبًـا ومفكّرًا وشـاعِرًا ومؤرِّخًـا، ودارًا واسِـعة مِضيافَـةً للمُفكّريـن والفلاسِـفة والفنَّانيـن والباحثيـن مـن المَشـرِق والمَغرب.كنـتُ أستَشـعِرُ فـي جَرأتِـه طَيشًـا طفوليًّـا باذِخًـا لـم يتخَـلَّ عَنـهُ رَجُـلًا. وخَلـفَ سِـتارة العَبثيَّـة التـي كان يمارسُـها أحيانًـا، امتـدادٌ لطفولـةٍ حـرَّة وذكاء مـوروث ومِـراس صعـب. كنـتُ أرى صلابَـة فـي القَناعَـة يسـقيها إرثٌ جَميـل. كـم أُعجِبْـتُ بإصـراره علـى نَحـتِ حيِّـزٍ فـي الذاكـرةِ الجَماعيَّـة لقَسـوةٍ سـادَت بلادَنـا قـد يكـون عُنوانهـا جرائـم الحَـرب الأهليَّـة أو مَجـازر صَبـرا وشـاتيلا، أو مآسـي المُعتقـلات السـوريَّة والقَمـعِ المتواصِـل للنِظـام، أو قَسـوَة مـن نـوعٍ آخـر آتيـة بغِـلافٍ مُنمَّـق تَحـت عُنـوانِ إعمـارٍ مـن هُنـا أو «تَطويـرٍ» مـن هُنـاك، Development بمُسـمى هـذا الزَمـان. إنهـا قَسـوَة مَحـوِ ذاكِـرةِ مَـكانٍ عَريـقٍ مِثـلَ فُنـدقِ الكارلتـون أو دَفـنِ أرشـيفٍ مِثـلَ أرشـيفِ اسـتوديو بَعلبـك. آه، ثُـم آه مـن القَسـوَة!

زُرتُ الهِنغـار غَيـرَ مـرَّة. حوَّلَـهُ لُقمـان إلـى مَركـزٍ ثقافـي لعَـرضِ الأفـلامِ البَديلـة والمَعـارضِ الفنيَّـة والمسـرحيَّة عـن القضايـا الحُقوقيَّـة. شـيَّدَ بَيتَـه كما أراد: بَيـتَ بَحـثٍ وحديقـةَ نقـاشٍ وتحـاورٍ وتعـارُف يجتَمِـعُ فيهمـا المَسـكونونَ بمَسـألةِ الذاكـرةِ مـن كتّـاب وباحثيـنَ ومثقَّفيـنَ وفنّانيـنَ ونـاس عادييـن تَسـكنُهم أسـئلةً كثيـرة. كُنـت أفـرَحُ لعَـودة الألـوانِ إلـى حَديقـةِ عمَّتـي. وأُفكِّـر: حَسـنًا فَعَـلَ لُقمـان. أخيـرًا بـاتَ للذاكِـرَةِ بيـتٌ ومُلتقـى فـي حديقتِنـا الخَضـراء. هُـدوء الحَديقَـة وفَـرَحُ عَصافيرهـا يقابِلهُمـا جُنـونُ صـوتِ المِذيـاعِ وعَصبيَّـة الإِسـمَنت. ربَّمـا علـيَّ أن أشـكُرَ عِنـاده فـي المُحافظـةِ علـى تلـك المِسـاحة الخَضـراء مـن ذاكِـرة طفولتـي، وأنـا أشـعُر أنَّ كلَّ ماضـيَّ تعـرَّض للإبـادة. أجِـدُ فـي حَديقـةِ بَيتِ عمَّتـي «حَسـنَة» مسـاحة صُمـودٍ لذكرياتـي. ذاكِـرةُ المَـكانِ الوَحيـدة التـي تُصالِحُنـي مَـعَ ضَيعَتـي التـي أضَعتُهـا وماضـيَّ المَحبـوسِ وراءَ قُضبـانِ صَمتـي.

لُقمـان لَـم يَتـرُك بيئتَـه. لـم يغـادر الضَيعـة والبَيـت الأبيَـض وجنَينَـة المانغـا و«ربيـع» الصبّـار.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

لـم يَقبَـل أن يَصيـرَ لاجئًـا أو سـائحًا أو تائهًـا عَـن قَلـبِ ثقافتِـه و«ضاحيتِـه» التـي لـم تُغـادِره ولـم يُغادِرهـا. لَهـا نَشَـر العلايلـي وخليـل رامـز سـركيس وسـيوران وتسـيلان وخاتمـي والكُتُـبَ المَمنوعـة، مُسـتَنهِضًا العالميَّـة مـن قَلـبِ شـيعيَّته الذاتيَّـة. صَنـعَ لِذاتـه حيّـزًا مُمانعًـا علـى طريقَتِـه، لتفـاؤل العَقـل، لمُقارَعـة الأفـكار، لِلقـاء الآخَـرِ دونَ خَـوف، حيِّـزًا للآخـرِ ونقيضِـه. فضَّلـت لـو بقـيَ حيًّـا لاهيًـا عابِثًـا يَـزرَعُ السَـمَر والمَعرِفَـة خَلـفَ الأسـوار والأسـفار. فضَّلـتُ لـو لـم يُرسَـمْ بهَيئـةِ ناشِـطٍ سياسـيّ، مُعـارِضٍ مُخالـفٍ مُوافـقٍ لا فـرق. جميعهـا أوصـافٌ متجَهّمَـة لا تُشـبهُ الرجُـلَ ذا القلـمِ البَنفسـجيّ أو مـا كانَـه. فضَّلـتُ لـو لـم يترافَـع عَنـه مَـن ليـسَ مِثلَـهُ وليـسَ مِثلَهُـم. إنمـا حَصَـلَ عَكـس ذلـك. كان واجِبـه أن يُحافِـظ علـى الحَيـاة فـي دارِه، وأن يَضْمَـن انتِقـالَ المَعرِفـةِ بالأجيـال. طبعُـه العَبثـيُّ غَلـب فانقَطَـع حبـلُ الروايَـة. هـي ذي الـ«مـاذا لـو» مـن جديـد، وقدرتُهـا العَجيبـة علـى رَسـمِ جسـورٍ خياليَّـة.

حزِنـتُ حَتَّـى العَظـم لاغتِيالِـه ليلـة الثالـث مـن

شباط ٢٠٢١ في إحدى قُرى جنوب لُبنان، وللعُثُور عليه جُثَّة داخِل سيّارتِه المَركونَة غَصبًا على جانِب الطَريق. وتبيَّن من تَقرير الطَبيبِ الشَرعيّ إصابَت لقمان بستّ رصاصات، خمسة في الرأس وواحِدة في الظَهر. ماتَ وَحيدًا بَعيدًا عَن مربَّعِه الإنسانيّ. مَعَهُ انقَطَعَ حَبلُ رِوايةٍ خَفيّ.

أرى الظَلام السياسيّ يَحطُّ رِحالَه مُرتاحًا. ربَّما كانَ بينَنا ولَم نُدرِك ذلِك، نحنُ الذين تفيأوا يومًا ظِلَّ أحلامِ لبنانيَّتنا.

مؤسسة دَار الجَديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دَارالجَديْد
Dar al Jadeed

من دبّاسِها إلى عَبّاسِها

«الذُهـان أصعَـب مـن العُصـاب، عَكـس مـا يؤكِّـد المعالِجـون النفسـيّون وأطبّـاء عِلـم النفـس». تقولُهـا ليلـى برِقّتِهـا الواثِقـة، وتُتابِـع دون أن تَنتظِـرَ ردًّا، هـي التـي لا تَنتَظِـرُ شـيئًا مـن أحَـد: «يقولـونَ إنَّ المَريـضَ فـي العُصـابِ لا يَعـرِفُ أنَّـه لا يَعـرِف مرَضَـه، ولذلـك يبـدو شِـفاؤه مُسـتَحيلًا. يُحـاولُ الطبيـبُ وسـائلَ شَـتَّى مَـع «العُصابـيّ» ويفشَـل. هـذه النَظريَّـة التـي قـد تُصيـبَ شـيئًا مـن الحَقيقَـة فـي الطِـبّ النفسـيّ، لا تصُـحُّ علـى الأمـراضِ الطائفيَّـة. الذُهـانُ فـي الـداءِ الطائفـيّ هـوَ العَـذابُ الأكـبَـر. أن تَعـرِفَ أنَّـك تعرِف أصْـلَ الـداء وأن تُحـاوِلَ وَسـائلَ شَـتّى لتُبِـلَّ منـه، وأن تبـوء محاولاتِـكَ بالفَشـلِ الذَريـع.

فـي داءِ الطائفيَّـة عُصابُـكَ نِعمَـةٌ ربّانيَّـة لأنَّـه يضيـفُ قليـلًا مـن مَرهـمِ الجَهـلِ المُطلَـقِ إلـى جُرحِـكَ

الطائفـيّ. عِندمـا تكـونُ طائفيًّـا مـن دونِ أن تُـدرِك مَخاطِـرَ هـذا الـداء فأنـتَ حَتمًـا أسـعَدُ شَـخصٍ فـي جُمهوريَّـةِ الطوائـف. أتعَسُـهُم هـوَ الـذي يُـدرِكُ أنَّ سَـرطانَهُ خَبيـثٌ ومُنتشِـر، ويُـدرِكُ فـي الآنِ ذاتِـهِ أنَّـهُ مَهمـا فَعَـلَ لَـن يُكتَـبَ لمُحاولاتِـهِ النجـاح. فـي لُبنـان، عِـشْ طائفيًّـا دونَ أن تَـدري تعِـشْ سَـعيدًا. تأتيـكَ النِّعَـمُ مـن حيـثُ لَـم تَحتَسِـب. أمّـا أن تنتَفِـضَ علـى سِجلّ نُفوسِـكَ وعلـى قَيـدِكَ الطائِفـيّ، فسَـتكونُ مَنبـوذًا مَقصيًـا ومُتمـرّدًا علـى سَـرطانٍ قيـلَ لَـك إنَّـهُ جَميـلٌ ووسـيم، وإنَّـه مناسِـبٌ لَـكَ، ومَقاسـهُ حَفـرٌ وتَنزيـلٌ عَليـك.

أنـا مصابَـةٌ بالنـوعِ الأخطَـرِ مـن الطائفيَّـة: الذُهانـيُّ. يجعلُـكَ تكتشِـفُ بالتَجربَـةِ والمُقارَنَـةِ وعبـرَ خَيبـاتِ الأمَـلِ الكَثيـرَةِ أنَّـكَ مَحبـوسٌ فـي مرطبـانِ ضَغـطٍ مَـع وَرَقَـة لاصِقَـة علـى جِـدارِهِ الزُجاجـيّ الخارِجـيّ تحمِـلُ اسـمَ طائِفَتـك. بإمكانِـكَ طبعًـا أن تَتحـرَّكَ كَيفمـا شِـئتَ داخِـلَ المَرطبـان، وأن تُحـاوِلَ اسـتِحداثَ ثُقـبٍ فـي فُتحتِـهِ أو أيّ مـكانٍ منـهُ لتَخـرُجَ منهـا. ولكـن... مـا إن تَخـرُج إلـى الهَـواءِ الطَلـقِ حَتّـى يُصيبَـكَ الهَريـان والتلَـف.

نَحــنُ بَشــرٌ مَضغوطــون فــي قَواريــر، والأفضَــل أن نَتمنّــى لأنفُســنا العُصــابَ حَتَّــى نَنكَبِــس بســلامٍ واستســلامٍ تامَّيــن. هكــذا نتمّــمُ ونُثَبّــتُ صِفــاتِ هويّاتنــا الهَجينَــة مــن ســاعَةِ الــولادَةِ إلــى ســاعَةِ المَـوت، أيقونـاتٍ مُقدَّسـة؛ أيقونـاتٍ مَلعونـة تَختصـرُ الكَيــان.

تُحيّرُنــي ليلــى. أراهــا تتأرجَــحُ برَشــاقَة لا أفهَمُهــا بَيـن الثَـورَة والاستسـلام. أريـدُ أن أسـألها. أتَمتِـمُ ولا أتجـرّأ. تقـرأ حَيرَتـي فتُمسِـك بِكفّـي، تفتَحهـا نَحـوَ السَـماء، تتأمَّـلُ خُطوطَهـا وتَعـودُ منهـا إلـى خيـوطِ قصَّتِهــا: «عِندمــا أســتَعيدُ ســيرَةَ عبداللــه الحــاج أُدرِكُ أنَّ تَجربَتَــه اســتثنائيَّة. خَــرَجَ خالــي ســريعًا مــن القُمقُــم. سِلسِــلَةٌ مــن الأقــدارِ نَشــلَته مــن مَصيـرِ مَراطبيـن الضَغـط: سـليقَتُهُ الثائـرَة، الشَـيخ محمَــد الزيــن، المســتِر دودج، الجامِعــة الأميركيَّــة فــي بيــروت، الانفِتــاحُ علــى هَــواء أميــركا الطَّلــق وأفــكار جــون ديــوي وجامِعــة كولومبيــا، الاطّــلاعُ الوَثيــق عَلــى تاريــخ لبنــان، تَحالفاتُــه السياســيَّة، والأهــمّ الأهــمّ رائحَــة الفُصــولِ فــي ســاحِلِ المَتــنِ الجنوبـيّ. يَكفـي أن تَثِـقَ بحَواسّـكَ الخَمـس هُنـاك

حتَّـى تَتحـرَّر. طبعًـا مَـع قليـلٍ مـن الإقـدامِ وحِـسّ المُغامـرَة.

تُطلِـقُ ليلـى سـحابَة دُخـانٍ مـن لُفافـة سـيكارَتِها الفرنسـيَّة: «قليلـون يَعرِفـون أنّ عبداللـه الحـاج تَرشَّـحَ لرئاسَـة الجُمهوريَّـة فـي لبنـان. حَـدَثَ أن ترشَّـح محمَّـد الجسـر بَعـد انتِهـاءِ ولايَـةِ شـارل دبّـاس. كانَ دبّـاس أرثوذكسـيًّا وعُـرِف عَهـدُه بآفتَين: الانصيـاعِ الكامِـل للانتـدابِ الفَرنسـيّ (وتَحديـدًا للمُفـوَّض السـامي هَنـري بونسـو)، وتفشّـي الفَسـادِ وتحوُّلِـهُ فـي عَهـدِه إلـى عـادَة».

تقـولُ ليلَـى عَـن الدبَّـاس إنَّـه اسـتخدَمَ معقِّـبَ مُعامَـلات اسـمه عبـاس، سـلَّمَه مَكتَـبَ الخَدَمـات للقيـامِ بالاسـتِحصالِ علـى أوراقٍ ثبوتيّـةٍ ومُعامـلات ووَثائـقَ كانَ المواطِنـونَ يحتاجونَهـا فـي حياتِهِـم اليَوميَّـة. لـم يَتـوانَ عبّـاس عَـن قَبـضِ الرُشـى لِقـاء خِدماتـه. كانَ مَقْصِـدًا للمواطِنيـن يتوجَّهـونَ إليـه كلَّمـا واجَهـوا عَقَبَـة أو أعياهُـمُ إيجادُ وثيقَـةٍ أو أرادوا مُخالَفَـةَ القانـون. أثـرَى عبّـاس، تقَـول ليلـى، وأثـرَى مَعَـهُ مُعلِّمُـهُ الرَئيـس دبّـاس. ولأنَّ القافِيَـةَ مؤاتيَـة،

راجَ مَثـلُ أنَّ الفَسـاد «مـن عبّـاس إلـى دَبّـاس»، أو أنَّ الفَسـاد فـي الدَولَـة «مـن عبّاسِـها إلـى دَبّاسِـها».

أن يتَرشَّـحَ عبداللـه الحـاج لرئاسـةِ الجُمهوريَّـةِ أمـرٌ استِثنائي. أمّـا الخـارِج عَـن كلِّ مَنطِق: أن يَترشَّـح ضِدَّ صَديقِـهِ كميـل شَـمعون. نـالَ يَومَهـا كميـل شَـمعون ٧٦ صَوتًـا، ونـالَ عبداللـه الحـاج صَوتًـا واحِـدًا يُرَجَّـحُ أنَّـهُ صَوتـه أسـقَطَه فـي صندوقَـة الاقتـراع. لَـم يَنَـل خالــي ولَــو صَوتًــا واحِــدًا مــن أصــواتِ المَجلــسِ السَــبْعَةِ والسَــبعين خــارِجَ صَوتــه. فهَــل يحتــاجُ الاختــلاطُ اللبنانــيّ إلــى مَديــح؟ النِظــامُ الطائفــيّ جرّافَــة ســاحِقَة. غــولٌ يثيــرٌ الرُعــب. مســتَحيلٌ أن تَكـونَ مُصلِحًـا فـي نِظـامٍ غَيـر صالِـح! وفيمـا أُراجِـعُ هـذه التَجرِبَـة، أتسـاءَل: أأنـا لُبنانيَّـة؟ ومـا معنـى أن أَكـون ؟ علـى الأقـلّ أُحـاوِلُ مُلـكًا. لكِـن لمـاذا يَمنعُنـا لبنـان مـن أن نَنتمـي إليـه؟

أســتَرجِع عبداللــه وأنظُــرُ إلــى كَفّــكِ يــا ابنَتــي. ثلاثـونَ أمضَيتِهـا «عِنـدَ الأمَـم» ثـم لاحِقًـا فـي إداراتِ الدولَــة والشــأنِ العــام ترفُضيــن التَعليــب. وعِنــدَ اختِمـارِ تَجربَتـك فـي الإدارَة العامَّـة تتَسـاءلينَ عـن

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مَعنـى «الخِدمَـة»؟ كيـفَ تكونيـن فـي خِدمَـة لبنـان عندَمـا تُصَنَّفيـنَ بلَـونِ العُلَـب: عُلَـبٌ شـيعيَّة لبنانيَّـة أو لبنانيَّـة شـيعيَّة؟ شـيعيَّة بَحتـة؟ أم لبنانيَّـة بَحتـة؟ أم خَليـطٌ مُواطِنـيٌّ هَجيـن متَلَبّـسٌ عَـن غَيـر وَعـيٍ ثـوبَ الأمَميَّـة؟ تَتسـاءلينَ إن كانَـت تَجْرِبَتُـكِ فـي الإدارَةِ العامَّـة قيمَـة مُضافَـة؟ ولِمَـن؟ للشـيعَة؟ أم للبنـان؟ وكَيـفَ يـراكِ الشـيعيُّ فـي لبنـان؟ حَليفَـة؟ صَديقَـة؟ متواطئَـة؟ هَجينـة؟ كَيـفَ يَـراكِ السُـنّيّ والمَسـيحيّ والـدُرزيّ و..؟ وكَيـفَ تتَحـدّد علاقاتُـك المِهنيَّـة والانسـانيَّة والحالَـة هـذه؟

فـي سـاحِلنا، يـا ابنَتـي، نَبـدأ حياتَنـا فـي الأزِقَّـة. نَتَربّـى صِبيانًـا وبَنـاتٍ فـي البَسـاتينِ والحَدائِـق وفـي الكَنائـسِ والمَسـاجِد ثـمَّ فـي مَـدارِسَ مُختلَطَـة عَلمانيَّـة وجامِعـاتٍ جامِعـة. فـي هـذهِ المَرحلَـة يَنمـو مَعنـا تدريجيًّـا شـعورُنا أنَّنـا ننتَمـي إلـى اللاطائفَـة. فـي سـاحِلِ المَتـنِ الجنوبـيّ كانَ ينمـو معنـا شـيءٌ سِـحريٌّ يَهمِـس إليـكِ أنَّ باسـتِطاعَتِكِ أن تَكونـي شـيعيَّة وأن تَترشَّـحي إلـى رئاسَـةِ الجُمهوريَّـة لسَـببٍ بَسـيطٍ هـوَ أنَّ شـيعيَّتَك لا عَلاقَـة لهـا البَتَّـة بمَـن أنـتِ ومـا أنـتِ عَليـه. لا تُسـلِّمُكِ الجامِعَـة شَـهادَة الماسـتِرز أو الدكتـوراه

أو الإجـازَة مَمهـورَةً بطائفَتِـك. لا يُقـالُ عَنـكِ إنَّـكِ مارونيَّـة مُجـازَة فـي الحُقـوقِ أو سـنَّية حامِلـة دكتـوراه فـي الطُـبّ أو دُرزيَّـة مُهندِسـة أو... أنـتِ محاميـة وطَبيبـة ومهندِسـة فَقـط.

عَجيـب. كلُّ مـا فـي حياتِنـا مَدَنـيٌّ إلّا النّظـام. أعتقِـدُ أنَّ الأزمَـةَ الحقيقيَّـة ليسَـت فَقـط فـي مـا سَـبَق. أن نُحـاوِلَ العَـودَةَ إلـى ألـوانِ سـاحِلِ المَتـنِ الجنوبـيّ مَمنـوع. مَـعَ الوَقـتِ تَتحـوَّلُ طائفَتُـكِ إلـى دَولَـةٍ روحيَّـة داخِـل الدولَـة الماديَّـة فـي الخـارِج. تَنفَصِـمُ وتَـرى فيـكِ دَولتَيـن: دَولـةً تُؤدلِجُـكِ ودَولـةً لا تهتَـمُّ باسـتِعادَتِكِ إلـى كَنَفِهـا، دولـةً تعيـدُكِ إلـى النَـصّ وأخـرَى يُناسِـبُها أن تَتحوّلـي إلـى كَبيـسٍ طائِفـيٍ فـي المَرطبـان.

أخطَـرُ مـا فـي الأمـرِ أن تَظلَّـي ثائـرَة. كـم يتعـذَّبُ الإنسـان عندمـا يعـرِفُ أنَّ هُنـاكَ دَولـة ممكِنَـة خـارِجَ نُفايـاتِ الدولـة التـي نلتَقـي فيهـا كلَّ يَـوم. دَولـة فيها ألـفُ عبّـاسَ فـي إداراتِ الدَّولـة وعَشـراتُ دبّـاس فـي رأسِ هرَمِهـا وعَـددٌ كبيـرٌ مـن النـاسِ بَيـنَ دَبّـاسٍ وعَبّـاسٍ مَكبوسـونَ فـي مَراطبيـن إلـى أبَـدِ الآبِديـن... آميـن!



علي، لمياء، علياء

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

اليـــأسُ العـــارِف

أنـتِ يـا ابنَتـي، جـزءٌ مـن الرِّوايَة. شـقيقُكِ وشـقيقتُكِ وأنـتِ: حَلقـاتٌ ثَـلاث في قِصَّـة الأجيـال. كانَ عليَّ أن أحمِـلَ سَـيف الثَبـاتِ فـي وَجـهِ الخِطـابِ العُنصـريّ، الإقصائـيّ، اللُبنانَـويّ، الغَبـيّ، وأنتُـم تَـكـبَرون فـي جُنـونِ الحَـربِ الأهليَّـة. كانَ علـيَّ أن أبقـى ثائـرَةً مُنتَفِضَـة كَـي تتَمكَّنـوا مـن العَيـشِ بانسِـجامٍ مَـعَ قيَـمٍ نشـأنا عَليهـا فـي أسـرة مُتعـدِدةِ المذاهِـب الدينيَّـة والاتِجاهـاتِ الفِكريَّـة، كَـي لا يَخطفَكـم وَهْـمُ شَـخصيّات تُنزِلُهـا الذاكِـرة اللُبنانيَّـة فـي مَنزِلَـة «الأيقونـات»، سـواء أيقونـاتٍ مُقدسـة أو أيقونـاتٍ مَلعونـة.

سـنواتُكم الدِراسـيَّة عَلـى مقاعِـدِ مـدارسَ مُختلطَـة عَلمانيَّـة فـي أتينيـه بيـروت ثـم فـي مدرَسـة الـكَرمِل، رسَّـخت فيكُـم قيَمًـا اتَّصلَـت إليكُـم بِحُكـمِ الوِراثـةِ

وصَقَلَها جَوٌّ تربَويٌّ ليبراليٌّ مُنفَتِح. ربما هذا ما غذّى فيكم هَوى الثَورَة، بالمَعنى السِلميّ التَقدُميّ والتَوق الدائمِ إلى الحُريَّةِ الفِكريَّةِ ونَبذِ العُنفِ واحترامِ الحَقّ. أتساءَلُ دَومًا إن كانَ في الأمرِ تراكُمٌ عابرٌ الأجيال. شيءٌ من فرادَةِ الهويَّةِ يتَّصلُ من جيلٍ إلى جيلٍ بحَبلِ سُرّةٍ غَير مَرئيّ. أهيَ قراءاتُ كلاسيكيّاتِ الفِكرِ الفرنسيّ الأوروبيّ من ألبير كامو إلى سيمون دو بوفوار وبوريس فيان؟ أم هيَ العوالِم، مُتخيّلة أو مُستوحاة، لغارسيا ماركيز ويوكيو ميشيما وسائر الآتينَ إلى مَكتبةِ بَيتِنا من أصقاعِ الأرضِ؟ أم تُراثُنا الأدبيّ العربيّ من نَجيب مَحفوظ إلى إدريس الشَرايبي وآسيا جَبار وعبد الرَحمن مُنيف وصُنع الله إبراهيم وغَيرهم؟

لا أذكرُ مَن قالَ إن: «الأدَب هو الرئة الثانية للثَورَة» وإنَّ «الكِتابة تَستفِزُّ الأفرادَ والجَماعات ليَسترجِعوا مَصائرَهم المَسلوبَةَ منهم». ألذلك تُقمَعُ الكَلِمة وتُستباحُ حَياةُ المُفكّرينَ بخَمسِ طلقاتٍ أو أكثَر؟

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

أذكُرُ جيّدًا كتابًا لبروفِسور السَيكولوجيا ستيوارت ليبرمان[١] يفنّد الديناميّاتِ العابِرةَ الأجيالِ ونَظريَّة الاتّصالِ البيولوجيّ كإحدى الآليّاتِ التي تتيح نَقل الميراثِ الثقافيّ للأسرَةِ والمُمارساتِ والمُعتقداتِ من جيلٍ إلى جيل. فهل كانَ هَوى الثَورَة «بالميراث» ما دَفعَكم إلى الاستِجابَة للنِداء؟ نِداء دَمٍ لا يُقاوَم؟ هل تَسرَّبَت بِمُقتضى النشأةِ القوَّةُ الجينيَّة لِحُلْم المُساهَمة في بِناء دَولَة وربَّما مُستَقبل يجنّبُنا يومًا عَيشَ القَلق وتَكبُّد الرُعب وتَحمُّل الانفِصال وأوجاعًا، آهٍ منها، عانينا منها رَدحًا طويلًا ونَحنُ نعيشُ الحَربَ على مَقربةٍ من «خط التَّماس» الفاصِلِ بَينَ حَنينِ الياسَمينِ وقَسوَة الرَصاص؟

أنتُم أولادي، جِزءٌ من الروايَة، حَلقاتٌ ثَلاث في قِصَّة الأجيال. شقيقتُك علياء الطالبَة البارِعَة في المَدرَسة الوَطنيَّة للإدارة في

(١) ستيوارت ليبرمان: طبيبٌ نَفسيٌّ وباحِثٌ من جامعة القديس جاورجيوس في لندن. صاحِب نظريّات عن محافظة الأسرة على هوِّيتها وثقافتها الفريدة وآليّات جينيَّة تساهم في انتقال التقاليد الأسريَّة من جيلٍ إلى آخر. يرى أن الاتّصال البيولوجيّ إحدى الطُرق لنقلِ الخصائص إلى الأجيال التالية.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

فرنسـا، المُكْتَنِـز قلبُهـا شـغَفًا «بيولوجيًّـا» بالشـأنِ العـام، عَقـدَت العَـزمَ علـى الهِجـرةِ المِهْنيَّـةِ بَعـدَ أن سَـمِعت مُديرَهـا المَهْـزُومَ مرَّتيـن أمـام ذكائهـا يقـول: «بعـد ناقِصنـا وحـدة شـيعيّة تتْفَلَسـف عَلينـا». هاجَـرَت إلـى البَنـك الدُوَلـيّ وارتَقَـت إلـى مناصِـبَ رَفيعـة ثُـمَّ حَطَّـت رِحالَهـا كبيـرةَ الاقتصادييـنَ فـي مَصـارِف عالميَّـة وأصبَحـت الـ Miss Alia إنكليزيَّـة. أبَـتْ أن تنصـاعَ لمِعادَلـةٍ قاتِلَـة: أن تَكـون شـيعيًّا ١٠١٪ أو لا تكـون. أبَـتْ أن تَتقَـدّمَ هويَّتهـا الشـيعيَّة علـى الهويَّـة اللُبنانيَّـة. عَرَفَـت بـ«الميـراث» (كمـا عَـرَف خالَهـا ابراهيـم مـن قَبلِهـا عِندمـا سُـدَّت أمـامَ طُموحِـهِ أبـوابُ رئاسـةِ جامِعَتِـهِ الغاليـة) أنْ لا مَـكان لَهـا فـي المُعادَلَـة الفاشِـلة. أنـتِ خـارِجَ المعادَلَـةِ إذا كنـتِ خـارِجَ الطائِفَـة. لا وجـودَ لهامِـشٍ علـى الحُـدودِ الإقليميَّـةِ للطَوائِـف. لا وجـودَ لفَضـاءٍ دبلوماسـيٍّ أو لفُسـحةٍ لا احتِـكاكَ لـكِ فيهـا مِـعَ الجِسـمِ الطائفـيّ. احتـكاكٌ نَتيجَتُـه الحَتميَّـة قُـروحٌ مزعِجَـةٌ وجِـراحٌ مَفتوحَـةٌ عَبـرَ الأزمنـة.

أنـتِ، علِقـتِ فـي الشـقوقِ بمَعيَّـة هويَّتَـك

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

«الفرنكوفونيَّـة» الحالِمـة. اختَـرتِ الأمـلَ مذهبًـا وحاجَجـتِ بنَظريَّـة ماركـس للتراكُـم الكَمّـيّ الـذي يـؤدّي إلـى تَغييـرٍ نَوعـيّ. قُلـتِ يومًـا بِـكلّ عِـزَّة علـى منبـرِ تكريمِـكِ فـي دارَة فرنسـا فـي «قصـر الصنوبـر» إنَّ: «الدَّولـة القـادِرة هـيَ الطَريـقُ إلـى المُسـتقبل»، وإنَّ: «الدَّولـة القـادرة هـيَ مشـروعُنا ولـهُ مسـتقبل».

عُدنـا لقـوَّةِ النَمـوذَجِ الـذي تُحرِّكُـهُ التَّجرِبَـة البنّـاءَة. تَجرِبَـة التَماهـي مَـعَ الـذاتِ اللُبنانيَّـة، مَـعَ بِنـاء المؤسَّسـات، والأهـمّ الأهـمّ مَـعَ تَجرِبَـة بِنـاء دَولَـةٍ تَكـونُ مرجِعيّتُهـا مَرجعيَّـةً حَصرّيَـة ووَحيـدَة.

وجَـدتِ نَفسَـكِ، يـا ابنَتـي، أسـيرَةَ شُـقوقٍ فـي بنـاءٍ مُتَرنّـح. قاوَمـتِ عِشـرينَ عامًـا بشَـجاعةِ وقناعَـة «دون كيشـوت». تَخَلَّيـتِ عَـن وظيفتِـكِ الأمَميَّـةِ المُعتَبَـرة دونَ «رفّـة جَفْـن» لتَدخُلـي عالـمَ «الخِدمَـة العامَّـة» مـن البـابِ الفَرنسـيّ العَريـض، وتتَحولـي إلـى كادرٍ قيـاديّ عـالٍ فـي الدولـة اللبنانيَّـة، وتَبنـي بإصـرارٍ مُدهِـشٍ مؤسَّسـة أصبحَـت رائـدة: «المَعهـد

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

المالـي»[٢] الـذي أُهـدِيَ لاحِقًـا لِذِكـرى شَـهيدٍ شـابٍ آخـر: باسِـل فليحـان[٣].

طالما سَـمِعتُكِ تُرَدِديـن أنَّ السَّـلام والتَنميَـة حُلمـان تحقيقُهمـا مُتعـذّرٌ دون الدولـة القـادِرة، وأنَّ هـذا يَعنـي إدارةً عَصريَّـة مَبنيَّة علـى الجَـدارةِ والمَهـارةِ بمَنـأى عـن الفَسـادِ والزَبائنيَّـة، إدارة تَرتَقـي بالعَقـدِ الاجتماعـيّ ليُصبِـحَ عَقـدَ ثِقـةٍ مُتبادلـة بَيـنَ الدَّولـةِ ومواطِنيهـا. دَولـة تقـومُ بإعـدادِ القـادَة لتولّـي المَهـام وتُنـادي بالتعلُّـم المُسـتمرّ المُرتَبـط بـالأداء. أمـران هُمـا فـي صلْـبِ تَكويـنِ

(٢) معهـد باسـل فليحـان المالـي والاقتصـادي: مركـز مميّـز يعمَـل علـى تطويـر القـدرات الوطنيّـة فـي إدارة المـال العـام. إلى دوره الوطنـيّ يـؤدي دورًا إقليميّـًا كمركـز الأمانـة العامـة لشـبكة معاهـد التدريـب الحكوميـّة فـي الشـرق الأوسـط وشـمال أفريقيـا MENA-GIFT ومركـز تدريـب إقليميّ لمنظَّمـة الجمـارك العالميـة WCO. فيه مركـز توثيـق ومكتبـة عامـة.

(٣) باسـل فريـد لبيـب فليحـان (١٠ أيلـول ١٩٦٣ ـ ١٨ نيسـان ٢٠٠٥): نائـب ووَزيـر اقتصـاد لبنانـي. هنـدَسَ المؤتمـر الاقتصـادي «باريـس ٢» برعايـة الرئيـس الفرنسـي جـاك شـيراك (باريـس ٢٠٠٢) وبموجبـه منحَـت دول وهيئـات اقتصاديّـة دوليّـة لبنـان قروضًـا ومسـاعدات بقيمـة ٤,٦ مليـار دولار. قضـى بسـبب حـروق بليغـة ـ بعـد شـهرين مـن مقتـل رئيـس الـوزراء رفيـق الحريـري ـ إذ كان يجلـس فـي سـيّارته وجـواره يـوم الاغتيـال فـي ١٤ شـباط ٢٠٠٥.

مَشـروعيَّة الحُكـمِ، ورُكنـانِ مـن مشـروعِ الدَّولـة. وطالمـا سَـمِعتُكِ تناقشـين أنَّ الحَوكمـة الجَيّـدة لا تَسـتتِبّ إلّا بالتَخطيط المَبنـيّ علـى سياساتٍ عامَّـة أساسُـها الحُجَـج والبيّنـات. كنـتُ أراكِ تعمَليـن بشَـغَفٍ وتَصِليـنَ اللَيـلَ بالنهـار والشَـرقَ بالغَـرب. تحاججيـن دونَ كَلَـل كلَّ مَـن أبـدى ارتيابًـا بهـذا المَنْطِـق أو مَظَنَّـةً تـؤدّي وفْـق قولـكِ بالمؤسَّسـات إلـى الفشَـلِ، وصـولًا إلـى الحـدِّ الفاصِـلِ بَيـنَ غَلَبَـةِ الدولَـة وانكسـارِها بَيـنَ مَذلَّـة الإنسـانِ ورفاهِـه.

هـا نحـن يـا ابنتـي نعيـشُ علـى وقـعِ تجـدُّد الأزمـات فـي بـلادٍ يمزّقُهـا القَلـقُ ويرهِقُهـا فقـدانُ الثِقـةِ وتتهـاوى فيهـا المعانـي والمبـادئ وتختلِـطُ فيهـا صـورَةُ الأوطـانِ بالقبائـلِ والديانـات، أكتُـمُ سـؤالًا لا بُـدَّ يؤرقُـكِ: أيـنَ الخَطـأ فـي عشـرينَ أمضَيتِهـا فـي صِناعَـة حُلُـمٍ آمنـتِ بِـه؟ أيـنَ الخَطـأ فـي كلامِ ذلـك الثائـرِ الاشـتراكيّ المُصنَّـف طوباويًّـا حيـنَ قـال: «ليـسَ للمسـاكينِ سِـوى الدَّولـة»؟

وَحـدَهُ علـيّ، الرجُـلُ المُتَبصّـرُ الحَكيـم، انتَفـى مـن زَخـارفِ الشـأنِ العـام والأحـلامِ المُسـتَحيلَة،

وحــدَّدَ لنَفسِــه فلسَــفةً نقيَّــة خاصَّــة بــه رَسَــمت لَــه خَريطــةَ الخَيــرِ والشــرّ، والحَــقّ والواجِــب. طُموحُــه الكَبيــر تَكَشَّــفَ مــن وراء مَظهَــره الهــادئ، صِفــةً لنفــسٍ كبيــرة وســندًا قويًــا نرنــو إليــه جميعُنــا بدَهشَــةٍ وإعجــابٍ وبالكثيــر الكثيــر مــن الحُــبّ والامتِنــان.

بُنّيَّتــي: فــي بَيــت خالــي عبدللــه كمــا فــي بَيــت أبــي ومَــع رِفــاق إخوتــي ثَــمَّ علــى مَــدار السِــنين، أصغيــتُ إلــى نســاءٍ ورجــالٍ مــن جميــع المذاهِــبِ والمشــارِبِ المِهنيَّــةِ والسّياســيَّة والاجتماعيَّــة مِمَــن كرَّســوا للشــأنِ العــامِ ولهــذه البِــلاد طاقاتِهــم وأفضَــلَ ســنواتِهم وأحيانًــا حياتَهــم نفسَــها. لاحظــتُ التناقُــضَ الكبيــرَ بَيــنَ شَــهْوَةِ السُــلطةِ لــدى بَعضِهــم ومَواثيــق سياســيَّة تســمَحُ بتقاسُــمِها علــى قواعِــد المُفاصَلَــةِ والمُبادَلَــةِ والإعــراضِ. وكثيــرًا مــا تســاءلْتُ: هــل أعتَــرِفُ لَكُــم أنَّنــي كَفَــرتُ بنظريَّــة التَراكُــم؟ وأنَّنــي بَعــد هــذه الســنوات والشَــيبُ يشــهَدُ عليهــا، صِــرتُ ميّالــة إلــى نظَريَّــة أخــرى هــيَ نظريَّــة القَطيعَــة: قَطيعَــة مَعرفيَّــة، قَطيعَــة لاهوتيَّــة، قَطيعَــة

القَطيـع والقَطـع والإقطِـاع والقِطَـع... جميعهـا لا تعنينـي بـل تعنينـي لحظَـةُ قَطيعَـة توصِلُنـا إلـى Breaking point لحظَـةٌ تَخلُـق فِعـلَ انشِـطار. جميـع المُحـاولات لبِنـاء دَولـة مُنـذُ عَهـدِ خالـي عبداللـه، ولـم نَصِـل بَعـدُ إلـى لحظَـةِ قَطيعَـةٍ مؤسِّسَـة. جُـلّ مـا نفعَلُـه: أن نتصالـحَ حينًـا مَـعَ المَذهبيَّـة وحينًـا آخـرَ مَـعَ الأوليغارشـيَّة، ثُـمَّ مَـعَ تحالُـفِ الاحتـكارِ والطَوائـف. ألَـم يَحِـن بَعْـدُ زَمَـنُ القَطيعَـة؟ فِكـرةُ القَطيعَـةِ تُخيـفُ، أعـرف. الجَميـعُ يؤيّـدُون ويعمَلُـون وفـقَ مَنهـجِ التَراكُـم. تعوَّدنـا فِكـرةَ التَراكُـم. استسـلَمنا وسـلَّمنا وهـذا شـكلٌ مـن أشـكالِ الخُضـوع. لكـنَّ عالمُنـا يكَـذِّب فِكـرَة التَراكُـم.

«شـدَّة القُـربِ حِجـابٌ»، يقـولُ أحَـدُ المتَصَوِّفَـة. ربَّمـا قَدَرُنـا الابتِعـاد لكَـي نَذهَـبَ إلـى القَطيعَـة. أصـلُ النِقـاش تَفصيـلًا وتَشـخيصًا مُفيـدٌ لِفَهـمِ مـا سـيأتي. وأخشـى مـن مِـزاجٍ مَذهَبـيٍّ يُرخـي بِظـلالٍ ثقيلـةٍ علـى بلادِنـا، يكـون أقـوى مـن تنظيمـات سياسـيَّة تَرعـاهُ وتُغذّيـه، وأَخطـرَ مـن الأحـزابِ الطائفيَّـة. هـي آفَـةٌ طبَعَـت جيـلًا كامِـلًا، وانحسـارُها

لَـن يَكـونَ قَريبًـا. إنهـا مرحَلَـة نُقابِلُهـا بِوَعـيٍ خـارِجٍ عَـن المألـوف. ربَّمـا يُمكـنُ تَعريفُـهُ باليـأسِ العـارِف: نتيقَّـنُ أنَّنـا يائِسـون مـن تَغييـرِ المُعادَلَـة وأن يكـونَ يأسُـنا مُتيقِّنًـا مـن أسـبابِ يأسِـه. هـذا مـا نَحْـنُ عَليـهِ اليَـوم. ليـسَ عَجزُنـا نابِعًـا مـن وَهـنٍ فـي إرادَتِنـا أو إحبـاطٍ نَفسـيٍّ أو انهِيـارٍ عَصَبـيٍّ، لا سَـمَحَ اللـه.

إنَّهُ يأسٌ عَلى بيِّنَة.

ثورَتــي وَصيَّتــي

رَبَّيتُكـم، أولادي، لـم تَعرِفـوا إلّا لاحقًـا أيَّ ديـنٍ مُـدوَّنٍ علـى قيودِكُـم. ولَـولا حَـربُ ١٩٧٥ اللَعينـة لَمـا عَرفتُـم. الفَـرقُ بَيـن الشـيعَةِ والـ«شـيعَة» دَخَـلَ حَياتَنـا كالصَدمَـةِ عِندمـا صَدَحَـت مـن مِئذنـةِ جامِـع قرنـوح سـابقًا، المهـدي بتسـمية اليـوم لُغـةً ليسَـت لُغتَنـا، وأصبَحنـا بَيـنَ ليلَـةٍ وضُحاهـا فـي غَيـرِ منازِلِنا، غُربـاء فـي ديارِنـا.

أنـا، يـا ابنَتـي، لـم أعِ الفَـرقَ بَيـنَ الأديـان والمَذاهِـب عِنـد دُخولـي مَدرَسـةَ المَقاصِـدِ الإسـلاميَّة فـي المَرحلـةِ الابتدائيّـة، ولا عِندمـا تَعلَّمـتُ تاريـخَ الحُسـين حَفيـد رَسـول اللـه مُحمَّـد وثانـي أبنـاء الإمـام علـيّ بـن أبـي طالِـب وفاطِـمـة الزَهـراء بنـت الرَسـول. لـم أكُـن أعـرِف قِصَّـة البَغيـضِ شِـمْر بِـن ذي الجَوشَـن[1] وخيانَتِـه أمانَـة أهـلِ البَيـت

(١) شِـمْر بـنُ ذي الجَوشـن: بعـد أن قاتـل مع علـي فـي معركـة صفّيـن

بَعدَمـا كانَ مـن أصحـابِ الإمـام عَلـيّ مُقاتِـلًا شَرِسًـا إلـى جانِبـهِ فـي مَعرَكـةِ صِفّيـن، مُدافِعًـا عَـن إسـلام الرَسـول. كَيـفَ يَنقَلِـبُ العَهـدُ خيانَـةً بهـذه الخِفّـة؟ مـا سِـرُّ البَغضـاء تُقَلِّـبُ مَـن أمَّنَتـهُ علـى أهلِـك، عَليهِـم؟ كَيـفَ أصبَـحَ شِـمْرُ بـن ذي الجَوشَـن مُحرِّضًا شَـريكًا فـي قَتـلِ «سـيّدِ شَـبابِ أهـلِ الجَنَّـة» وأسْـرِ مَـن بَقـيَ حيًّـا مـن نِسـاءِ البَيـتِ وأطفالِهـم؟

شَـهِدتُ علـى عاشـوراء[٢] بدموعِهـا وحُـزنِ مَجالِـسِ العَـزاءِ، وصَـوتِ «القارئـة» المَسـرحيّ يلطُـم الفاجِعة، وبُـكاءِ النَسـاءِ يَعلـو ويَنخَفـض مَـع تَـرَدُّداتِ صوتِهـا وهــي تَســرُدُ تَفاصيــلَ المَقتَـلِ علــى منبَـرِ هالَتِهـا. صــوتٌ كأنــه آتٍ مــن قَلــبِ المَعرَكــةِ، يســتَحوذُ علـى الحـواسّ، يَجتـاحُ العِظـام، يجعَـلُ منـكِ ثائـرةً منتَفِضـةً رُغـمَ أنفِـكَ. شَـهِدتُ فـي طفولتـي علـى

انقلـب عليـه وهـو أشـهر قـوّاد مَعركـة الطـفّ التـي انتهَـت بمقتل الحُسـين بـن علـيّ وأهـل بيتـه وأسـرِ نسـائه وأطفالـه. تقـول الروايـات إنّـه ومعاويـة حثّـا جُعـدة بنـت الأشـعَث زوجـة الحسـن علـى دسّ السُّـم لـه لقتلـه.

(٢) عاشـوراء: يـوم الجُمُعـة العاشـر مـن شـهر محـرم عـام ٦١ للهجـرة قُتـل الحسـين بـن علـي بـن أبـي طالـب فـي معركـة كربـلاء. تُقـامُ مجالـس العَـزاء طـوال أيّـام الذكـرى وقـد تطـوّرت المراسـم وتشـعبّت مـع انتصـار الثـورة فـي إيـران.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

عاشـوراء وعلـى طَعـمِ القَمـحِ اللَـزِجِ المَطبـوخِ مَـعَ اللحـمِ حتَّـى النُضـوجِ والمَعـروفِ بالــ «الهَريسَـة»[٣]، وعلــى حَلــوى «الراحَــة مَــعَ البســكوت»، أطبــاقٌ نوزِّعُهـا «عَـن روحِ أبـي عبداللـه» لإطعـامِ الفُقـراءِ وكَسـبِ الأجْـرِ والثـوابِ بالمَعنـى الدينـي.

أنـتِ أيضًـا لـم تَعرِفي الفَـرقَ بَيـنَ الأديـان والمذاهِب عِنــدَ دُخولــكِ مَدرَســة الراهبــات اليســوعيّات، ولا قِصَّــةَ البَغيـضِ شِـمْر بِـن ذي الجَوشَــن، حتَّـى جـاءَ يـومٌ سـألتِ جدَّتـكِ بَلقيـس عَـن الشـيعَةِ فلَقَّنَتْـكِ علـى طريقَتِهـا تاريـخ الحُسـين.

مَعًـا حَضَرنـا مجالِـسَ العـزاء وأصغَينـا إلـى صَـوتِ المَعرَكـة. معًـا بَكَينـا حُسـينًا، ولَعَنّـا الشِـمْرَ وردَّدنـا علـى طَريقَتَنـا: «هيهـاتِ منّـا الذُلّـة». وفَهِمـتِ يـا ابنتـي أنَّ الشِّــمْرَ لَـم يكـن شَـخصًا مُحـدّدًا وسـطَ إطلاقنـا اللعَنـات. كانَ ضِفّـةً تُعيـدُ تَصويـبَ بوصُلَـةِ

(٣) الـ «هريسـة»: أيّـام عشـوراء يُطبخ القمـح الكامـل مـع اللحـم حتـى النضـوج ويُخفـق حتـى يتحـوَّل مزيجًـا سلسًـا ويـوزّع علـى كلّ مـن يحضـر المجالـس عـن روح الحسـين وصحبـه. كمـا يـوزّع كعـك العبّـاس وراحـة الحلقـوم.

اللعنَـة علـى البَغضـاءِ والحِقـدِ والغَـدرِ وكلِّ أشـكالِ الظُلـم. كلُّ ظالِـمٍ صـارَ شِـمرًا. كلُّ حاقِـدٍ وقاتِـلٍ وغـادِرٍ هـوَ شِـمْرٌ. الصِـراعُ علـى السُـلطَةِ يَصـرعُ الحـقَّ وهـذا بالتَّحديـدِ مـا حَصَـل فـي كَربـلاء[4]. وهـذه هـي حَقيقَـة البُعـدِ الإنسـانيّ الأرحَـبِ والأوسَـعِ الـذي نَشـأنا عَليـه. يـوم قُتـل الحُسـين قُتلَـت مَعَـهُ فِكـرَة المُصلِـح وانتَصـرَ الظُلـم علـى الحَـقّ والخيانـة علـى الأمانَـة.

---

(٤) كَرْبَلَاء: سـابع أكبـر مدينـة ديموغرافيًّا فـي العـراق، ومركـز محافظـة كربـلاء، فـي منطقـة الفـرات الأوسـط، نحـو ١٠٠ كلـم جنوبـيّ العاصمـة بغـداد. هـي أهـم المـدن المُقدّسـة لـدى الشـيعة، تضـم ضريـح الإمـام الحسـين بـن علـي وأصحابـه الذيـن استشـهدوا معـه فـي واقعـة الطَّـفّ. ورد أنّ اسـمها يعنـي «كـور بابـل» أي مجموعـة قـرى بابليـة. خالـف ذلـك بعـض الإخباريـين المتأخريـن فقالـوا إن الاسـم هـو مـن «الكـرب والبـلاء» عـن فاجعـة مقتـل الإمـام الحسـين بـن علـي سـنة ٦١ هجريـة. تحوّلـت إلـى معلـم دينـي كبيـر يؤمّـه الشـيعة مـن جميـع أنحـاء العالـم للزيـارة، خصوصًـا فـي المناسـبات الدينيـة، فـي مُقَدِّمتهـا المراسِـم التـي تقـام فـي شـهري محـرَّم وصفـر مـن كل عـام، ومـن أهمهـا زيـارة الأربعيـن الراجلـة حيـث يتوجـه ملاييـن الزائريـن منطلقيـن مـن قـرى ومـدن العـراق وخارجـه، مُتَوجّهيـن نحـو ضريـح الإمـام، ويحتَشِـدُ فـي كربـلاء ملاييـن الزائريـن بمناسـبة ولادة الإمـام المهـدي فـي النصـف مـن شـعبان. وفـي كربـلاء حَـوْزَةٌ عِلميّـةٌ تخـرّج منهـا كبـار العلمـاء والمفكريـن الشـيعة. المصدر: بتَصرّف عن موسوعة ويكي شيعة ـ كربلاء

وضعــتُ إطــارًا عاطفيًّــا وعقليًــا ثابِتًــا لِمَوقِفــي مــن عاشــوراء ومــا تُمثِّلُــه. إلغائــيَ البُعــدَ الشّــخصيّ جعَلَنــي أتحــرَّر مــن التهمَــة. جَمَعــتُ لَكُــم الأدلَّــة التــي تُثبِــتُ لَكُــم أنَّ الإمــامَ كانَ مُهندِسًــا للمُجتَمَــعِ والإنســان، وصَوتًــا صارِخًــا فــي قَــولِ الحَــقّ وفــي رَفْــضِ اســتِعبادِ الإنســان للإنســان. جمعــتُ لَكُــم الأدلَّــةِ الّتــي تُثبِــتُ لَكُــم أنَّ العَــزاءَ الحُســينيَّ ليــس نُواحًــا ولَطمًــا ودِمــاءً وبُــكاء ولا طَمَعًــا بالــ«هريسَــة»، بــل هــو عَــزاءٌ بالمِعنــى الإنســانيّ الصافــي للثَّــورةِ الحُســينيَّة[٥] كمــا حَدَثَتْنــي عَنــهُ بَلقيــس نَقــلًا عَــن جدّهــا

(٥) الحسـين بـن علـي بـن أبـي طالـب: «سـيد الشـهداء»، يكنـى بأبـي عبـد اللـه. هـو ثانـي أبنـاء الإمـام علـي وفاطمـة الزهـراء والحفيـد الثانـي للرسـول محمـد وثالـث أئمـة الشـيعة. تولّـى الإمامـة بعـد مـوت أخيـه الإمـام الحسـن لعشـر سـنين، حتـى استشـهاده فـي واقعـة الطّـف يـوم العاشـر مـن محـرم للهجـرة (١٠ تشـرين الأول ٦٨٠). تذكـر المصـادر الإسـلامية شـيعةً وسـنةً أن النبـي هـو مـن أسـماه حسـينًا بعـد ولادتـه، وأخبـر أنـه سـوف يُقتـل علـى يـد مجموعـة مـن أمتـه. وكان النبـي أطلـق عليـه لقـب «سـيّد شـباب أهـل الجنـة» وقـال: «الحسَـنَ والحُسَـيْن سـيِّدا شـبابِ أَهْـلِ الجنَّـةِ». وأضحـى شـخص الإمـام الحسـين بعـد استشـهاده فـي الأوسـاط الشـيعية وغيرهـا، رمـزًا للمطالبـة بالحـق وعنوانًـا للشـجاعة والشـهادة، ولواقعـة قتلـه أثـر بليـغ فـي نفـوس الشـيعة.
المصدر: بتصرّف عن موسوعة ويكي شيعة ـ الإمام الحسين بن

الشَـيخ يوسِـف الصّبّـاح، وكمـا حَفِظتُـهُ غيبًـا، طِفلَـةً مفتونَـةً بشـجاعةِ الحُسـين ثـمّ شـابّة قارئـةً تاريخـه كمـا نقَـدَهُ وحَلَّلـهُ الشَـيخ الجَليـل العلّامـة عبداللـه العَلايلـي[٦].

وَصيَّتـي لَكُـم أن تكونـوا حُسـينيّين بهـذا المَعنـى، وأن تقـرأوا نَقديًّـا تاريخًـا لَكُـم «يَعيـشُ فـي الخُلـود ويَحمِـل شـارَة العِظَـمَ»، وأن تتَّحِـدوا مَـع قِيَـمِ الحُسَـين، لا فولكلـورَ كَربـلاء، فـلا تُكابِـروا ولا تتَكبَّـروا علـى أخيكِـم الإنسـان مَهمـا ضَعُـف. واحفَظـوا وَصيّـةَ الشَـيخِ العلايلـي حيـنَ كَتَـبَ فـي الحُسـين:

(٦) عبـد اللـه العلايلـي: لغـويّ موسـوعيّ وشـيخٌ لبنانـيّ حلُـمَ ببـلاد لا طائفيّـة متصالحـة مـع العصـر. وِلِـدَ يـوم ٢٠ تشـرين الثانـي ١٩١٤ وتوفـي فـي ٣ كانـون الأول ١٩٩٦. كتابـه الأوّل، **مقدّمَـة لـدرس لغـة العـرب أو كيـف نضـع المعجـم الجديـد**، أحـدث ـ يـوم صـدوره فـي مصـر وهـو طالـبٌ أزهـريٌّ ـ دويًـا. عـاد إلـى لبنـان وكاد أن يصبـحَ مُفتيًّـا للجمهوريّـة. أسّـس مـع كمـال جنبـلاط الحـزب الاشـتراكي. أفـكاره التقدّميّـة أبعدتـه عـن سياسـة السياسـيين. كتـب وألّـف وسـاهم وسْـعه فـي الشـأن العـام وفـي افتهـام اللغـة والتاريـخ. حـاول الانكبـابَ علـى تأليـف معجـم ـ موسـوعيّ يبحـث فـي أصـول الكلمـات. جهـوده الفرديّـة أثمـرت مطالـع معاجـم غيـر مكتملـة. أصـدر **أيـن الخطـأ** وهـو كتـاب يضـمّ مجموعـةً مـن الفتـاوى الجريئـة فهـو مقتنـع بـأن: «لَيْـسَ مُحَافَظَـةً التقْلِيـدُ مَـعَ الخَطَـأِ؛ وَلَيْـسَ خُرُوجًـا التَّصحِيـحُ الَّـذِي يُحَقِّـقُ المَعْرِفَـة». أعـادت دار الجديـد إصـداره مـع تصديـر بقلمـه عـام ١٩٩٢.

«إنَّ الإنسـانَ المُسـتألهَ يَحتـاجُ إلـى مُصلِـحٍ يَـرُدّه إلـى طَبيعَتِـه فـي حُـدودِ الحَقيقـة». وأصِـرّوا علـى إبقـاءِ جُـذوةِ الإصـلاحِ متألقـةً فـي صدورِكـم، فـلا تقبَلـوا تدنيسَـها بإيديولوجيـا أو دوغمـا أو مِلَـل. لا تُخمِـدوا نارَهـا بسَـكينَةٍ أو ضعـفٍ أو استسـلامٍ لِقَـدَر، لأن حُسـينًا هـو المُصلِـحُ الأوَّل، ولأنَّ فـي قَـولِ العلايلـي الحَـقّ: «فـي روحِ كلّ مُصلِـحٍ بَـدَواتٌ مـن روحِـك، وفـي ضَميـرِ كلّ مُجاهِـدٍ قَبَـسٌ مـن ضِيائِـكَ...».

أعتَـرِفُ الآن أنَّنـي لَـم أتحـرّر يومًـا مـن حَنينـي إلـى ساحِلي ولا أردّتُ فـكّ الوِثـاق. وهـا أنـا أُوْدِعُكُـم إيّاه مَـعَ قِصَّتـي العاديَّـة جـدًّا: قِصَّـة بَلقيـس ومُصطفـى الحـاج وجِريـس الطيّـار وجدَّتـي الحاجَّـة ماريَّـا الصّبّـاح وخالـي عبدالله الحـاج وابـن عَمّـي مُحسِـن سـليم وابنـه لُقمـان.

إنهـا قصَّـةُ ذلـك المَـكان البَهـيّ حَيـثُ ترَعرَعـتُ. مَنزِلـي الـذي مـا هَجَـرْت.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

الأحداث الرئيسة بين آب ١٩٥٠ و١٩٥٤

١٩٥٠

٨ آب تَعديـل قانـون الانتخـاب وزيـادَة عَـدَد المقاعِـد النيابيَّـة مـن ٣٥ إلـى ٧٧، وتَجزئـة محافظـة جبـل لبنـان إلـى ٣ دوائـر (كِسـروان، بعبـدا ـ المَتـن، الشـوف ـ عاليـه) والشـمال إلـى ٣ دوائـر (عـكّار، طرابلـس ـ الضنيَّـة، زغرتـا ـ البتـرون ـ الكـورة) والهـدف: تأميـن أكثريَّـة نيابيَّـة مناصـرةٍ رئيـسَ الجمهوريَّـة تَضمَـن تَعديـل الدسـتور لتَجديـد الولايّـة الثانيَـة.

١٩٥١

١٣ شـباط حسـين العوينـي يـرأس الحكومـة خلفًـا للرئيـس ريـاض الصلـح الـذي اغتيـل فـي الأردن.

آذار عبـد الله الحـاج يُشـارك فـي تشـكيل أوّل نـواة لمعارضـة الرئيـس بشـارة الخـوري، خـلال لقـاء سياسـي وقّـع خلالـه الحاضـرون وثيقـة تتبنّـى مشـاريع إصلاحيَّـة ذات سـمة اجتماعيَّة طرحهـا الحـزب التقدمـي الاشـتراكي. ضـمّ اللقـاء: كمـال جنبـلاط وأنـور الخطيـب (الحـزب التقدمـي الاشـتراكي)، غسـان توينـي (الحـزب السـوري القومـي الاجتماعـي المحظـور) راجـي السـعد

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

وشفيق الحلبي (الكتلة الوطنيَّة)، كميل شمعون، إميل البستاني، فضل الله تلحوق، سالم عبد النور، عبد الله الحاج.

٢٤ آذار إطلاق نار على نَصيرَي عبد الله الحاج: حسن علامة وعباس أمين الحاج مصدرُهُ أقارب المرشَّح حسن فرحات (المُقرّب من النائب سليم الخوري شقيق الرئيس بشارة الخوري).

٢ نيسان

قبل ١٣ يومًا من الانتخابات النيابيَّة وتحت ضغط رجال الدين، أقَرَّ مجلس النواب قانون توسيع صلاحيات المحاكم الروحية للطوائف المسيحيَّة والطائفة اليهوديَّة.

نقابة المحامين ترفض القانون وتوسيع صلاحيات المحاكم الدينيَّة تحت الضغط، تتقدم بمشروع قانون مدني للأحوال الشخصيَّة، وترسله إلى الحكومة طالبةً عرضَه على مجلس النواب.

٥ نيسان عبد الله الحاج مرشّح على لائحة انتخابيَّة واحدة معارضة في دائرة الشوف وعاليه.

١٥ نيسان

• الانتخابات النيابيَّة: فوز عبد الله الحاج على حسن فرحات في دائرة بعبدا ـ المتن بفارق ٢٢٣ صوتًا.

• فوز الكتلة الوطنيَّة بثلاثة مقاعد من أصل ٩، بينهم عبد الله الحاج وإيليا أبو جودة وديكران توسباط.

• فوز الكتلة الوطنيَّة بخمسة مقاعد من أصل ٩ في دائرة الشوف، بينهم كميل شمعون وكمال جنبلاط وإميل بستاني وغسان تويني وأنور الخطيب.

• خسارة الكتلة الوطنيَّة في كسروان ـ جبيل.

٢١ أيار عبد الله الحاج عضو«الجبهة الاشتراكيَّة الوطنيَّة» أول كتلة برلمانيَّة معارضة ذات برنامج إصلاحي اجتماعي: كمال جنبلاط (أَمينا عامًّا)، وعضويَّة النواب كميل شمعون، غسان تويني، أنور الخطيب، إميل بستاني، بيار إِدّه، ديكران توسباط.

٥ حزيران استقالة حكومة حسين العويني.

١٣ حزيران عبد الله الحاج (بصفته «واحدًا من الشعب ووكيلًا عن المُكلّف اللبناني ومُهمَّتي الحرص على كلّ قرش من مال المُكَلَّف») يوجّه سؤالًا للحكومة عن النقد النادر وطريقة مَنْحه من وزارة الماليَّة ومَن وُزِّع عليهم ومصاريف المفوّضيَّة اللبنانيَّة في باريس وحفلاتها الباذخة.

١٩ حزيران عبد الله الحاج ينتقد قانون الانتخابات والفساد وظروف تشكيل الحكومة. و«الجبهة الاشتراكيَّة الوطنيَّة» تحجِبُ الثقة عن حكومة عبد الله اليافي (٢٢ نائبًا حجبوا الثقة مقابل ٥٣ منحوها ـ أي ثلث المجلس).

٣ تموز عبد الله الحاج يثير فضيحة أكلاف مطار بيروت ضعف القيمة المُقدّرة، ويسأل عن مصير سؤاله للحكومة عن نقد نادر تصَرَّفت به عقيلة رئيس الجمهوريَّة وحاشيتها. لم يأت ردّ عليه ضمن المدّة القانونيَّة المُحددة بالمادة ١٦٦.

١٠ تموز للمرة الثالثة يثير عبد الله الحاج سؤاله عن مصير القطع النادر، ويطلب تزويد المجلس ببيانات الصادر والوارد من القطع النادر منذ أول ١٩٤٧ وأكلاف رحلات قرينة رئيس الجمهوريَّة وحاشيتها.

٢ آب عبد الله الحاج يثير مُجدَّدًا فضيحة سوء إدارة المال العام، ويقترح تشكيل لجنة تحقيق برلمانيَّة في نفقات مطار بيروت.

رُفِضَ الاقتراح بالأكثريَّة، فانسحب من الجلسة نوابُ «الجبهة الاشتراكيَّة الوطنيَّة»: كمال جنبلاط وغسان تويني وأنوَر الخطيب وبيار إدّه وعبد الله الحاج وديكران توسباط.

٢١ آب جلسة مدوّيَّة تقارعت فيها المعارضة مع الموالاة حول أسئلة المعارضة للحكومة وملاحقتها للاستجوابات. كتلة الموالين بقيادة هنري فرعون تَرُد على كتلة المعارضة في جلسة عاصفة.

٢٢ آب تظاهرات مُسلّحة لأنصار سليم الخوري ـ شقيق رئيس الجمهوريَّة.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

ـ في قرى الشوف والمتن وجبيل والشِّمال.

▌ **٢٨ كانون الأول** جمعيَّة عموميَّة لنقابة المحامين تعلن الإضراب الشامل اعتبارًا.

١٩٥٢

عبد الله الحاج يُعلن تأييده قانونَ نقابة المحامين.

▌ **٨ كانون الثاني** عبد الله الحاج يُطلق حملة مقاطعة شركة كهرباء بيروت والامتناع عن الدفع. حزب الكتائب و«الهيئة الوطنيَّة» ينضمّان إلى الحملة.

▌ **١١ كانون الثاني** غسان تويني وعبد الله الحاج يقدّمان اقتراحين لإلغاء الطائفيَّة منقانون الانتخاب ـ احتدام المعركة مع حميد فرنجيَّة. غسان تويني وعبد الله الحاج يقترحان على المجلس إعطاء النساء حق الانتخاب أُسوة بالرجال.

▌ **١٢ كانون الثاني** احتجاجًا على تلكُّؤ الحكومة في وضع المشروع على جدول الأعمال.

▌ **١٢ كانون الثاني** نقابة المحامين تُعلن الإضراب المفتوح.

▌ **١٥ كانون الثاني** جلسة مجلس النواب لمناقشة موضوع الشركات الاستثمارِيَّة: عبد الله الحاج يطالب بتعديل شروط الامتيازات.

مجلس النُّواب يقرّ إعادة النظر باتفاقيَّة العقد مع شركة كهرباء بيروت، وإلغاء امتيازات الشركات الأجنبيَّة.

▌ **١١ شباط** استقالة حكومة عبد الله اليافي وتكليف سامي الصلح تأليف حكومة جديدة.

▌ **١٩ شباط** مناقشة البيان الوزاري: عبد الله الحاج، باسم«الجبهة الاشتراكيَّة الوطنيَّة»، يطالب بتعديل الدستور وفصل الدين عن الدولة.

▌ **١٠ آذار** عبد الله الحاج يوجه سؤالًا لحكومة سامي الصلح عن الإضرابات وهَيبة الدولة.

▌ **٢ أيار** إضراب عمال الهاتف والبريد.

▌ **٣ أيار** إضراب عمال السكك الحديدية.

▌ **٨ أيار** إضراب نقابات تُجّار الخضَر وتنجيد المفروشات وعمال الحلاقة. عبد الله الحاج يهاجم الحكومة المتقاعسة.

▌ **١٤ أيار** إضراب عمال معظم النقابات العماليَّة ليوم تضامنيّ واحد.

▌ **٣٠ أيار** في افتتاحيَّة كمال جنبلاط (جريدة الأنباء): «جاء بهم الأجنبي فليذهبْ بهم الشعب». تعطيل الجريدة ٨ أشهر بناء على حكم قضائي، وشهر واحد للصحف التي نشرت المقال.

▌ **١٠ تموز** بعد ٦ أشهر إضراب عن الدفع: شركة الكهرباء

تخفّض سعر الكيلوات من ٢٢ قرشًا إلى ٤ قروش، لكنها لا تُحسّن مستوى الخدمات.

▌ **٦ آب** «الجبهة الاشتراكيَّة الوطنيَّة» تعلن تصعيد المواجهة مع النظام الحاكم.

▌ **١٧ آب** «الجبهة الاشتراكيَّة الوطنيَّة» تدعو إلى مهرجان سياسي كبير في دير القمر: كميل شمعون، حميد فرنجيَّة، عادل عسيران، أنور الخطيب، غسان تويني ينتقدون النظام الحاكم. عبد الله الحاج يطالب بتنحيَّة رئيس الجمهوريَّة.

▌ **٢٠ آب** رصاص على منزل عبد الله الحاج (الغبيري) أطلقه سالم فرحات (من أنصار النائب سليم الخوري شقيق الرئيس).

▌ **٨ أيلول** تفكك حكومة سامي الصلح باستقالة الوزراء أحمد الحسيني ومجيد أرسلان وحسين العبد الله.

▌ **٩ ـ ١٥ أيلول** سامي الصلح يستقيل في خطبة عنيفة هاجم فيها الفساد واتهم رئيس الجمهوريَّة بتجاوز صلاحياته. بشارة الخوري يشكّل حكومة ثلاثية برئاسة ناظم العكاري وعضويَّة باسيل طراد وموسى مبارك، لكنها تستقيل، والرئيس الخوري يُكَلّفُ صائب سلام تأليف الحكومة.

▌ **١٥ ـ ١٦ أيلول** إضراب شامل في جميع المناطق اللبنانيَّة.

▌ **١٧ أيلول** «الجبهة الاشتراكيَّة الوطنيَّة» ترفع كتابًا إلى

رئيس مجلس النواب أحمد الأسعد عن رغبة الشعب أن يغادر رئيس الجمهوريَّة السلطة. رئيس الحكومة المكلَّف صائب سلام يرفع «رغبة الشعب» إلى رئيس الجمهوريَّة الذي يرفضها ويؤكد على تمسُّكه بمنصبه. صائب سلام يستقيل. المعارضة في برقيَّة إلى قائد الجيش فؤاد شهاب تطالبه بحياد الجيش في الصراع السياسي القائم. قائد الجيش يجيب: «الجيش مش معمول ضد اللبنانيين. المسألة سياسيَّة لا علاقة لنا بها».

١٨ أيلول الرئيس بشارة الخوري يستدعي قائد الجيش الذي يُبلغُه تحفُّظه عن التدخل في الصراع السياسي القائم.

١٩ أيلول استقالة بشارة الخوري وصدور مرسوم بتعيين اللواء فؤاد شهاب رئيس حكومة انتقاليَّة ضمّته إلى ناظم عكاري وباسيل طراد.

٢١ أيلول «الجبهة الاشتراكيَّة الوطنيَّة» ترشيح كميل شمعون لرئاسة الجمهوريَّة.

٢٣ أيلول انتخاب كميل شمعون رئيسًا للجمهوريَّة. ورقة بيضاء وأُخرى بِاسم عبد الله الحاج (نكتة تاريخيَّة عن «جلسة تاريخيَّة» كما سمَّتْها مجلة الصياد).

فشَل عبد الله اليافي وسعدي المنلا ورشيد كرامي في تأليف حكومة لتشدد «الجبهة الاشتراكيَّة الوطنيَّة». الرئيس كلَّف خالد شهاب تأليف حكومة إداريَّة من ٤ وزراء تتمتّع

بحـق إصـدار مراسـيم اشـتراعيَّة علـى مـدى ٦ أشـهر.

٩ تشرين الأول حكومة خالد شهاب تنال الثقة.

٤ تشـرين الثانـي حكومـة خالـد شـهاب تُقـرُّ قانـونَ انتخـابٍ جديـدًا: تخفيـض عـدد النـواب مـن ٧٧ إلـى ٤٤، وتقسـيم الدوائر الانتخابيَّـة إلـى ٢٢ دائـرة صغيـرة ذات انتخـاب فـردي، و١١ دائـرة صغيـرة ذات انتخـاب ثنائـي. منحُ المـرأة حـق التصويـت.

عبـد اللـه الحـاج يؤيـد القانـون الإصلاحـي رغـم حـذف المقعـد الشـيعي فـي جبـل لبنـان.

١٨ كانـون الأول عبـد اللـه الحـاج يعلـن مـن مجلـس النـواب أن الطائفيَّـة تمنـع الدولـة مـن أن تعمـل كدولـة.

١٩٥٣

إخضـاع شـركة الكهربـاء لإدارة موقتـة بعـد تخلّفهـا عـن تحسيـن الخدمـات. مصـادرة شـركة الكهربـاء.

١١ أيار بداية تفكّك «الجبهة الاشتراكيَّة الوطنيَّة».

١٢ أيار حكومة صائب سلام تنال ثقة مجلس النواب.

١٢ تمـوز الانتخابـات النيابيَّـة: عبـد اللـه الحـاج يفـوز فـي بيـروت علـى رشـيد بيضـون بـ ١٠٧٢٢ صوتًـا مقابـل ٥٣١٩ صوتًا.

١٣ آب الانتخابـات النيابيَّـة: عبـد اللـه الحـاج يفـوز فـي

بيـروت علـى رشـيد بيضـون بــ ١٠٧٢٢ صوتـًا مقابـل ٥٣١٩ صوتًا.

▌ **٣ أيلــول** عبـد اللــه الحــاج يعلــن مــن مجلــس النــواب أنَّ الطائفيَّةتَحُــول دون تكويــن شــعب وتضُــرُّ بالخُلُــقِ الوطنــي اللبنانــي.

▌ **١٤ أيلـول** سـؤال عبـد اللـه الحـاج إلـى الحكومـة عـن إلغـاء الطائفيَّـة السياسـيَّة.

▌ **٣ تشـرين الثانـي** احتـدام النقـاش بيـن حميـد فرنجيَّـة وعبـد اللـه الحـاج حـول اقتراحـه إلغـاء الطائفيَّـة.

١٩٥٤

اســترداد الامتيــاز مــن شــركة كهربــاء بيــروت الفرنســيَّة ـ البلجيكيَّـة ببروتوكـول وقّعـه رئيـس الحكومـة عبـد اللـه اليافـي ووزيــر الأشــغال العامــة جبرائيــل المــر ورئيــس الشــركة لقــاء تعويــض قــدره ٢٣,٥ مليــون ل.ل.

مؤسسة دَار الجديد
Dar al Jadeed

« هَذَا الكِتَابُ وَثِيْقَةٌ استِثْنائِيَّةٌ تَسْرُدُ شَذَراتٍ مِنْ حِقْبَةٍ مِحْوَرِيّةٍ ـ مغيَّبَةٍ نوعًا ـ من تَاريْخِ لُبْنان القرنِ العِشْرين عندما وقفتْ شَخْصِيَّاتٌ بارِزَةٌ من الطَّائِفَةِ المسْلِمَةِ الشِّيْعِيَّة تُدافعُ عن العَلْمَنَةِ والتَّعايُشِ والاخْتِلاف وتَدْعُو إلى التَّحَرُّرِ من الإقْطاع. عَلاوَةً على حَيَويّتها وما تُفْصِحُ عنه مِنْ مَعْلُومَات، تُؤَسِّسُ هَذِه الشَّهادةُ لذاكرةٍ تَوّاقَةٍ إلى المسْتَقْبَل. »

دومينيك إدّه

« لَمْيَاء المُبَيِّض لَيسَتْ مؤلِّفةَ هَذَا الْكِتَابِ. اِنْتَحَلَتْ صِفَةَ مُوَاطِنَةٍ مُمَزَّقَة. لَمْيَاء اَلْمُمَزَّقَةُ بَيْنَ لُبْنَانَ اَلْمُرْتَجَى وآخَرَ لَا يُشْبِهُ أغلَبنا. اَلْفَرْقُ اَلْوَحِيدُ فِي هَذِهِ التُّهْمَةِ أَن لَا مَحْكَمَةَ ذَاتَ صَلَاحِيَّةٍ بِإِمْكَانِهَا معاقَبَةُ جُرْحِهَا العَمِيق. كُلُّ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَحْكُمَ بِهِ عَلَيْهَا هُوَ مُشَارَكَتُهَا جِرَاحَهَا اَلْبَلِيغَة. »

رُونِي أَلْفَا

« لَيسَ هَذَا الْكِتَابُ سِيرَةً ذَاتِيَّةً وَلَا سِيرَةَ مَكَانٍ وَلَا سِيرَةَ وَطَنٍ كَامِلَةً... لَيسَ تَارِيخِيًّا بِالْمُطْلَقِ أَوْ كِتَابًا أَدَبِيًّا فَنِّيًّا حُكْمًا... إِنَّهُ إِشْرَاقَةُ بَلَاغَةٍ انْصَهرَتْ فِيهَا فُنُونُ الْأَدَبِ وَالسِّيَاسَةِ وَالتَّارِيخِ وَالِاجْتِمَاع، نَفَخَتْ مِنْ خِلَالِهَا الْمُؤَلِّفَةُ لَمياء المُبَيِّض الرُّوحَ فِي مَكَانٍ بِحَجْمِ وَطَنٍ أَفْقَدَتْهُ الْحُرُوبُ وَالتَّحَوُّلَاتُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ صُوَرَهُ ومثالاتِهِ ورجالاتِه، مُسْتَعِيرَةً فَنَّ الْحَكَوَاتِيِّ لِإِطْلَاقِ الْعِنَانِ لِذَاكِرَةِ اَلْأُمِّ الثَّمَانِينِيَّةِ وَحِكَايَاتِهَا فِي مُوَاجَهَةٍ تُعِيدُ إِلَى الْمَتْنِ قِيَمًا لَطَالَمَا أُرِيدَ لَهَا فِي لُبْنَانَ أَنْ تَبْقَى عَلَى الْهَامِش.»

رفيف رضا صيداوي

لـمياء الـمبيّض

لُبْنانِيَّتُها لُبْنانِيَّةُ الأصَالةِ والقيمِ الإنْسَانيّة. كُلُّ الشَّهادات والأوْسِمَةِ التي نالَتْها وكلُّ المَناصبِ التي تَبَوَّأتها ـ ومِنْها تَرَؤُّسُ مَعْهَدِ باسِل فُليحان المَاليّ والاقتصاديّ في كِفّةٍ ـ وإيـمانُها وتـمَسُّكُها وعَمَلُها من أجلِ لبنانَ الدَّوْلَةِ العادِلَةِ العَصْرِيَّةِ النَّاجحةِ في كِفَّة أخرى. هي قُدْوَةٌ تنيرُ الطَّرِيق.

مؤسسة دار الجديد

Dar al Jadeed


978-9953-11-221-3